مكتبة المسلم العصرية

إسلاميات

في ميزان الإسلام

الجزء الأول

تأليف

الدكتور محمد رجب البيومى

عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

٨

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

إسلاميات

مكتبة المسلم العصرية

(٨)

بإشـــراف

الجمعيـة الشرعيـة للعامليـــن
بالكتاب والسنة بالقاهرة

فى ميزان الإسلام

الجزء الأول

تأليف

الدكتور محمد رجب البيومى
عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقى بالفجالة - القاهرة - ت ٩٠٨٤٥٥

سلسلة

مكتبة المسلم العصرية

إسلاميات

●

سلسلة كتب إسلامية دورية
تعرف المسلم بكل أمور دينه

○ عقيدة ○ فقه ○ تفسير
○ حديث ○ سيرة ○ ثقافة
إسلامية ○ مشاكل العصر

بأسلوب ميسر يفهمه العامة ،
ويسعد به الخاصة

●

مراجعة هيئة كبار علماء

الجمعية الشرعية للعاملين
بالكتاب والسنة بالقاهرة

●

حقوق الطبع محفوظة للناشر

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ــ المطابع ٨ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية ــ المكتبات ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة ــ ٤ شارع الإسحاق بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة ــ القاهرة ت : ٨٢٦٢٨٠ ــ ٩٠٨٤٥٥ ــ ٢٥٨٦١٩٧ ج. م. ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لا تجد ديناً تجرأ على الحديث عنه من لم يتعمق أصوله ، ويفهم أسراره ، كما تجد اليوم فيما يكتب عن الإسلام ، حيث قام أناس يتظاهرون بالتقدم ، ويهتفون بالتجديد ، ولا همَّ لهم إلا أن يكتبوا عن الإسلام بما ليس فيه ، وهم فى أكثرهم ممن لم يدرسوا حقائق التشريع دراسة منهجية ، وإنما لقفوا بعض آيات لم تفهم على وجهها الصحيح ، ونتفوا بعض الأحاديث نتفاً طائراً لا يقف وقفة المتأمل ، ولهم فى نفوسهم كبرياء تدفعهم إلى الترفع إذا ووجهوا بالتصحيح ، إذ يعز عليهم أن تُكشف أخطاؤهم بلسان الحق ، فتراهم يواجهون التصويب الكاشف ، باللغط المسفّ ، ولهؤلاء شياطين مستترون يقودونهم إلى الباطل من وراء حجاب ، ويمدونهم بمغريات الحياة مادية ومعنوية ، وذلك كله سراب بقيعة لدى من يزن الناس وزناً صحيحاً ، فيعرف من يمشى مكباً على وجهه ومن تتبَّع السنن القويم .

وهذه فصول هادفة تعرض لبعض المفتريات لتكشف عوارها ، ولتفضح من يتحدث عن الشريعة الإسلامية والحكم الإلهى ، والخلافة الراشدة ، وهو لا يعلم الصواب من الخطا ، كما نبين أهواء من يفهمون النص القرآنى على غير وجهه ، ومن ينكرون أثر الدين فى تربية المسلم وصلاح المجتمع ومن يضعون المرأة الإسلامية فى غير موضعها التشريعى

ومن يقفون من البعث الأخروى موقف الشاك المرتاب ، إلى أمثال هذه المسائل الحيوية ذات الشد والجذب ، وقد آن لها بعد التمحيص أن تسفر عن وجهها المنير .

وليس المقال الدينى كأكثر المقالات السياسية يفقد مغزاه بمرور مناسبته ، ولكنه ذخيرة تُضم إلى التراث العلمى ويرجع إليها فيما تعالجه من المسائل ، وقد كان كتاب الأستاذ الإمام محمد عبده عن الإسلام والنصرانية عدة مقالات نشرت بالصحف ، ولو لم تجمع فى حيز خاص لضاع خير كثير على الباحثين ، وأمثال كتاب الإسلام والنصرانية كثير ، نراه فيما جمعه العقاد وشلتوت والخضر حسين ومصطفى صادق الرافعى وغيرهم ، وقد سبق أن أصدرت مجموعة تحت عنوان (قضايا إسلامية) فى جزءين ، نفدت طبعتها سريعاً ، فرأيت أن أتبعها بمجموعة تحت عنوان (فى ميزان الإسلام) تقع فى جزءين ، راجياً أن تجد من القبول لدى القراء ما وجدته المجموعة المشار إليها ، وعلى الله قصد السبيل .

د . محمد رجب البيومى
عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

يحاربون الشريعة الاسلامية عنتريات موهومة !

تفسح المجلات المصرية صدرها عن رحابة وترحيب لمن يعارض تنفيذ الشريعة الإسلامية ، إذ كثرت المقالات التى تشكك فى جدوى التشريع ، كثرة تدعو إلى العجب ! وقد عمد بعض المشرفين على تحرير مجلة أسبوعية ذائعة إلى تصيُّد كل من يرى لديه رأياً منحرفاً عن الشريعة ليفسح له مجال القول ، وليقدّمه لقرائه تقديماً مادحاً يجوِّف من مكانه ، فإذا شاء كاتب مخلص أن يعارض ما قاله هذا المنحرف وأمثاله ، فقد يهمل رد المعارض ، وقد يُسبتر بتراً لا يفى بتحقيق مراده ، وما زالت هذه المجلات توالى رسالتها فى إلحاح دون أن تصاب بسوء .

لذلك كان من العجب العاجب أن يصدر كاتب غير متخصص كتاباً دعائياً يهاجم فيه تنفيذ الشريعة ، وأن يقدم له بفرقعة صاخبة ، تدل على أنه يتعرض فى موقفه إلى خطورة من مخالفى رأيه ، وأنه يقدم على عمل فدائى باسل ، وهو مرحب بالعاقبة المنتظرة ، فهو يقول فى مقدمة كتابه إنه لايبالى إن كان فى جانب ، والجميع فى جانب آخر ، ولا يحزن إن ارتفعت أصواتهم أو لمعت سيوفهم ! !

ويقول فى الإهداء : «إلى ولدى ياسر الذى لم أدّخر له إلا المخاطرة» .

وأنت تسأل فى دهشة : أىّ سيوف ستلمع ؟ وأىّ مخاطرة يدخرها المؤلف لولده ؟ حين يعارض تنفيذ الشريعة الإسلامية ؟

أمامه الواقع المعاصر ينبئه بأن الذين يعارضون تنفيذ الشريعة ، قد احتلوا منابر التوجيه فى الإذاعة والصحافة ، ووصلوا إلى أعلى المناصب ،

ومنهم من بلغ مرتبة الوزارة ، ولم نسمع فى يوم ما ، أن أحدهم قد اعتدى عليه فى موقف ، وأن قطرة دم واحدة سالت من جسم كاتب يحارب شريعة الله فى مصر !

ولكن الذى نعرفه عن يقين أن الذين طالبوا بتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية ، قد قتلوا بمصر ، وشرّدوا ، وامتلات بهم السجون أحقاباً طويلة ، وارتفع معذبوهم إلى مراتب القيادة والسلطة ، ونالوا المناصب والأوسمة !

هذا ما ينطق به الواقع المشاهد، وهو من الوضوح بحيث يعرفه كل إنسان ، فليت شعرى كيف يجوز لصاحب كتاب (قبل السقوط) أن يجرؤ على تزييف الحقائق ، وهو يعيش فى أمة تعرف الظالم والمظلوم ، وتميز الطيب من الخبيث .

ثم إن المفاجأة تملا القارئ دهشة حين يرى المؤلف يضع إطاراً فى صدر كتابه يقول فيه : «نعم للمصحف والدين ، ولا للسيف والحكم» .

ما دخل السيف فى هذا الموضوع ؟ ولماذا يقرنه الكاتب مع الحكم بشريعة الإسلام ؟ أى سيف هذا الذى يلصق بالشريعة وهى منه براء !

إما أن يكون الكاتب قد اعتمد التغرير بعقول القراء ، وهو فى ذلك مخدوع خادع ، لأن علماء الإسلام قد أوضحوا حدود الحكم الإسلامى بما يبعده عن دائرة السيف كل البعد ، وإما أن يكون الكاتب لايدرى شيئاً عن قوانين الشرع الإسلامى ، وبذلك يكون قد هرف بما لا يعرف وقدم للناقد ما يسقط قوله أعنف السقوط وأخزاه .

ثم أليس من المضحك أن يقول المؤلف : نعم للمصحف ولا للحكم ! وكأن المصحف والحكم نقيضان لا يجتمعان .

أليس الخضوع للمصحف خضوعاً لقول الله : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما » .
(النساء : ١٠٥)

ولقوله : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » .
(المائدة : ٤٩ و ٥٠)

وقوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .
(المائدة : ٤٤)

وقوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .
(المائدة : ٤٥)

وقوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » .
(المائدة : ٤٧)

والشواهد فى هذا المجال لا تنحصر فى نطاق ! فكيف يفرق المؤلف بين المصحف والحكم ، ويقول فى وثوق مستغرب : نعم للمصحف ، وللحكم لا !

لو كان لدى الكاتب تأويل لمثل هذه الآيات الصريحة لأتى به ، فعرفنا أنه ذو اشتباه ، فيجب علينا أن نفصح عنه ، ونكشف ما وقع فيه من التباس ، فربما يكون مخطئاً يحتاج حديثه إلى تصويب ، ولكنه سكت عن هذه الشواهد ، سكوتاً ينقص من قدره العلمى ، إذ لا يجوز لمثله أن يتصدى لما لايحسن ، بل لايجوز أن يقع فى تناقض سافر يلمسه القارئ العادى حين يقول : نعم للمصحف ولا للحكم !

لقد أراد أن يخدع قارئه بقوله : نعم للمصحف ! وقد نسى أن الوعى الثقافى لدى القارئ المسلم قد تجاوز به دور الخديعة ؛ فالمكتبة الإسلامية الشريفة تجد مكانها فى عقول الشبيبة الإسلامية ، والذين تابعوا معارض الكتاب الدولية فى السنوات الأخيرة علموا عن عيان أن الكتاب الإسلامى تصدّر ما عداه ، وعرفوا أن دوراً للنشر لم تكن لتهش لنشر البحوث الإسلامية قد بارت تجارتها ، وكسدت كتبها ذات الصور الملونة ، والاستهواء العاطفى ؛ فاضطرت لنشر الكتب الإسلامية مرغمة تحت تأثير ما منيت به من الخذلان ، وفى المعارض الأخيرة للكتاب العربى ما يدل على ذلك حين انتقلت دور النشر الإباحية ، من مجال إلى مجال ، فإذا كانت الحقائق الإسلامية قد ائتلقت فى أذهان الناس ائتلاقاً قرّب البعيد ، وكشف الغامض ، وفصّل المجمل ؛ فكيف خدع المؤلف نفسه ، وحاول أن يخدع غيره حين وضع فى صدر كتابه إطاراً بارزاً يقول فيه : نعم للمصحف ولا للحكم !

والأدهى من ذلك كله أن يقول فى بعض صفحات كتابه ص٤٦ عن المطالبين بتنفيذ شريعة الله « إنهم قصدوا الجهل ، جهل القارئ لهم والمتابع لمقولاتهم ، وتعمدوا التجهيل فيما يعلمونه علم اليقين ، ويصلون إلى حقيقة دون عناء شديد ، أو جهد جهيد » .

من الذى يقصد الجهل ويتعمد التجهيل ؟ باحث يقرأ كتاب الله كما جاء ؟ أو مدّع يحاول أن يطمس آيات الكتاب ، ويرى الناس أنه يتسربل فى بحثه برداء الإسلام !

على أنى أقف أمام شجاعته المصطنعة أمام ما يتخيله من سيوف لا وجود لها ، ومن مخاطر موهومة يزعمها زعماً لتخلع عليه ثوب البطولة ، أقف لأستعيد أمثلة سابقة لنظراء من أمثاله ، جاءوا بالرأى المخطئ ثم

اندفعوا يصرخون بأنهم محاربون . ومعرضون للخطر ! وأن أرواحهم توشك أن تذهب ، ثم مرت عشرات الأعوام وهم رافهون منعمون!

لقد ألف كاتب ما ، كتاباً سماه « هذه هى الأغلال » ومضى يعلن فى كل مكان أنه مضطهد ، وأن حبل المشنقة يوشك أن يلتف على رقبته وأن على الأحرار أن ينقذوه ، وانطلت خديعته على بعض العقلاء ، فرحبوا به مخدوعين ، ولكن الشهيد الحر الأستاذ (سيد قطب) كان أحد الذين لمسوا خديعته ، فتحدث عنه كاشفاً ما استتر من خداعه فقال (عن الرسالة عدد ٧٠٢) :

« قَدِّم إلىّ هذا الكتاب وأديرت على سمعى الأسطوانة التى أديرت على أسماع الكثيرين — أسطوانة حبل المشنقة — وتأثرت ساعتها وتحمست فحياة كاتب ليست بالشىء الهين ، وإهدار الحياة بسبب رأى أو فكرة مسألة لا يتحملها القرن العشرون ، فوق ما فى الفكر الإسلامى من سماحة تبرئه من الجنوح إلى طريقة محاكم التفتيش .

ولكنى حين قرأت الكتاب بردت هذه الحماسة ، لأنى لم أجد إلا كاتباً مريباً ، ... ولم أشعر أن الرجل فى خطر ، فأمثال هؤلاء يعرفون طريقهم جيداً ، ولا خوف عليهم من الشنق ولا غيره ، ولو كانوا يعرفون أن الشنق ينتظرهم حقاً ، لما أقدموا على فعلتهم ، لأن الحياة على كل حال أغلى من كل ثمن سواها قد يأتى به الكتاب .

ووجدت أنه من المهانة للفكر أن أنزلق فأكتب عن كتاب تافه مسروق مريب كهذا الكتاب ، يسلك صاحبه هذا السلوك فى الاحتيال لبعث الاهتمام به ، وإثارة الضجة حوله » .

وقد أوضح الأستاذ (سيد قطب) كيف جاء الكتاب بأفكار مسبوقة لا فضل لصاحبه فيها .

والكتاب الذى نخصّه بالحديث (قبل السقوط) هو الآخر مجموعة من الأفكار المسبوقة التى لا فضل لصاحبها فيها، فكلنا نعرف أن قضية (الإسلام والحكم) ظلت تتردد فى الكتب والصحف منذ ألف الأستاذ (على عبد الرازق) كتابه (الإسلام وأصول الحكم) أى منذ ستين عاماً ، وقضية تتردد منذ ستين عاماً ، ويدور حولها النقاش لابد أن تكون من الظهور بحيث لا نجد الجديد فى كتاب يحاول أن يتحدث عنها دون أن يكون مؤلفه من رجال الاختصاص بحكم ثقافته البعيدة عن هذا المجال .

وهذا ما سأشير إليه عن قريب .

الصوت .. والصدى

كان كتاب (الإسلام وأصول الحكم) صوتاً تردد صداه بين الحين والحين ، ولا عجب فى ذلك فإن ما يسمى بأقسام الدراسات الإسلامية فى جامعات أوربا وأمريكا قد تواطأ رجالها على عدّه المرجع الأول للبحوث الإسلامية فى الحديث عن موضوعه، وقد ترجم إلى عدة لغات مختلفة ، وكثرت حوله صيحات الإعجاب والتأييد من أناس لا يعرفون عن الحكم الصحيح فى الإسلام شيئاً ذا بال! بل قد يعرفون ما يخالف وجهة هذا الكتاب، ولكن يجب أن يكون فى رأيهم صاحب الكلمة المسموعة وحده دون سواه .

ولعل مما يضحك كثيراً أن مستشاراً من رجال القانون فى مصر ، قد كتب مؤلفاً ينحو منحى الأستاذ على عبد الرازق فى دعاويه البعيدة ، وتقدم به إلى جامعة أو جامعتين فى أمريكا ، فصادف القبول ، ودعى صاحب الكتاب أستاذاً زائراً يلقى عدة محاضرات ، فعد ذلك موضع المباهاة ، وكتب فى جريدة (الأخبار) يفتخر بتدريس كتابه هناك ، وأنه لذلك حق لا شك فيه ! ! ناسياً أن مقرظى الكتاب من كبار خصوم الإسلام ، ولو عقل قليلا لعلم أن شهادتهم تحسب عليه لا له ! ولكنه الخذلان والعياذ بالله .

أريد أن أسأل هذا الغافل وأمثاله : هل رجعت إلى فقهاء الإسلام الأثبات من أمثال : محمد الخضر حسين ، ومحمود شلتوت ، ومحمد أبى زهرة ، وأبى الحسن الندوى ، ومحمد الغزالى ؛ فشهدوا لك شهادة تكون موضع الإعزاز ؟ وطبيعى أنه سيصمت عن الرد ، لأن جوابه

الصادق هو أنى رجعت إلى تلاميذ الفاتيكان ! ! رجعت إليهم فى أصل من أصول الإسلام ، فاغتبطوا إذ نطقت بما يودون أن يقولوه !

هذا الصوت الذى جهر به الأستاذ على عبد الرازق ، أخذ يتردد بين الجين والحين ، فما يسن قانون يخالف حكم الله فى مصر حتى يتصايح نفر من المغرضين يحبذون هذا القانون المخالف ، وينادون بضرورة فصل الدين عن السياسة فى مصر ، اقتداء بأوربا التى قهرت الكنيسة ، وفصلت الدين عن السياسة ، فإذا قلت لهم : لا كنيسة فى الإسلام ، ولا باباً يصدر من الأحكام ما يشاء ، كثر الغلط واللغو ، وقالوا : لا سياسة فى الدين ، ولا دين فى السياسة ! نحن فى عصر الحرية والنور !

نعرف نفراً قال ذلك من أمثال : محمود عزمى ، وسلامة موسى ، ومحمد صلاح الدين ، ومحمد عبد الله عنان ، ومصطفى مرعى ، ونعرف أيضاً أنهم قالوا ذلك دون أن يدرسوا وجه الرأى فى قوانين الإسلام ، كما نعرف أن طريق هذه الدراسة أصبح ميسوراً بعد أن ظهرت مؤلفات ضخمة كتبها أفذاذ أمثال : عبد الرازق السنهورى ، وعبد الوهاب خلاف ، ومحمد الخضر حسين ، ومحمد بخيت المطيعى ، وضياء الدين الريس ، ومحمد أبى زهرة ، وكلها تبدد شبهات المرجفين وتقود أصحاب التيه من خلال الحيرة إلى ضياء الاهتداء .

فليت شعرى لِمَ لم يرد أصحاب نظرية الفصل بين السياسة والدين على هؤلاء الكبار ، إذا اتضح لهم وجه الخلاف فيما يقولون ! وكيف ألزموا نفوسهم برأى الأستاذ على عبد الرازق مع ما اعتوره من السهام القاتلة ! فأخذوا يكررونه دون أن يضيفوا الجديد ... أمن طبيعة العلم أن تؤيد الرأى دون أن تفند ما يدور حوله من اعتراض ! وإذا كانت

هذه الاعتراضات من العنف بحيث جعلته هباء تذروه الرياح فكيف تعتصم بالهباء !

ثم جاء صاحب (قبل السقوط) ليعيد الفكرة التى سئمها الناس من ستين عاماً ، وقد احتفل به من صادف هوى فى نفسه ، فأفردت له صحيفة (الأهالى) مكاناً رحباً للتنويه ! وشاء الأستاذ محمود أمين العالم أن يفرد بحثاً ضافياً عن الكتاب الأول (الإسلام وأصول الحكم) فكتب فى جريدة (الأهالى) مذكراً بالأصل ، وكأنه يلتمس الذريعة لتأييد كتاب (قبل السقوط) بتأييد أصله الذى انبثق منه !

وقد ابتدأ الأستاذ العالم مقاله بتسجيل لقاء دار بينه وبين الأستاذ على عبد الرازق ، قال عنه نقلا عن جريدة الأهالى (١٩٨٥/٥/١٥) :

« ما زلت أذكر لقائى به ، ذهبت إليه أستأذنه فى إعادة طبع كتابه (الإسلام وأصول الحكم) ؛ كان سعيداً ، وكان حريصاً على أن يؤكد أنه ما تخلى ولن يتخلى عن كتابه أبداً ، على أن حديثى عن إعادة طبعه ، أثار فى نفسه الجرح القديم ، فقال لى : لم أعد أحتمل مغامرة جديدة ، اطبعوا الكتاب على مسئوليتكم ، ولا تطلبوا منى إذناً بغير ضمان أكيد أطمئن له .. كنا فى شهر يونية من عام ١٩٦٦ ، وكان الواقع السياسى والفكرى فى مصر آنذاك يعى الدرس العظيم الذى يتضمنه هذا الكتاب ، ولكن ما لقيه الشيخ على عبد الرازق من عنت فى الماضى بسبب هذا الكتاب كان ما يزال يملأ نفسه خشية وشكاً ومرارة ، وبعد أربعة أشهر من هذا اللقاء مات الشيخ الجليل، وما كان حلم الطبعة الجديدة من كتابه قد رأى النور بعد ، وحزنت ، وتمنيت لو لمس بيديه طبعته الجديدة تعبيراً عن معنى الوفاء ، والعرفان بالجميل والتقدير لما أضافه بهذا الكتاب إلى فكرنا الحديث » .

هذا ما قاله الأستاذ العالم بجريدة الأهالى ! وأنا أقف منه موقف الحذر، لأننى قابلت الأستاذ على عبد الرازق قبل رحيله بأشهر، ودار حديث عن هذا الكتاب ، سجلته بمجلة الثقافة فى العدد (٥٢) الصادر فى يناير (١٩٧٨) أى قبل أن يكتب الأستاذ العالم مقاله بسبع سنوات ، وفيه ما يدل على أن الشيخ تراجع عن بعض آرائه ، وأشار إلى مجلة أثبت فيها هذا التراجع ، وسأنقل ما كتبت من قبل ، لأعلن أنى أقف موقف الحذر من قول الأستاذ العالم : إنه كان حريصاً على أن يؤكد أنه ما تحلى ، ولن يتخلى عن كتابه أبداً .

جاء فى مقالى بعدد (الثقافة) المشار إليه ما نصه (ص ٦٣) بعد حوار ممتد

قلت له : هل لا زلت يا سيدى تعتقد أن الإسلام صلة روحية بين العبد وربه ، وليس دستور معاملة وتشريع ، فقال متحمساً : صلة روحية ! لم أقل هذا ؟ لقد أوضحت ذلك جلياً فى مقال لى ؟

فدهشت دهشة بالغة ، وسألت : أين هذا المقال ؟ ومتى ؟

فقال : فى مجلة (رسالة الإسلام) التى تصدرها جماعة التقريب منذ سنوات ، فنظرت حائراً .

ولمس الرجل أننى بين اليقين والظنّ ، فقال : ابحث عن المقال فى (رسالة الإسلام) وستجده ، ثم تنوع الحديث ، وحان موعد اللقاء ، فانصرفت لأجمع ما صدر من أعداد مجلة (رسالة الإسلام) باحثاً منقباً ، حتى اهتديت إلى العدد الثالث من السنة الثالثة ، وقد صدر فى رمضان سنة ١٣٨٠ هـ ، الموافق يولية سنة ١٩٥١ م ، فوجدت مقالا لحضرة صاحب السعادة على عبد الرازق باشا كما وصفته المجلة ، فى ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ تحت عنوان (الاجتهاد فى نظر الإسلام) ، وفيه يقول الكاتب :

قرأت بحثاً قيماً لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير الأستاذ الدكتور أحمد أمين ، جاء فى صدره أنه كان يتجادل معى ، فقلت : إن دواء ذلك أن نرجع إلى ما نشرته قديماً من أن رسالة الإسلام روحانية فقط ، ولنا الحق فى ما عدا ذلك من مسائل ومشاكل ، وقد وقفت أمام ناظرى كلمة (رسالة روحانية) ولم تشأ أن تمر من غير أن تثير ذكرى قصة قديمة لهذه الكلمة معى ، فقد زعم الزاعمون أنى فى هذا البحث قد جعلت الشريعة الإسلامية شريعة روحانية محضة ، ورتبوا على ذلك ما طوعت لهم أنفسهم أن يفعلوا ، أما أنا فقد رددت عليهم أنى لم أقل ذلك مطلقاً ، لا فى هذا الكتاب ، ولا فى غيره ، ولا قلت شيئاً يشبه هذا الرأى أو يدانيه ، أسوق هذا الحديث ليذكر الأستاذ الكبير أن فكرة روحانية الإسلام لم تكن لى رأياً ، يوم نشرت البحث المشار إليه ، وأنى رفضت يومئذ رفضاً باتاً أن يكون ذلك رأيى » ص ٢٤٧ .

قرأت هذا الكلام ، فزادت حيرتى ، لأنى أعرف أن الرجل قد قال هذا الكلام بمضمونه إن لم يكن بلفظه ، فكيف يقول : إنه لم يقل ذلك ، ولا شيئاً يدانيه ! وإذا كان ينكر صدور كلمة (روحانية) فإن مادتها صريحة من قوله ، ص ٦٩ من كتابه :

« ولاية الرسول على قومه ولاية روحية ، منشؤها إيمان القلب ، وخضوعه خضوعاً تاماً يتبعه خضوع الجسم ، وولاية الحاكم ولاية مادية تعتمد إخضاع الجسم من غير أن يكون له بالقلوب اتصال ، تلك ولاية هداية إلى الله وإرشاد إليه ، وهذه ولاية تدبير لصالح الناس وعمار الأرض ، تلك للدين وهذه للدنيا ، تلك لله ، وهذه للناس ، تلك زعامة دينية ، وهذه زعامة سياسية ، ويا بعد ما بين السياسة والدين » .

ويقول فى صفحة ٧٨ : « والدنيا من أولها إلى آخرها وجميع ما فيها من أغراض وغايات أهون عند الله من أن يقيم على تدبيرها غير ما ركب فينا من عقول ، وحبانا من عواطف وشهوات ، وعلمنا من أسماء ومسميات ، هى أهون على الله من أن يبعث لها رسولا ، وأهون على رسله من أن يشتغلوا بها وينصبوا لتدبيرها »

ويقول الأستاذ كثيراً مما شابه ذلك ! فكيف ينكر الأستاذ ما قال فى الكتاب ، وينكر ما قال للأستاذ أحمد أمين قائلا فى صفحة ٢٤٧ : (من مجلة رسالة الإسلام) : « إن كلمة روحانية تسربت على لسانه خطأ ، ولم يرد معناها ، ولعل الشيطان ألقى فى حديثى بتلك الكلمة » .

هذا تراجع سافر ! يناقض ما قاله الأستاذ العالم من أنه كان حريصاً على أن يثبت أنه ما تخلى عن كتابه أبداً ! !

لن يعيب المفكر أن يرى رأياً ثم يرجع عنه ، إنما يعيبه أن يرى رأياً مخطئاً ، ويظهر له وجه الخطأ بارزاً بعد مناقشة المجادلين ، ثم يصر على خطئه ، بل إن الرجوع إلى الصواب بعد الخطأ شجاعة نفسية يعرفها ذوو الأصالة من رجال البحث النزيه ، وفيهم من يرحب بظهور الحقيقة على يد سواه ! لأنها وحدها مجال الاهتمام دون نظر إلى من هتف بها من الناس ،

وشهد شاهد !

فى صفحة ١٨٧ من كتاب (قبل السقوط) اختيار لأسماء يزعم الكاتب أن أصحابها أفضل من يتحدثون عن الشريعة الإسلامية ، ويجرون الحوار بين المثقفين ، وقد اختارهم ممن ينحون نحوه ، وله أن يختار من يشاء ، ولكنه يزعم أن هؤلاء لا يسمح لهم بإبداء الرأى على نطاق واسع ، وهو زعم لا أساس له ؛ لأنهم شغلوا فراغاً كبيراً من الصحف والمجلات ، وما عرفهم المؤلف إلا لكثرة ما قرأ لهم مما يوافق هواه الخاص ، أما الذين يناصرون شرع الله فأكثرهم قد حيل بينهم وبين ما يكتبون ، وأذكر أن مستشاراً ممن ذكرهم المؤلف قد ملأ صفحات من جريدة (الأخبار) اليومية ذات شهر بمعلومات خاطئة عن شرع الله ، وكتب المخلصون — وكتبت معهم — إلى جريدة (الأخبار) لنرد على هذه الترهات ، ولكن الجريدة شاءت أن تحجب مقالاتنا عن الأنظار ، ولولا أن سيادة وزير الأوقاف حينئذ كان ممن كتبوا ينقدون هذه المقالات ، ولم تستطع الجريدة أن تهمل مقالا لوزير ! لولا ذلك لتمت مؤامرة منكرة لإسكات أصوات مؤمنة شاءت أن تواجه العدوان السافر !

وقد ذهبت إلى فضيلة الإمام الأكبر الشيخ عبد الرحمن بيصار شيخ الأزهر (حينئذ) لأذكر له موقف جريدة (الأخبار) من ردود العلماء ، كما ذهب إليه صديقى الأستاذ الداعية توفيق محمد سبع ليعلن استنكاره لموقف جريدة تعلن الباطل ، وتأبى أن تنشر الحق ، فتأثر الإمام الأكبر لما سمع ؛ واتصل بالمسئولين هناك ، فأخذوا ينتحلون

الأعذار ، ويقولون : إنهم نشروا مقالات السيد الوزير فى الرد ! فلو لم يكن صاحب الرد وزيراً لأهمل رأيه ، كما أهملت ردود صحيحة لحاجة فى نفوس القائمين على النشر ، وبعد ذلك كله يعلن صاحب (قبل السقوط) أن هؤلاء الذين أشار إليهم لا يجدون المجال الفسيح !

إن من الخطإ أن يرجع لغير الأثبات فى فهم شريعة الإسلام ، وإذا كان الكاتب وأمثاله يضيق بالمتخصصين من علماء الأزهر وزملائهم الذين ينحون نحوهم ، فى شتى بلاد الإسلام ، فإن أصحاب الرأى الحر من دارسى القانون المدنى مقارناً بالقانون السماوى ، وهم أهل الاختصاص فى هذا المجال ، قد أثبتوا فضل التشريع الإسلامى فى مؤلفات رئيسية ، شرحت بكليات الحقوق بالجامعات المدنية ، وقررت على الطلاب ، فألموا بها عن فهم واستيعاب . وأقل واحد من هؤلاء يعلم من أسرار التشريع ما لا يعلم معشاره أولئك الذين خصهم المؤلف بالاختيار ، بل إن هؤلاء لا يبلغون مبلغ تلاميذهم الصغار فى هذا المضمار !

ولو شئنا أن ننقل آراء الأعلام الكبار من أمثال : عبد السلام ذهنى ، ومحمد كامل مرسى ، ومحمد عبدالله العربى ، وعلى بدوى ، وعبد الرزاق السنهورى ، فى ترجيح التشريع الإسلامى ، وقضائه لحاجات الإنسانية على مد العصور ، ما اتسعت الصفحات لهذه الآراء فى مجلة محدودة الصفحات ، وإذا كان هؤلاء الأعلام الكبار من معتنقى الإسلام ، فإننا نتجاوزهم إلى تسجيل لرأى قانونى بارز من أعلام القانون العربى ، ورئيس وزارة جهير فى سوريا ، وأحد أساتذة القانون فى جامعة دمشق ، وهو مسيحى كاثوليكى ، درس التشريع الإسلامى دراسة منصفة ، وألقى عنه عدة محاضرات بالجامعة السورية ، ونشر عنه بحوثاً ضافية فى أرقى المجلات العلمية ، ذلكم هو الأستاذ فارس الخورى ، الذى

يقول فى بحث مستفيض نشرت مجلة الرسالة (العدد ٧٠٠) فقرات منه ، نقتبس منها هذه السطور ؛ يقول الأستاذ الخورى :

إن محمداً أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية ، ولم يستطع المنصفون من علماء القانون إلا الاعتراف بها ، وبأنها متفقة مع العلم ، مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية ، والبون شاسع بين شريعتى موسى ومحمد عليهما السلام ، فالأولى تأمر بالتقتيل بلا إنذار ، ولا عهد ، ولا صلح ، ولا دعوة لإيمان ، ولا يقبل اليهود من أعدائهم إيماناً ، ولا يسمح لهم بالرحيل والجلاء ، خوفاً من تجمعهم فيما بعد ، أما دعوة الإسلام فتدعوهم للإسلام ، فإن قبلوا عصموا دماءهم وأعراضهم وأموالهم ، وإن أبوا فالجزية ، وإن أبوا فالقتال . أما المقايسة بين الشرع الإسلامى والشرع الرومانى فلا نراها تستقيم لاختلاف الهدف والسنة بين الشرعين ، فالشرع الإسلامى قائم على قواعد العدل المطلق ، ومقتضيات العقول ، والشرع الرومانى قائم على المصالح والمنافع الدنيوية ، ويبنى على هذا التخالف أن الأساس فى الشرع الإسلامى مصلحة الفرد فى الدنيا والآخرة وفى الشرع الرومانى فى مصلحة الجماعة فقط . وهذه المبادئ ظاهرة آثارها فى كل صفحة من صفحات هذين الشرعين ، تفرق بينهما تفريقاً يتعاصى على المزج والتوحيد ، حتى أن الحكيم يكاد يستنبط استنباطاً الحكم بالمسائل المعروضة فى كل من الشرعين ، إذا اعتبر بهذه القواعد ورجع إليها ، وفى الأغلب يكون ظنه يقيناً ، مثال ذلك مرور الزمان ، إما أن يسقط الحق وإما أن يسقط الدعوى ، فالشرع الإسلامى لا يمكن أن يقول بسقوط الحق ، لأن الحق يبقى فى الذمة ، والفرد لا تبرأ ذمته إلا بالوفاء أو الإبراء مهما تطاول الزمن ، فلم يكتف الشارع الإسلامى بتأمين مصلحة الدنيا ، بل استهدف مصلحة الآخرة أيضاً ، فى حين أن الشارع

الرومانى اتخذ الجانب الآخر حين قال : إن الحق المتروك يسقط ، ولا يعود ، ولم يكترث بأثقال الذمة ، وعقوبة الآخرة ، لذلك نرى أن ليس من السلامة القول بأن أحد هذين الشرعين مأخوذ من الآخر ، وإذا طابعت أقوال الفقهاء فى الأمتين فى إحدى المسائل تجد كل فئة تعلل اجتهادها بطريقتها الخاصة ، مراعية مبادئها هى .

ثم قال الأستاذ فارس الخورى :

من أين لأمير من أمراء القرون الوسطى غير مأخوذ بالعاطفة الدينية ، وغير حريص على سلامة آخرته أن يجعل رائده تقوى الله فى حروبه وغزواته ، ويحرص على كل ما ينيله ثواب الخلود والمرتبة العالية فى الجنة بالتزام العدل والرحمة والبعد عما يشوب طهارة النفس ، وفضائل الأخلاق ، وذلك ما نراه شائعاً بين أمراء المسلمين وقوادهم ، والأمثلة كثيرة .

وبعد أن عرض الباحث الكبير أمثلة من خطابات عمر بن الخطاب لقادته فى ميادين الحروب داعياً إلى الوفاء والرفق واحترام العهود ، وعدم التعرض للشيوخ والنساء والأطفال ، وتنحية العسكر عن القرى الآمنة كيلا تصاب بسوء ! بعد أن عرض ذلك فى وضوح انتقل البحاثة يقول :

فى الإسلام أمور كثيرة تستوجب النظر الفاحص ، إذ يعجب الدارس من فكرة العدل الراسخة فى نفوس القادة من العرب (يريد المسلمين) وحرصهم على النهج القويم فى أفعالهم وصلاتهم مع محاربيهم ومعاهديهم ، ومن ذلك الأصول التى وضعت للنبذ عند جوازه (فانبذ إليهم على سواء) ، فإذا فسخوا الصلح ، وأصبحوا فى حالة حرب فهم لا يناجزون خصومهم إلا بعد إعلامهم بالفسخ ، ومضى الوقت

الرومانى اتخذ الجانب الآخر حين قال : إن الحق المتروك يسقط ، ولا يعود ، ولم يكترث بأثقال الذمة ، وعقوبة الآخرة ، لذلك نرى أن ليس من السلامة القول بأن أحد هذين الشرعين مأخوذ من الآخر ، وإذا طالعت أقوال الفقهاء فى الأمتين فى إحدى المسائل تجد كل فئة تعلل اجتهادها بطريقتها الخاصة ، مراعية مبادئها هى .

ثم قال الأستاذ فارس الخورى :

من أين لأمير من أمراء القرون الوسطى غير مأخوذ بالعاطفة الدينية ، وغير حريص على سلامة آخرته أن يجعل رائده تقوى الله فى حروبه وغزواته ، ويحرص على كل ما ينيله ثواب الخلود والمرتبة العالية فى الجنة بالتزام العدل والرحمة والبعد عما يشوب طهارة النفس ، وفضائل الأخلاق ، وذلك ما نراه شائعاً بين أمراء المسلمين وقوادهم ، والأمثلة كثيرة .

وبعد أن عرض الباحث الكبير أمثلة من خطابات عمر بن الخطاب لقادته فى ميادين الحروب داعياً إلى الوفاء والرفق واحترام العهود ، وعدم التعرض للشيوخ والنساء والأطفال ، وتنحية العسكر عن القرى الآمنة كيلا تصاب بسوء ! بعد أن عرض ذلك فى وضوح انتقل البحاثة يقول :

فى الإسلام أمور كثيرة تستوجب النظر الفاحص ، إذ يعجب الدارس من فكرة العدل الراسخة فى نفوس القادة من العرب (يريد المسلمين) وحرصهم على النهج القويم فى أفعالهم وصلاتهم مع محاربيهم ومعاهديهم ، ومن ذلك الأصول التى وضعت للنبذ عند جوازه (فانبذ إليهم على سواء) ، فإذا فسخوا الصلح ، وأصبحوا فى حالة حرب فهم لا يناجزون خصومهم إلا بعد إعلامهم بالفسخ ، ومضى الوقت

الكافى كى يخبر العدو رعاياه فى أطراف البلاد ، وعند تخوم المسلمين ، فإذا هاجمهم هؤلاء لا يكونون مأخوذين على غرة وغفلة ، وهذه درجة من الإنصاف قصّر عنها أهل زماننا مع ما عندهم من حقوق الدول وقواعد الحرب ، فإن دول العصر الحاضر تبدأ بالهجوم وسائر أعمال الاعتداء حالما تعلن الحرب دون أن تكون مجبرة على الانتظار بعد الإعلان ، حتى إن بعضها تهاجم قبل إعلان الحرب رسمياً .

ومن هذا القبيل — فى التشريع الإسلامى — قاعدة عدم أخذ العامة بجرائر الخاصة ، وهذا مستند للآية الكريمة : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » . فنهى الشرع الإسلامى عن تحميل المغارم لأهل القرى بالجملة لجرائم يقترفها أفراد منهم ، مع أن الحكومات المعاصرة تأخذ الطائعين بجريرة العاصين ، وأمامنا حوادث التقتيل والتهجير فى أوربا بالقرن العشرين تنبئ عن أخذ البرىء بجرم المذنب .

كما شرع الإسلام أن خروج الشراذم من المعاهدين واعتداءهم لايعد نقضاً للعهد ، ولا يوجب الغرم على الدولة المعاهدة بصورة عامة ، وهذا مبلغ من الإنصاف جدير بالاحترام فى أرقى العصور ، وما زالت الدول الآن غير خاضعة لهذه القاعدة ولا عاملة بها ، فقد حملت إيطاليا الغرم دولة اليونان بسبب اعتداء بعض اليونانيين على البعثة الإيطالية فى اليابان ، وفرضت عليها غرامة خمسين مليون فرنك مع أشياء أخرى ، واحتلت جزيرة كورفو ضماناً لإنفاذ هذه المطالب ، وكذلك فعلت انجلترا مع الحكومة المصرية فى مقتل السرلى ستاك باشا فأخذتها بجريرة بعض الشبان ، وكذلك فعلت فرنسا والنمسا فى واقعتين ذكرهما الأستاذ .

وفى ختام الحديث أشار الأستاذ فارس إلى اعتداء الدول الأوربية على المسالمين من الأطفال والشيوخ والنساء وتحريم الإسلام ذلك ، وكل

ما ألمع إليه البحاثة الكبير واضح سافر لا يقبل النقاش ، وإذا كان لى من تعليق على بعضه فهو مقارنته بين شريعة الإسلام ، وشريعة موسى فى صدر كلامه ، فقد يفهم منه أن شريعة موسى التى أشار إليها البحاثة هى ما أنزله الله على نبيه موسى ، مع أن شرع الله واحد ! فهو عادل لا يقبل الظلم ، ولكن تحريف الشريعة الموسوية على أيدى الأحبار من اليهود هو الذى أفضى إلى هذه الجرائم التى سمحت بها الشريعة ، كالقتل دون إنذار ، وعدم قبول الإيمان ورفض المبادرة بالصلح ، وما يشبه ذلك من الأحكام !

وقد ختم المؤلف كتابه بقوله : « إن المفكرين فى عالمنا العربى يتحملون مسئولية كبيرة فيما حدث من نمو متزايد للتيار السياسى الإسلامى !! وهى عبارة مضحكة حقاً ، لأن المفكرين الذى يعنيهم المؤلف ، لم يعينوا التيار السياسى الإسلامى سلباً وإيجاباً ، ولكن حق الله واضح ، ووعده مؤكد ، إذ نص فى كتابه على أنه سيستخلف الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى الأرض ، وسيمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وسيبدلهم من بعد أمنهم خوفاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون .

الخلافة الراشدة

عهد الخلافة الراشدة من أزهى عصور الإنسانية قاطبة ، إذ كان الحاكم فيه فرداً عادياً يقوم على تطبيق أحكام الكتاب ، معترفاً أنه قد وُلِّيَ على الجماعة وليس بخيرها ، وداعياً الناس إلى تقويمه إذا اعوجّ ، ومعلناً أن القوى ضعيف إذا ظلم ، وأن الضعيف قوى حتى ينتصر له ولى الأمر ، ومؤكداً أن طاعته واجبة ما أطاع الله فى أحكامه ، فإذا خرج عن أمر الله فى حكم فلا طاعة له ! ولم تكن هذه الأقوال خطباً تقال لإلهاء الجماهير ، ثم لا تجد تنفيذها فى الواقع العملى ، كما نلمس اليوم من ضروب الادعاءات لدى قوم يستهوون الناس بأكاذيب الإعلام صحافة وإذاعة وبرلماناً ، ولكن هذه الأقوال وجدت التطبيق العملى الذى زخرت صفحات التاريخ بتسجيل وقائعه ، تسجيلا بلغ حد التواتر ، ولا كذب مع التواتر المتردد بين الصغير والكبير .

هذا العهد الزاهر ظل مصدر القوة والقدوة للمسلمين ، فهم يحنون إليه إذا اكفهرت أساليب السياسية وركب الطغاة رءوسهم متجبرين ، بل يحنون إليه إذا ضاقت وجوه الأمل ، واشتدت غياهب اليأس ، فمصر حين دهمها الاستعمار الإنجليزى بعدوانه ، وأخذ دعاته من الذيول يتشدقون بآثاره الموهومة ، لم تجد منفذاً يشرق بالأمل إلا عن طريق الخلافة الراشدة ، فقام شعراؤها الكبار يبعثون الهمم الراقدة بتسجيل مآثر هذا العهد ، نظم حافظ إبراهيم قصيدة (العمرية) لتكون ملحمة خالدة تسجل مآثر أمير المؤمنين ، ونظّم عبد الحليم المصرى قصيدة (البكرية) لتكون صفحة ناصعة تسجل مواقف أبى بكر ،

ونظم محمد عبد المطلب قصيدة (العلوية) لتشيد بروائع على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ونظم أحمد شوقى ما سجله فى كتاب (دول العرب والإسلام) ليقدم الفترة الزاهرة من تاريخ الإسلام أجمل تقديم !

فليت شعرى بعد ذلك ما الذى دعا صاحب كتاب (قبل السقوط) إلى تنقصّ هذا العهد بدعوى أن القائمين عليه من الحاكمين كانوا بشراً لا ملائكة !!

من الذى قال : إنهم لم يكونوا بشراً ! بل من الذى قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن بشراً يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ! وإذا كان المؤلف قد رأى من دلائل الانحدار فى هـذا العهد مصرع عمر وما جدّ بعده من مصرع عثمان وعلىّ ! مما يترتب على ذلك فى رأيه أن يكون الحكم الإسلامى سبباً لمصارع هؤلاء ! وبذلك تسقط حجة من يذهبون إلى إكبار هذا العهد ، وينادون بتطبيق ما طبق فيه من أحكام الكتاب ! إذا كان المؤلف يرى فى مصارع الخلفاء ما يدعو إلى إلغاء الحكم الإسلامى ، فلماذا لم تلغ الدساتير الغربية فى كل أمة اغتيل فيها ملك أو رئيس !

لقد كان من الواجب إذن فى منطق صاحب كتاب (قبل السقوط) أن يلغى الدستور الأمريكى ، لأن الرجل العظيم (برهام لنكولن) قد اغتيل فى القديم ، ولأن الرئيس الشهير (جون كنيدى) قد اغتيل فى الحديث ، وإذن فالدستور الأمريكى قد سبب كارثة الاغتيال فى العهدين ! هذا منطق الكاتب نعرضه على القراء ، ليتفقهوا بما لم يكونوا يعلمون !

ثم ماذا ؟ ثم يعلن الكاتب أنه يقدم ما يقدم عن الخلافة الراشـدة (ص ١٦) ليصل بالقارئ إلى « فهم ما يفهمه هو من الإسلام ، وهو

فهم السياسى ورجل الفكر ، قبل أن يكون فهم رجال الدين ، وهو أيضاً يستند إلى قاعدة أساسية وهى أن الإسلام لم يتنزل على ملائكة ، وإنما تنزل على بشر مثلنا » .

أما أن الإسلام لم يتنزل على ملائكة ! فقد كان من الدقة أن يقول الكاتب : لم يتنزل على ملَكٍ لا ملائكة ، إذ أن نزول الكتاب كان خاصاً برسول الله ! أما الصحابة فقد آمنوا به والتزموا بما جاء فى كتابه المبين ! والقضية ليست مجال خلاف ، فالكاتب حين يعلن للمسلمين بشرية محمد صلى الله عليه وسلم وخلفائه ، إنما يقول لهم : السماء فوقنا ، والأرض تحتنا ، ولا يزيد !

وأما أن ما يفهمه من الإسلام هو فهم السياسى ورجل الفكر قبل أن يكون فهم رجل الدين ، فمعناه أن رجل السياسة فى الإسلام غير رجل الدين ، وأن السياسة والدين نقيضان فى الحكم ، وهو ما ينكره كل مسلم عرف أن الدين مسيطر عليه فى كل أمر جاء به ! وأنه ما دام قد ارتضى الإسلام ديناً ، فلا بد أن يصدر عن كتاب الله .. دع عنك ادعاء الكاتب أنه رجل فكر فى قضايا الإسلام ! وهو ادعاء أثبتت صفحات الكتاب أنه من هذا الفكر المزعوم بمنأى بعيد !

ثم لا يمل الكتاب أن يردد أن هناك فرقاً بين الإسلام والدولة ، والإسلام والدين ، وهو القول الذى دار عليه كتاب الأستاذ على عبد الرازق ! وقد اكتفى المؤلف المفكر بترداد هذا القول دون أن يرد على الرأى المخالف ! فهل من طبيعة الجدل العلمى أن تصدع بالرأى المختلف عليه ثم لا تعمد إلى أدلة معارضيه بتفنيد ، وهى أدلة منتزعة من كتاب الله ، من المصحف الذى قلت فى مقدمة كتابك عنه : نعم للمصحف !!

ويغرق المؤلف فى الضحالة حين يقول فى (ص ٢٠) : « إنه يستحيل أن يكون المطلوب من الحاكم اليوم أن يسير فى الأسواق رافعاً الدرة ، أو أن يعلو بها رءوس معارضيه ، أو أن يتصنت على البيوت فى الليل ، حتى يعلم من أحوال المسلمين ما يدعوه لأخذ الثريد لأطفال جياع ، أو أن يؤرقه دابة فى جنوب أسوان ! أو أن يلبس إزاراً فيه اثنتا عشرة رقعة ، أو أن يكون هو الحاكم الأوحد على بيت المال !

وإجابة على ذلك نقول : من الذى أوحى للمؤلف أن من يطلبون تنفيذ الشريعة الإسلامية ، لا يفرقون بين اختلاف الأحوال فى مجتمع صغير كمجتمع المدينة المنورة أيام عمر بن الخطاب ، وما يلزم أن يأخذ به رئيس الدولة فى مملكة واسعة ذات محافظات ومديريات ؟ هل نادى أنصار الشريعة بضرورة حمل الدرة ، ولبس الثياب المرقعة حتى يكون ذلك موضع ملام ! أو أنهم دعوا إلى تنفيذ أحكام الكتاب فى العبادات والبيوع والمعاملات والحدود والزواج والميراث !

ثم ألا يعلم المؤلف أن مفتش التموين الذى يراقب السوق اليوم هو عين الحاكم وأداته ! وأن القائمين على معاقبة المجرمين من رجاء القضاء هم أعوان الحاكم، وأن رجال المباحث الذين يتصنتون على الناس ليتفادوا وقوع الجرائم ويأخذوا بأسباب الحيطة هم أعوان الحاكم ، وأن وزارة الشئون حين تطعم الجائعين بمعاش مقرر تفعل ما فعل عمر بن الخطاب حين قدم البر والخبز للجياع ! ثم لماذا لا يهتم الحاكم المعاصر بأحوال رعيته فى الأماكن القريبة والبعيدة ، فتؤرقه مصائر الحيوان والإنسان فى أسوان مثلا ! وذلك ما يحدث عن عيان، حين يحيق الخطر ببلدة ما، فتنهض الدولة لإغاثة المنكوبين !!

فإذا كانت الدولة المعاصرة تقوم بما قام به عمر فأى غرابة فى صنيعه ، ولماذا لا يكون ما سجله التاريخ عنه موضع افتخار ومباهاة !

وإذا كان عمر قد لبس الثياب المرقعة فى وقت كان الجدب فى عام الرمادة يغمر الناس ! فهذا هو المنتظر منه ، ونحن الآن نؤاخذ بعض الرؤساء الذين يحتفلون باختيار ملابسهم ، وتعدد أزيائها مع ارتفاع أثمانها ، ونضرب المثل الأعلى برؤساء دولة كالصين يلبسون الثياب الشعبية الرخيصة ، فإذا جاء عمر ولبس الثوب المتواضع فى زمان العسرة ! كان ذلك موضع استهزاء !! ألا يجدر بنا فى هذا المجال أن نستشهد بقول القائل :

إذا محاسنى اللاتى أدل بها ... كانت ذنوباً فقل لى كيف أعتذر

ثم ينتقل الكاتب فى باب الخلافة الراشدة فجأة إلى حديث عن أئمة التشريع الإسلامى ، وهم أبو حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل ، ليقرر أنهم عذبوا وسجنوا فى سبيل كلمة الحق ! ومعنى ذلك لدى المنصفين أن أئمة الإسلام لا يخشون فى الله لومة لائم ، وأنهم يطالبون بقانون السماء حين تتنكر له الدولة . فماذا فى هذا ؟ وكيف يكون جهادهم فى نصرة تشريع الله ، وإقامة دعائم الحق ، دليلا على وجوب الفصل بين السياسة والدين ! كما يحرص الكاتب على أن يقول :

لقد حار العقلاء مع من يرجمون بالقول دون تسديد ! فإذا زل عالم فالأَ صاحب الأمر على معصيته ، صاح الصائحون : إن العلماء يبيعون الدين فى سوق الحياة ، ويشترون غرض الدنيا بالآخرة ! وإذا قام الشافعى وأبو حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل — وأمثالهم كثيرون لا يحصيهم العد — إذا قاموا بالحق ، فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولاقوا من العذاب ما تحملوه فى صبر وإيمان ، كان ذلك دليلا على وجوب الفصل بين السياسة والدين ، لأن علماء الدين قد ذاقوا العذاب فى تأدية رسالتهم ، فيجب إذن أن يستتروا فى بيوتهم قابعين .

ويتحدث الكاتب عن محنة الإمام أحمد بن حنبل فى عهد الدولة العباسية ، فيقول فى (ص ٣٠) : « إن ما أصاب الإمام خليق بأن يكون درساً لمن يتشدقون بعصور ازدهار الفكر الإسلامى فى عهد الخلافة العباسية ، وخليق أيضاً أن يكون درساً للحالمين بدولة الخلافة فى عصرنا الحديث .

ونحن نقول : كيف يكون ما أصاب أحمد بن حنبل درساً للحالمين بدولة الخلافة فى عصرنا الحديث على نحو ما أراد الكاتب من محو هذا الحلم ، وهو درس يحتم العمل على تحقيقه لا على محوه ، لأن الإمام قد كافح الطغيان وجمع الرأى حول مذهبه ، ثم انتصرت كلمته ، فرجعت الدولة إلى رأيه ، وأحاطته بأسباب التكريم ، فعاش كريماً ومات حميداً ، وهكذا تم نصر الله !

ثم لماذا ينكر الكاتب ازدهار الفكر فى عصر المأمون ، وهو من البدائه التى لا تحتمل النكران ! يخيل إلى أنه لا يقصد بكلمة الفكر ما يقصده الناس منها ، لأن الموافق والمبغض يجمعان على هذا الازدهار ! أيكون للفكر لديه مدلول خاص لا معجم يدل عليه بين القارئين ! ثم ما صلة ذلك كله بحديث الخلافة الراشدة ، وقد سجله المؤلف فى مكان لا يدعو إليه ، ليبدى لنا نمطاً طريفاً من التأليف .

الحق الالهى

يولع صاحب كتاب (قبل السقوط) بترديد كلمة الحق الإلهى وفق مفهومه الخاص ، فهو مرة يقول فى (ص ٥٢) : « إن تطبيق الشريعة الإسلامية لابد أن يقود إلى حكم بالحق الإلهى لا يعرفه الإسلام ، أو قل عرفه فى عهد الرسول ، والحكم بالحق الإلهى لا يمكن أن يقام إلا من خلال رجال دين ، ويؤدى بالتأكيد إلى انهيار الوحدة الوطنية فى مصر » !

ويقول مرة أخرى فى (ص ٦٣) : « سينتهى الأمر بقيام الدولة الدينية فى مصر ، وهى دولة إن قامت لا بد وأن يشملها إطار سياسى يستند فى مجمله إلى الحكم بالحق الإلهى الذى لا يعترف بالدساتير ، والقوانين الوضعية » .

والحق أن المؤلف لا يعرف عن الحق الإلهى ما يعرفه المسلمون من أنه هو الالتزام بأحكام الله كما جاءت فى كتابه العزيز ، ولكنه يردد معنى شائعاً أذاعه خصوم الإسلام حين ذهبوا بالحكم الإسلامى إلى ما سموه بالتفويض الإلهى ، وهو فى مفهومهم القانونى قيام الدولة مستندة إلى إرادة سماوية تصطفى أناساً تخصهم بالسيادة والسلطان على اعتبار أنهم مؤيدون بروح من عند الله ، فأساس الدولة على هذا خارج عن إرادة البشر ، موكول إلى تفويض إلهى خص به الحاكم ، وهو بذلك غير مسئول عن عمل من أعماله أمام الناس ، بل مسئوليته أمام الله وحده .

هذا المفهوم بعيد عن الإسلام كل البعد ، وإن عرف فى العالم منذ أقدم العصور ، عرفته مصر فى العهد الفرعونى ، وعرفته اليهودية فى عهود أنبيائها وملوكها ، وعرفته المسيحية فى القرون الوسطى .

وبهذا المفهوم قال لويس الرابع عشر : (إن سلطة الملوك إنما تستمد من تفويض الخالق ، فالله هو مصدر هذه السلطة ، وبين يديه وحده يؤدى الملوك حسابهم لابين جماعة أو فرد) .

وبهذا المفهوم قال لويس الخامس عشر فى مرسوم أصدره سنة ١٧٧٠ م : (إننا لم نتلق التاج إلا من الله ، فسلطة عمل القوانين من اختصاصنا وحده دون تبعية ولا توزيع) .

وبهذا المفهوم قال الإمبراطور غليوم فى القرن العشرين : (إن الملك يستمد سلطته من الله ، ولا يقدم حسابه إلا إليه ، وإننى على هذا المبدأ أضع سياستى وأعمالى) .

هذا المفهوم ألصقه خصوم الإسلام به إلصاقاً باغياً ، حين نعتوا الحكم الإسلامى (بالثيوقراطية) ويعنون بها « قيام حكومة دينية لا يحاسبها أحد سوى الله ، ولا سلطان لرعية أو جماعة فى مراجعتها ، لأن ما تفعله مستمد من أمر الله » . كما يعنون أن الله قد فوض الحاكم فى تنفيذ ما يريد ، وأنه بذلك أصبح ذا حق إلهى .

وجاء الذين ينقلون الكلام دون تمحيص ، فأشاعوا مسألة الحق الإلهى ونسبوها إلى الإسلام ، وهى منه على طرف النقيض ، فإذا جاء صاحب (قبل السقوط) وجرى معهم فيما يأفكون ، فأقل ما يقال عنه أنه يردد من الأقوال عن الإسلام ما هو بهتان صريح .

إن خلاصة نظرية الحق الإلهى أن الحاكم غير مسئول أمام الشعب لأنه يستمد سلطته من الله ، فهل الحاكم فى الإسلام غير مسئول .

إن الإسلام أول من قرر أن الحكم خدمة للمحكومين ، فالحاكم راع يحرص على مصالح الرعية ، ويقوم عليها بكفاءة ومقدرة ! ولابد من شروط تتوفر فيه ، وبدونها لا يستأهل منصبه ، ومن أول هذه الشروط العدالة ، وهى شرط معتبر فى كل ولاية لا فى الإمامة وحدها ، فإن لم يكن الحاكم عادلا لا تصح ولايته ، ولا تقبل شهادته ، وكما قال الفقهاء : « لا يسمع له قول ولا ينفذ له حكم » .

ومن شروطه أن يكون عالماً بأحكام التشريع ، لأنه المسئول الأول عن تنفيذها ، مع الأمانة فى العلم بأن يرزق ضميراً حراً لا يتكلف ولا يتأول ، ولا يميل إلى الشبهات لظنون يراها ، فإذا التبس عليه الرأى فى حكم رجع إلى ذوى المعرفة ، وخضع لما يبدونه من دليل تؤكده النصوص .

فإذا كانت العدالة والعلم ونزاهة الضمير هى الشروط الأولى فى اختيار الحاكم ، فكيف يصدر عن ذات نفسه وهو مسئول أمام الله أولا وأمام الناس ثانياً ، ولا طاعة له فى معصية ، بل يتعين عزله إذا خالف ما نزل به الكتاب ، وأجمع عليه العلماء !

يقول الأستاذ عبد العزيز المراغى رحمه الله : « لم يقل أحد من المسلمين : إن الخليفة أو أحداً من وزرائه غير مسئول إلا أمام الله ، ولم يقل أحد من الخلفاء ما قال لويس الخامس عشر : « إن الخليفة وحده دون الأمة له حق الإقرار فى التشريع والتقنين ، فلا بد من رأى الجماعة ، والخليفة فرد من أفراد ، اختير ليقوم بينهم مقام الوكيل فى تنفيذ أغراض الموكل ، وللموكل فى كل وقت محاسبته متى خالف شرطاً من شروط الوكالة المنصوص عليها ، أو المعروف بداهة أنها شرط للوكالة ، وله — للموكل — عزله من الوكالة على نحو من الأنحاء

التى نص عليها الفقهاء ، والخليفة مسئول كأى فرد من ناحية وجوب العمل على وفق الحدود العامة فى التشريع ، ولكن ذلك أمر آخر غير ما نحن فيه ، إذ لم يترك الخليفة لجزاء الضمير أو العقاب الأخروى فحسب ، ولكنه كان ولا يزال معرضاً لأدق أنواع الحساب ، وهو غير معنى من المسئولية ، والتاريخ الإسلامى من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام شاهد على الحوادث التى وقف فيها المسلمون ليبرئوا عهدتهم ويحاسبوا عما يرونه لا يتفق وما يعتقدون » .

ثم قال الأستاذ المراغى : « فمبدأ مسئولية رئيس الدولة أمام الأمة مبدأ مجمع عليه أو فى حكم المجمع عليه ، وبذلك كان الإسلام متفقاً مع المبادئ التى يسمونها ديمقراطية وهى من بدائه الإسلام ، وإن كان ثمت عيب فى طور من أطوار التاريخ الإسلامى فهو عيب الذى ينتسبون للإسلام دون فهم له ، ويحاولون أن يسبغوا على تصرفاتهم ثوب التشريع الإسلامى ، فيعرضوا الإسلام لكلام هو أبعد ما يكون عنه ! » .

وقول الأستاذ المراغى : « لا بد من رأى الجماعة » قول وجد تطبيقه فى الحقبة الزاهرة التى حاول كتاب (قبل السقوط) تشويهها ، وهى حقبة الخلافة الزاهرة ، إذ كانت الشورى سبيل الخلفاء ، بها يتمسكون وعنها يصدرون .

ففى عهد الخليفة الأول (أبى بكر الصديق) كان الخليفة يلتزم استشارة الفاقهين من الصحابة فيما ليس لديه نص يتعلق به من كتاب الله ، فعن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصم نظر فى كتاب الله ، فإن وجد فيه ما يقضى به قضى ، وإن لم يكن فى كتاب الله ، وعلم عن رسول الله أمراً فى ذلك قضاه ، وربما اجتمع إليه النفر كلهم يذكر عن رسول الله ما أمر به ، فيقول أبو بكر :

الحمد لله الذى جعل فينا من يحفظ عن نبينا ، فإن أعياه أن يجد شيئاً من سنة رسول الله جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فإذا اتفقوا على أمر قضى به .

وأخبار عمر فى استشارة الفاقهين من صحابة رسول الله ، والعمل بها ، ذائعة مدونة ، فقد كان على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس وابن عوف من مناقشيه ومستشاريه ، وقد أفردت كتب خاصة بقضاء عمر بن الخطاب وأحكام على بن أبى طالب ذات النقاش والتحاور ، مما يؤكد حرص الخليفة على الشورى ، والانقياد لوجه الحق متى سطع الدليل !

وإذا كان رسول الله قد شاور صحابته فى كثير أموره ، شاورهم يوم بدر ، ويوم الخندق ، وفى صلح الحديبية ، عارضه عمر عند مشورته فما ضاق بمعارضته ! فكيف يكون الحاكم فى الإسلام ثيوقراطياً يصدر عن رأيه دون استشارة ، ودون حساب تقدر معه المسئولية ، بل تعتصم بما يسمى بالتفويض الإلهى ، كيف يكون الحاكم كذلك ، والأدلة ناطقة ، والحوادث شاهدة عن يقين !

لقد أجمع فقهاء الإسلام على أن وكالة الحاكم عن الأمة لا تميزه فى الحقوق والواجبات عن أفرادها ، إذ تجعله كأى شخص ، يؤخذ بالقصاص فى القتل ، ويلزم بالأموال التى يتلفها ، وتقام عليه الحدود إن أتى ما يوجب الحد !

إن معرفة هذه البدائه لدى الشبيبة الإسلامية تجعلنا فى حيرة مدهشة ممن يتجاهلونها عن غرض قاصد ممن ينادون بإقصاء الشريعة الإسلامية عن ميدان الحياة ، وأعجب ما تراه من هؤلاء ما اندفع إليه صاحب (قبل السقوط) من تسجيل مظالم سالفة وقعت من الحكام فى بعض

أدوار التاريخ ، لتكون هذه المظالم دليلا على عدم الصلاحية لشريعة السماء .

إن الذين قد اقترفوا هذه المآثم من الحاكمين كانوا آثمين آثمين ، حين خالفوا شرع الله ، إذ لم يدعهم هذا الشرع إلى اقتراف المآثم حتى يكون دليلا على الطغيان ! وعلى الذين يأخذون الإسلام بذنوب بعض المسلمين أن يعرفوا أن أحكام الإسلام عادلة رحيمة ، وأن من خرج عليها مسئول عن خروجه .

وإذا كان أرباب القوانين الوضعية يباهون بها ، ويعدونها الغاية المثلى فى التشريع ، فماذا نقول فى بعض الحاكمين الذين يتمسكون بهذه القوانين رسمياً ، ويخالفونها فعلا بما يأتون من حيل وألاعيب ! أليس هؤلاء المخالفون ذوى جريرة لا تمس القوانين فى شىء ، إذ هى بريئة من آثام المخالفين ، فما بالنا إذن نحاول أن نلقى التبعة على قوانين الشريعة حين يأثم بعض الحكام بمخالفتها ، ونأخذها بجرم لا يد لها فيه ! لقد سود الكاتب صفحات تعدد آثام بعض المخالفين من الحكام ، ولم يسأل نفسه : هل ترضى شريعة الله عن هذا الخلاف ، أو أنها تعتده إثماً كبيراً يستأهل العزل والمؤاخذة فى الدنيا ، كما يستحق حساب الله حين توضع الموازين بالقسط ، لتوفّى بعد كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون .

ما هكذا قال العقاد

— ١ —

قرأت كتاباً صدر أخيراً تحت عنوان (موجز التاريخ العربى) ألمّ فيه مؤلفاه بشذور من تاريخ الدولة العربية فى عصور مختلفة ، ومن طبيعة الموجزات أن تختصر الكلام فى غير ما لا يتعلق بالتسلسل التاريخى لمجرى الأحداث ، بمعنى أنها لا تفيض فى جزئية من الجزئيات بحيث يمتد الحديث على نحو يجعل الاستطراد موضع نظر ، ولكن مؤلفى الموجز كتبا عن أبى بكر رضى الله عنه صفحتين اثنتين ! وعن عمر الفاروق ثلاث صفحات ! ثم خصا حريق مكتبة الإسكندرية وحده بأربع صفحات ! كأن الفتوح الإسلامية التى نسفت مملكتى فارس والرومان ! وكأن ما قام به عمر فى دنيا السياسة العربية ، وما اتسم به من خلق إنسانى باهر ، أقل فى تقدير المؤلفين من فرية الحريق هذه التي نسبت زوراً إلى عمر ! وقد أدهشنى أن يذكر المؤلفان أن العقاد يثبت هذه الفرية ! لأنهما نقلا عنه قوله عن هذه الأسئلة :

« لماذا كان يحرم عليه — على الفاروق — أن يحرقها ، ويجب عليه أن يستبقيها ويفتح أبوابها ، ولماذا كان ينبغى أن يكون على يقين أنها شىء مفيد للمسلمين وغيرهم من الأمم ، وأنها ذخيرة من ذخائر العالم لا يجوز التفريط فيها ؟ أمن النقص فى تفكير الإنسان أن ينشأ بمعزل عن بلاد اليونان وعصر اليونان فلا يطلع على الفلسفة اليونانية ؟ أكانت فائدة تلك الكتب واضحة كل الوضوح من أحوال أقوامها الذين حفظوها إن صح أنهم حفظوها !

إن أحوال الروم والقبط فى ذلك العهد لم يكن فيها دليل واحد على أنهم محتفظون بينهم بمعرفة نفيسة ، وأن ضياع كتبهم فيه ضياع للذخيرة من ذخائر العالم التى لا يجوز التفريط فيها ! فقد كانوا على شر حال من الضعف والفساد والجهل والهزيمة والشقاق والتهالك على سفساف الأمور ، فإذا كان عمر غير مطالب بعلم الفلسفة اليونانية ، أو غير ملوم على فوات الاطلاع عليها ، وإذا كانت أحوال الأمم التى هى أهلها ، لا تدل على قيمتها ، بل تسوغ الاعتقاد بخلوها من كل قيمة ، فأين هو العيب فى تفكيره إن صح أنه فكر على هذا المنوال » .

وقد دهشت لما جاء على لسان العقاد ، وخيل إلى بقراءة ما نقله المؤلفان عنه ، أنه مع من يقولون بأن عمر رضى الله عنه قد أشار بحرق المكتبة ! ولكنى أعرف صحة نظر الكاتب الكبير ، وأعلم أنه لا بد أن يكون قد اطلع على الأقوال الصحيحة فى هذا المجال ، ومحال على من كان فى مثل بصره السديد واطلاعه الشامل أن يحمل الفاروق تبعة لم يكن صاحب يد فيها ! فلا بد إذن من الرجوع إلى المصدر الذى نقل عنه الكاتبان !

ولقد كان من الواجب عليهما أن يذكرا هذا المصدر ، لأنهما أشارا إلى كثير من المصادر فى هوامش الموجز ؟ فلماذا أغفلا مصدر العقاد! لقد سبق إلى ذهنى أن يكون حديث العقاد عن مكتبة الإسكندرية مدوناً فى واحد من كتابين ، هما كتابه عن (عبقرية عمر) أو كتابه عن (عمرو بن العاص) ، لأن هذه المسألة قد تعلقت بالرجلين ، فأحدهما طلب الرأى ، وثانيهما أجاب بالإحراق على ما يزعم الزاعمون؟

وبدأت بمراجعة (عبقرية عمر) فماذا وجدت ؟ وجدت أن الكاتب الكبير قد أوسع المسألة تحليلا شافياً ، وبحثاً دقيقاً وافياً ، واتجه وجهة

الحق فى نفى التهمة عن عمر الفاروق بأدلة حاسمة أحسن سردها وتوجيهها كعادته ، وحين أشبع القول فى منحاه حتى لم يبق زيادة لمستزيد ، اتجه وجهة أخرى من فنون الجدل ، فتساءل قائلا :

« وإننا على الرغم من كل هذا — أى من جميع الأدلة التى ذكرها خاصة بنفى المسألة عن عمر — نفرض أن عمر بن الخطاب أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية ، فما هى الوصمة التى تلحقه من هذا الأمر ، ولماذا كان يحرم عليه أن يحرقها ، ويجب عليه أن يستبقيها وتفتح أبوابها ؟ » وتابع قوله السابق الذى نقله عنه المؤلفان !

فماذا يرى القارئ فى صنيع صاحبى كتاب (موجز التاريخ العربى) ؟ أليس قاطعاً فى أنهما قد افتريا الكذب على العقاد ، حين تركا كل ما قاله فى تفنيد التهمة ؛ ثم اقتطعا من كلامه رده على احتمال فرضه فرضاً ، وهو يعلم أنه فرض جدلى لا حقيقة له فى دنيا الواقع الصريح ! ولماذا أصرا على حذف هذه العبارة : « إننا على الرغم من كل هذا نفرض أن عمر بن الخطاب أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية ، فما هى الوصمة التى تلحقه من هذا الأمر ؟ » . إنهما أصرا على هذا الحذف المغرض ليفهم القارئ أن العقاد يتهم الفاروق بحرق المكتبة ! وكأن لهما هوى خاصاً فى أن يؤكدا هذا الاتهام ! ثم إذا كان لهما هذا الهوى الخاص فلماذا لم يستشهدا برأى مؤرخ يتجه وجهتهما فى الرأى ، وهو الأستاذ جورجى زيدان صاحب كتاب (التمدن الإسلامى) ، إذ مال إلى إثبات هذا الموضوع ، ولافى قوله من تفنيد الكاتبين ما عصف به كالهباء ! وقد أشار إليه العقاد فى (عبقرية عمر) وأجهز عليه بما لا يبقى له أى اعتبار ؟

لماذا لم يستشهدا برأى الأستاذ جورجى زيدان وهو يسير معهما فى وجهة واحدة ، وآثرا أن يقتطعا من كلام العقاد ما لا يدل على

رأيه !؟ إن الغرض التبشيرى هنا جلىّ ، لأن الاستشهاد برأى كاتب مسيحى مثلهما لا يترك صداه القوى فى إثبات التهمة الملفقة ؟ فليكن المستشهد به كاتباً مسلماً ؟ وليكن كاتباً جهيراً كالأستاذ عباس محمود العقاد ! وإذا كان الكاتب الكبير ممن لا يحطبون فى حبل الباطل ، فليبتر قوله ، وليصور فى سياق يعطى الانطباع المقصود ! ولا قيمة للحقيقة العلمية هنا من حيث إنها حقيقة ! بل الهدف المقصود هو التحريف والتشويه والقذف بالباطل الصريح !

لقد بدأ العقاد كلامه بإنكار الواقعة ، وذكر أن أعلام الباحثين من مؤرخى الغرب قد أنكروها بالأدلة المادية الملموسة ، وعلى غير عادته أطال النقل عنهم ، لأنه يدرى أنهم فى هذا الإنكار طلاب حقيقة ، وليسوا ذوى غرض تبشيرى ، على أنهم ممن لا يهمهم الدفاع عن عمر ابن الخطاب فى شىء ، ولكنهم يحترمون عقولهم التى تتجه إلى النتائج بعد دراسة المقدمات دراسة واعية ذات احتياط ، وأمثال هؤلاء من أعلام المؤرخين فى أوربا ، ذوو آثار متداولة ترجمت إلى لغات كثيرة ومنها اللغة العربية ، فهل غفل عنها من يؤرخون للتاريخ العربى فى ملخصات ذات ابتسار .

على أنه لا مفر من أن نأتى الشىء من بابه ، فنذكر قصة هذه المكتبة بدءاً وازدهاراً وخاتمة ليرى القارئ من تسلسل الأحداث ، ما يعطيه التصور الطبيعى لهذا الكائن العلمى الذى مثل دوره على مسرح الحياة حيناً من الدهر ثم صادفته عواقب الكوائن التى حتمت دورها النهائى حين تطرق إليها الفساد ؟

حين توفى الإسكندر الأكبر المقدونى عام ٣٢٣ قبل الميلاد ، اضطربت الأمور فى بلاد الإغريق ، ورحل أكثر العلماء إلى الشرق

هرباً من مظالم عاصفة ارتكبها خلفاؤه ، وفيهم من اتجه إلى الإسكندرية، فساعد على إنشاء وعى علمى مزهر ، ورأى من بطليموس الأول (سوتر) حاكم الإسكندرية إذ ذاك رعاية واهتماماً بالحركة الفكرية ، ومن مظاهر هذه الرعاية حرصه على إنشاء مكتبة علمية تجمع نفائس المؤلفات ذات الشهرة البالغة فى الشرق والغرب ، وتشجيعه علماء الإسكندرية من وافدين ومواطنين على الدراسة والتأليف ، فصارت المدينة بهمته العالية قبلة الأنظار ، وكتب علماؤها إلى إخوانهم الفارّين فى العواصم البعيدة كى يهرعوا إلى الإسكندرية فى رعاية (سوتر) ، ومنهم من يسمى بفاليروس الذى أشار على الحاكم الكبير أن يتوسع فى جمع الكتب العلمية من كل مكان ، لتكون مدينته عاصمة الثقافة العلمية فى عصره . ولم يكن (سوتر) أقل رغبة ممن أشار عليه ، فشمر ناهضاً باذلا كل ما يتطلبه الموقف من مال ، حتى اكتمل بالمكتبة فى مدة وجيزة ما يقرب من أربعة وخمسين ألف كتاب ! وهو عدد ضخم لم يتهيأ الحصول عليه إلا بهمة جبارة ، لأن المطبعة لم تعرف بعد ، وقد يكون للكتاب نسخة واحدة ، فيحرص الحاكم على اقتنائها دون شح بما تتطلب ، ثم جاء خالفوه فنهجوا نهجه ، ومنهم (فيلاذلفوس) الذى نافس سابقه فى الاحتفاء بالمكتبة ورعاية العلماء من الدارسين ، وقد أرسل رسله إلى الهند وفارس وجرجان وبابل والموصل ! وهذه البلاد كلها شرقية ، ومعنى ذلك أن العلم لم يكن مقصوراً على بلاد اليونان ، كما زعم من ذهب إلى أن الفكر الإغريقى وحده صاحب السيادة إذ ذاك ! مع أن طبائع الأشياء تنفى ذلك ، بل إن وقائع التاريخ تثبت هجرة طلاب العلم من اليونان إلى مصر والصين وفارس والهند، ورجوعهم إلى بلادهم مستفيدين مما درسوه !

وجاء حاكم ثالث هو (أورجينوس) فأضاف إلى المكتبة بالإسكندرية كتب الشعر والأدب والتمثيل بعد أن كانت خاصة بكتب العلم والفلسفة ، وقد روى مؤرخوه عنه أنه فرض على كل من يقيم بالإسكندرية أو يمر بها من رجال العلم أن يقدم للمكتبة نسخة من كل كتاب يملكه ، فإذا كانت النسخة وحيدة ، فله أن يقيم بالإسكندرية تحت رعاية الحاكم مأكلا ومشرباً وإقامة مرفهة حتى يستطيع أن ينسخ صورة يقدمها للمكتبة ، وبذلك أصبحت الإسكندرية حاضرة العلم فى عهود البطالسة ، وصارت موضع الاحتفاء بالعلماء ، وأكثرهم قد ضاقت عليه منافذ الرزق فى موطنه ، فأجاب دعوة سابقيه ممن وردوا مناهل البطالسة ، وأذاعوا عنهم ما رأوه من فضل واحتفاء ! ولك أن تتصور بعد ذلك كيف كانت مكتبة الإسكندرية ؟ وكيف جمعت كواكب العلم من كل أفق ليشرقوا فى سمائها متألقين .

وقد ذكرت أرقام ضخمة لعدد الكتب التى حفلت بها المكتبة ، ومهما بولغ فى تقديرها — على فرض ذلك — فإن هذه المبالغة المحتملة تدلك على حقيقة أكيدة ، هى كثرة المؤلفات التى ازدحمت بها رفوف المكتبة ، وأنها كانت منقطعة النظير فى شتى العواصم إذ ذاك .

— ٢ —

وإذا كانت مكتبة الإسكندرية فى عهد البطالسة قد حفلت بهذه الآثار الضخمة من التراث الإنسانى ؟ وإذا كانت شهرتها قد جذبت إليها الأنظار فى الشرق والغرب فهرع العلماء والدارسون إلى مناهلها العذبة ، فكيف أصبحت بعد هذا الازدهار الرائع أثراً بعد عين ؟

هذا سؤال لم يغب عن ذاكرة التاريخ ، والذين أجابوا عنه لم يكونوا من المسلمين حتى نرميهم بالغرض فى الإجابة ، ولكنهم المنصفون من مؤرخى الغربيين ، فماذا قالوا إذن ؟

لقد رجعوا إلى تاريخ الإسكندرية السياسى والحربى ، فقرأوا أن يوليوس قيصر حاكم الروم خف إلى الثغر بجنوده سنة ٤٧ قبل الميلاد ، ليدير حرباً طاحنة بينه وبين خصمه العتيد بومبى ، وقد انتهت بانتصاره عليه ، ولكنها انتهت باحراق نصف المكتبة ، لأن جنود الروم شاءوا أن يقطعوا الطريق على خصومهم فأشعلوا النار فى بعض أحياء المدينة ، وتعرضت المكتبة لحريق هائل ، أودى بنصف تراثها فى رأى فريق ، وأكل أكثر من النصف فى رأى فريق آخر .

كما ذكر هؤلاء متابعين سير الأحداث بالإسكندرية أن الإمبراطور الرومانى (تيودوس) الذى جلس على عرش روما قد استجاب إلى تحريض الأسقف تيوفيل حين شاء أن يمنع دراسة العلوم والفلسفة ، فأمر بإحراق كل ما كتب فى العهود الوثنية ويراد منها آثار الفلسفة والعلوم فيما قبل المسيحية ، فارتاح الإمبراطور لما أشار به الأسقف ، وأصدر أمره بإحراق الكتب الوثنية جميعها بالمكتبة . أما ما بقى من الكتب التى صدرت فى العهد المسيحى فقد حملت إلى القسطنطينية .

يقود الأستاذ خليل جمعة الطوال فى بحث نشره بمجلة الرسالة (العدد ٢٧٥) وهو من أفاضل الكتاب المسيحيين ، خاصاً بهذه المسألة :

« وهكذا تكون هذه المكتبة قد دمرت وأحرقت غير مرة بأمر قياصرة الروم وأباطرتها ، فتلاشت قبل الفتح الإسلامى بمدة طويلة . ومن المؤرخين من زعم أنها أحرقت دفعة واحدة ، فقد ذكر (بطلر) نقلا عن (ميانوس مارسلينوس) أن السبعمائة ألف مجلد التى كانت تحتوى عليها مكتبة الإسكندرية قد أتلفت إتلافاً تاماً حين حوصر يوليوس بالإسكندرية ، ومهما يكن من شىء حول عدد المرات التى أبيدت بها المكتبة العظيمة فإن الآراء قد اتفقت على أنها أبيدت قبل

الفتح الإسلامى بقرنين ، وأنه لم يكن فى الإسكندرية حين الفتح الإسلامى ما يحرق من الكتب » .

ثبت إذن أن جيوش قيصر قد أحرقت النصف ، وأن الأسقف تيوفيل قد أشار على الإمبراطور فأحرق النصف الآخر ؟ وثبت أيضاً أن الحرق النهائى قد تم قبل الفتح الإسلامى بأكثر من مائتى عام ؟ فالمسلمون برآء من هذا الاتهام .

ولكننا نعجب كيف حاول المغرضون إلصاق الاتهام بالفاتحين ، ولم يحاول أحد منهم أن يرمى الأسقف تيوفيل والإمبراطور تيودوس بمحاربة العلم والفلسفة ، وقد نطقت الحقائق الصادقة بما صنعاه ، ألا يرتفع الصراخ على الذخائر العلمية إلا حين يوجه الاتهام ظالماً إلى المسلمين ، فإذا أثبت التحقيق التاريخى أنهم برآء وأن إمبراطور روما والأسقف المسيحى قد عملا على استئصال هذه المكتبة الرائعة فلا بد من السكوت ! وكأن المكتبة لم تكن شيئاً ذا بال !

لماذا لم يبك هؤلاء المغرضون على التراث الإنسانى الرائع الذى أحرقه الأسبان حين استولوا على الأندلس ، وقد سجل التاريخ أن عشرات المكاتب قد أحرقت عمداً فى غرناطة ومدريد وقرطبة وأشبيلية ، وكانت هذه الكتب خيرة ما وجد فى أوربا دون استثناء ! وماذا تكون مكتبة الإسكندرية — على نفاستها الزمنية — إذا قيست بما وجد فى الأندلس من مكتبات !

وإذا كان الثابت الأكيد أن مكاتب الأندلس قد أحرقت عن عمد ، ولم يشك باحث واحد فيما صنع الغلاة من متطرفى الأسبان ! وإذا كانت تهمة المسلمين فى مكتبة الإسكندرية ملفقة موهومة لم تثبت لدى التحقيق ؟ فكيف نواصل تسجيل الاتهام الكاذب ، ونحرص على السكوت عن اتهام صادق أكيد !

على أننا نسأل عن أصل هذه الفرية فنجد أن أول إشارة لها قد حدثت بعد أكثر من ستمائة عام من الفتح الإسلامى فلم تذكر فيما كتب المؤرخون من باحثى المسيحية والإسلام معاً فى هذا الأمد الطويل ، حتى جاء الرحالة الشهير عبد اللطيف البغدادى إلى مصر ، وقد توفى فى سنة ٧٣١ هـ ، فزار مدينة الإسكندرية بعد أن مضى على فتحها الإسلامى أكثر من ستمائة عام ، وشاهد عمود السوارى فدهش له وسأل من حوله عنه ، ثم كتب فى رحلته يقول : (ورأيت حول عمود السوارى من هذه الأعمدة بقايا صالحة ، بعضها صحيح ، وبعضها مكسور ، ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة ، والأعمدة التى تحمل السقف ، وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها ، وأرى أنه كان الرواق الذى يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته ومن جاء بعده ، وأنه دار العلم التى بناها الإسكندر حين بنى مدينته ، وفيها كانت خزانة الكتب ، التى أحرقها عمرو بن العاص بإذن عمر رضى الله عنه) .

هذا أول تسجيل للفرية ! لم يكتبه مؤرخ باحث ، وإنما كتبه رحالة حضر إلى الإسكندرية بعد الفتح الإسلامى بأكثر من ستمائة عام ، وشاهد مكان الأعمدة التى أزيلت سقوفها ، فسأل من حوله ، فلم يفيدوه بشىء ! فرأى من عند نفسه أن هذا المكان هو الذى كان يدرس فيه أرسطو ! وأنه موضع دار العلم التى بناها الإسكندر ، وحرقها عمرو ابن العاص ، وفى هذا الكلام خلط كثير كان من الواجب الالتفات إليه ، فأرسطو موضع شك فى تدريسه بالإسكندرية ! والإسكندر لم يبن الدار قطعاً ، ولكن الذى بناها بطليموس الأول (سوتر) . كذلك لم يحرق العرب مكتبة الإسكندرية كما لم يبن دارها الإسكندر ، فلماذا نتوهم تصديق الأولى بدون دليل ، ونحن نعلم كذب الثانية بألف دليل .

إن من المحال أن يسكت المؤرخون الأثبات ستمائة عام ، وفيهم الطبرى والكندى مؤرخ مصر وابن عبد الحكم واليعقوبى والبلاذرى والواقدى والمسعودى ، عن تسجيل هذا الحادث ، ثم نجده عند رحالة لا مؤرخ ، وقد سمعه من زائر مثله فنجعله موضع اليقين ، وإذا كان هؤلاء من مؤرخى الإسلام ، فإن مؤرخى المسيحية الأوائل ، ومنهم أوتيخوس ، ويوحنا أسقف نقيوس ، قد تحدثا عن الفتح الإسلامى ، ولم يذكرا شيئاً عن هذه المسألة ، وقد كان يوحنا من الذين عاصروا الفتح الإسلامى وأرخوا لوقائعه تأريخاً دقيقاً ، ولم يذكر شيئاً عن مكتبة الإسكندرية ؟ فما الذى صده عن تسجيل حدث هائل يترك دويه الرنان ، لو كان قد وقع حقاً ، وكيف يشير إلى إحراق سفينة ! ويسكت عن إحراق مكتبة عالمية تضم آلاف المجلدات ؟

كان من الجائز أن يمر حديث البغدادى فى رحلته عن حرق المكتبة دون أن يلفت الأنظار ، لأن فحوى كلامه لا يخرج عن رأى سمعه الرحالة من غير أهل الثقة فسجله على علاته ! وليس الرجل بمؤرخ دقيق تقام لآرائه الموازين ، وليس هو من أهل الديار الذين درسوا تاريخ الفتح الإسلامى ، ووقفوا طويلا عند أحداثه محللين وشارحين ، ولكنه بكلامه السريع بذر بذرة تلقفها سواه ، وجعل يتعهدها بالرى والإنماء فى أرض من الوهم حتى تمخضت عن شجرة ذات فروع وأفنان ، ومن هؤلاء المؤرخ أبو الفرج غريغروس بن هارون الملطى المشتهر باسم ابن العبرى ، وكان يتولى أرفع المناصب الدينية فى الكنيسة بعد البطريرك ، وقد ألف كتاباً فى القرن السابع الهجرى سماه (مختصر تاريخ الدول) جاء به ما يلى نقلا عن ص ١٧٥ :

« وفى هذا الزمان — يريد زمان الفتح الإسلامى بقيادة عمرو ابن العاص — اشتهر بين الإسلاميين (يحيى) المعروف عندنا

(بغراماطيقوس) أى النحوى ، وكان إسكندرياً يعتقد اعتقاد النصارى اليعاقبة ، ثم رجع عما يعتقده النصارى فى التثليث ، فاجتمع إليه الأساقفة وسألوه الرجوع عما هو عليه ، فلم يرجع ، فأسقطوه من منزلته ، وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم ، فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم تكن للعرب بها أُنسة ، ففتن به ، وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر ، فلازمه . وكان لا يفارقه ، ثم قال له يحيى يوماً ، إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية ، وختمت على كل الأصناف الموجودة بها ، فما لك به انتفاع فلا أعارضك فيه ، وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به ، فقال عمرو : وما الذى تحتاج إليه ؟ قال : كتب الحكمة التى فى خزائن الملوكية ، فقال له عمرو : لا يمكننى أن آمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فكتب إلى عمر ، وعرفه قول يحيى ، فورد عليه كتاب عمر يقول : وأما الكتب التى ذكرتها ، فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ، ففى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه ، فتقدم بإعدامها ، فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات الإسكندرية وأحرقها فى مواقدها ، فاستنفدت مدة ستة أشهر ، فاسمع ما جرى واعجب » .

هذه رواية ابن العبرى ، وقد ملئت بالزيادات حتى صارت قصة ، حيث أضيفت لها شخصية يحيى النحوى ، وأكد اجتماعه بابن العاص وإعجابه به ، وذكر أن ابن العاص فرق المكتبة على حمامات الإسكندرية لتحرق فى مواقدها ! وأنها استمرت ستة أشهر تأكل الكتب حتى نفدت ، ثم ختم القصة بقوله : فاسمع ما جرى واعجب ! وكنت إلى عهد قريب أعلم أن ابن العبرى هو الذى أضاف هذه الزيادات ،

ثم قرأت ما أكد لى أنه نقلها عن ابن القفطى ، فابن القفطى مسئول أولا عن مصدره الذى نقل منه هذه الإضافات ، إذ لم يتقدمه غير عبد اللطيف البغدادى ، وقد عرفنا كل ما قال بصدد هذا الحادث ! ومهما يكن من شىء فالبغدادى وابن القفطى وابن العبرى على اختلاف أقوالهم بين السعة والضيق ، لم يرجعوا إلى مصدر سابق ، وهو ما يتحتم وجوده فى حديث تقدم زمانهم بأكثر من ستمائة عام ، وسكت عنه معاصرو الفتح ومن خلفهم من المؤرخين ؟

فهو بذلك منقطع الإسناد ، ولا يلتفت إليه باحث جاد .

- ٣ -

يتكئ الأستاذ العقاد على نفسه كثيراً فى مناقشة ما يتعرض له من الأحداث التاريخية ، والآراء الفكرية ، فهو يحيط بالموضوع دارساً كل ما قيل عنه ، ثم يتمثل ما قرأ مسلطاً عليه أشعة نقده ، حتى يبلغ الوجهة الصحيحة التى تجعلها مدار الجدال ، وهو فى نقاشه المنصف لموضوع مكتبة الإسكندرية قرأ ما يدور حوله قراءة الناقد ، ولكنه لم يغفل الاستشهاد بآراء المنصفين من مؤرخى الغرب ، إذ رأى فى حيادهم الفكرى ما يدعم وجهة النظر التى ينتحيها ، وقد أصاب حين اعتمد على هؤلاء الأعلام ، ولكنه أوجز كلامهم حين أخذ منه اللباب الخالص فى دقة موجزة ! على حين نجد الأساتذة الكبار الذين انتحوا وجهته قد خالفوا الإيجاز إلى الإسهاب ، لأنه فى هذا المقام بالذات أدعى إلى الإقناع ، فلا يبقى حاجة تتلجلج فى الصدر إلا شفاها ووصل بالقارئ إلى درجة الاطمئنان ، ومن الذين كتبوا فى هذا المجال الأساتذة الفضلاء : رفيق العظم ومحمد كرد على ومحمد فريد وجدى وعبد الوهاب النجار وإسماعيل رأفت ، وكلهم علم فى بابه ، وقد أحسنوا جميعاً حين أيدوا وجهتهم بالاستناد إلى ما قرره مؤرخوه الغرب

المنصفون ، لأن هؤلاء قد صدروا عن حب للحقيقة ، وقد دونوا آراءهم بعد معاناة النظر والتنقيب ، وسأختار من أقوالهم ما يقنع ويقطع كل ريب يجول .

١ ــ قال الأستاذ بونه موری : « يجب أن نصحح خطأ شاع طوال القرون الوسطى ، وهو أن العرب أحرقوا خزانة الإسكندرية بأمر الخليفة عمر ، والحال أن العرب فى ذلك الوقت كانوا أشد إعجاباً بعلوم اليونان وفنونهم ، من أن يقدموا على عمل كهذا ، كما أنه معلوم أن قسماً من تلك الخزانة كان قد احترق فى أثناء ثورة الإسكندريين التى باد فيها أسطول قيصر ، وأن قسماً آخر أحرقه النصارى فى القرن السادس ، وقد اختط العرب الفسطاط وتركوا للقبط ممفيس ، ولم يتعرضوا لهم فى دينهم وعاداتهم ، وأطلقوا لهم الحرية فى بناء الكنائس ، وانتخاب البطريرك ، وغاية ما أبطل عمرو من العادات القديمة هو ما كانوا جارين عليه من زمان الوثنيين من رمى فتاة فى النيل التماساً لفيضانه »[1] .

٢ ــ وقال الأستاذ البير سيم : « لشد ما استحكم الوهم التاريخى زمناً ما بشأن عمرو خزانة الإسكندرية ، وها هوذا الآن آخذ فى الاضمحلال ، أما أنا فاغتبطت بما سنح لى من الفرصة فكنت من العاملين على مكافحة هذا اليوم ، وأثبت بالبراهين التى وصلت إليها ، ما اعتقدت أنه الحقيقة ، إذ لم تحرق خزانة الإسكندرية على يد الإمام عمر ولا بأمره ، فإن هذه الدعوة من الأغلاط التاريخية العظيمة ، إذ لم يكن لهذه الكنيسة أثر عندما فتحت العرب المدينة سنة ٦٤٠ ، وعلى عهد البطالسة أصبح أمر الخزانة إلى ضعف فقسمت شطرين ، جعل كل منهما فى مكان مستقل ، فحرق القسم الأول قضاء وقدراً عندما استولى يوليوس قيصر

(١) الإسلام والحضارة العربية لكرد على ، ج ١ ، ص ٢٢ ، طبعة دار الكتب .

على الإسكندرية سنة ٤٧ قبل ميلاد المسيح ، وذهب القسم الثانى (وكان قد جعل فى معبد سيرابيس) على يد الأسقف تيوفل بعد ذلك التاريخ بأربعمائة سنة ، عقيب الأمر الصادر عن ثيودسيوس بالقضاء على جميع المعابد الوثنية وجعل عاليها سافلها[١] .

٣ — وقال مؤرخ روما الكبير العلامة جيبون : « إن الكتاب تأسفوا كلهم لضياع كثير من العلم والأدب ، وأما أنا فإنى شديد الميل إلى إنكار هذه الدعوى وما ترتب عليها من النتائج ، والغريب أن هذه الرواية يذكرها رجل من أطراف بلاد فارس — يريد عبد اللطيف البغدادى — بعد فتح الإسكندرية بستمائة عام ، ولا يكتبها مؤرخان مسيحيان من مصر ، وبخاصة البطريرك (أوتيخوس) الذى أسهب فى خبر فتح الإسكندرية ، على أن تعاليم الإسلام تخالف هذه الرواية ، إذ ترمى إلى احترام الكتب الدينية من يهودية ونصرانية المأخوذة فى الحرب فلا يجوز إحراقها »[٢] .

هذه ثلاثة نقول تجاورها نقول كثيرة أشهرها ما كتبه المؤرخ الإنجليزى بطلر فى كتابه عن فتح مصر ، وهو مترجم إلى العربية ، وقد درس الفتح الإسلامى دراسة بصيرة ، خرج منها بنتائج صحيحة صادفت تقدير الناقدين . ومن هذه النتائج معارضته الجادة لما قيل عن عمر وعن عمرو بشأن المكتبة ، والكتاب مطبوع متبادل ، وما أظن دارساً يهتم بالفتح الإسلامى لمصر لم يجعله موضع نظره الطويل .

وللأستاذ الكبير عبدالوهاب النجار نفاذ صائب إلى حقائق التاريخ الإسلامى ، وقد وقف عند هذه الفرية وقفة كاشفة فى محاضرة رنانة ألقاها بجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة على ملإ من عشاق التاريخ ،

(١) الإسلام والحضارة العربية لكرد على ، ج ١ ، ص ٢٠ ، طبعة دار الكتب
(٢) من المنتقى من محاضرات الشبان المسلمين ، ج ١ ، ص ٢٦٨ وما بعدها .

ونشر الأستاذ محب الدين الخطيب خلاصتها بالجزء الأول من كتاب (المنتقى من المحاضرات) ، فعرض ما قيل فى كتب البغدادى وابن العبرى وجوستاف لوبون وبطلر وجيبون ، ثم لخص انتقاده لمدوّنى هـذه الخرافة فى نقاط مركزة شافية نذكر منها هذه الآراء :

١ ــ جاء فى رواية ابن العبرى على لسان عمر بشأن المكتبة قـول الفاروق : « وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله ، فتقدم بإعدامهـا ، ولفظ الإعدام لمن يكن مستعملا لعهد عمر بمعنى الإهلاك والإحراق ، وإنمـا استعمل لفظ أعدم بمعنى افتقر ، وأعدمه غيره أفقره ، وهى ملاحظة لغوية اهتدى إليها الشيخ النجار سابقاً غير تابع » .

٢ ــ إن كان عمرو قد وزع الكتب على الحمامات لإحراقهـا كما تقول الرواية فإنه بذلك يتيح الفرصة لمن شاء أن ينقذها فيأخذها من العمال دون حرج ، وما أظن ذلك يغيب عن فطنة عمرو ، ثم إن الرواية تقول : إن المكتبة كفت الحمامات سبعة شهور ، فلو قدر لكل حمام مائة مجلد فى اليوم فقط لكان ما أحرق أضعاف أضعاف مجلدات المكتبة الإسكندرية ، فكيف يتأتى هذا ، إذ أن المسجل فى تاريخ الإسكندرية أنها كانت تضم حينئذ أربعة آلاف حمام .

٣ ــ أتيت الدكتور بطلر فى كتابه عن فتح مصر أن من يسمى بيحيي النحوى لم يكن على قيد الحياة أيام الفتح الإسلامى ، لأنه مات قبل استيلاء العرب على الإسكندرية بنحو أربعين عاماً ؟ فكيف قابل عمرو بن العاص ؟ ومتى طلب منه أن يحفظ المكتبة وهو غير موجود !

٤ ــ زار الرحالة (أورانيوس) الإسكندرية فى أوائل القرن الخامس الميلادى ، وأثبت أنه لم يكن لمكتبتها وجود قبل دخول العرب الإسكندرية بنحو قرنين ونصف ، وأنه وجد رفوف المكتبة خاوية لا تحمل كتاباً واحداً ، مما يدل على أن المسيحيين قد أتلفوها بإشارة الأسقف تيوفيل .

٥ — لو كانت مكتبة الإسكندرية باقية عند الفتح الإسلامى لما أحجم الرومان عن نقلها إلى القسطنطينية ، فقد أجاز لهم عمرو بن العاص حمل ما يقدرون عليه من رخيص وغال ، فى هدنة امتدت إلى عشرة شهور .

(وبعد) فأظننا بعد هذا الاستيعاب الشامل لسنا فى حاجة إلى أن نزيد ، ويعنّ لنا أن نسأل فى ختام البحث : أكان من الضرورى فى نظر الأستاذ العقاد أن يفترض على سبيل الجدل العقلى أن عمر رضى الله عنه أمر بحرق المكتبة ثم يدافع عن هذا الافتراض ؟

يخيل إلى أن حقائق التاريخ لا تحتمل الافتراض المتوقع وكأنه حقيقة واقعة ، لندافع عنه وهو محض الخيال .

إن الكاتب أمام التهمة المفتراة كالمحامى أمام القضية الجنائية ، فإذا وُجد شخص قتيل وكان مجرماً إلى أبعد حدود الإجرام ، واتهم بقتله إنسان برىء ، فمن واجب المحامى أن يدلل على براءة المتهم ، فإذا فعل ذلك ، ثم افترض أن المتهم البرىء قد قتل المجنى عليه ، وبرر ذلك بأن القتيل عريق فى دنيا الإجرام ، وقد قتل أناساً كثيرين ، ومن حق القاتل أن يقتل ، إذا قال المحامى ذلك فإنه يكون قد جاوز طوره ، وأباح للشكوك أن تتسرب لبرىء لا ذنب له فى الجريمة ؛ ولكن العقاد الكبير قد اعتاد أن يقلب ما يعنّ له من الوقائع على شتى الوجوه المحتملة ، ليصف كل احتمال ، وليردّ عليه بما يراه ، فهل كان الكاتب الكبير يدرى أن كلامه الفرضى سيؤخذ مأخذ الحقيقة لدى نفر من ذوى الغرض ، وأنهم سيبترون مقدمته ليسير الكلام كما يشتهون ؟ أعتقد أن الأستاذ العقاد لو درى ذلك ، لاكتفى بالواقع الحقيقى ، دون أن يلجأ إلى الاحتمال البعيد .

حول سورة الكهف

قصة أهل الكهف ذائعة مشتهرة ، وقد شرح المفسرون سورة الكهف شرحاً يجلوها أمام من تخفى عليه رائعات المعانى ، وغامضات الإشارات ، ولكن تعدد الشرح لا يمنع أن نتحدث عن السورة الكريمة بما نعتبره كالجديد لدى بعض القارئين ، إذ لا يكفى أن تفهم أحداث السورة بعيداً عن مسرحها التاريخى حيث يحدد الإطار الدقيق لملامحها الخافيات .

لقد بعث الله أصحاب الكهف فى زمن معين تبرز أحداثه الحكمة الخالصة فى بعث هؤلاء القوم من سباتهم العميق ، إذ أن دعوة عيسى عليه السلام كانت فى عهده دعوة التوحيد الخالص ، وكذلك دعوات الأنبياء جميعاً من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، تصديقاً لقول الله عز وجل :

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ » .

هذه الدعوة الخالصة لله ، ذات التوحيد الخالص قد حرفت بعد فترة ، وخرجت عن لبابها الإلهى إلى شرك يتجه وجهة التثليث ويتحدث عن الأب والابن وروح القدس ، وقد تشعب الجدل بين رؤساء الكنائس دون أن يتجه وجهة الصواب ، حتى افتتن الناس ، وضلوا

معنى الألوهية المنفردة بالكمال ، فشاء الله عز وجل أن ينهض أصحاب الكهف من رقادهم الطويل ليعلنوا كلمة التوحيد الخالص لمن حادوا عن الطريق ، وليذكروا هؤلاء بالإله الواحد فاطر السموات والأرض وبتنزيهه عن الأبوة والبنوة وما يمت إلى البشرية من صفات ، وتجد أدلة ذلك فى مفتتح سورة الكهف ، إذ يقول الله عز وجل :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً • قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ ، وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً • مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً • وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً • مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِم كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً • » .

فهذا الافتتاح المجلجل بإنذار من ينسبون الولد لله براعة استهلال جيدة تمهد للقصة فى السورة الكريمة حين تعلن حقيقة التوحيد سافرة صريحة على لسان أصحاب الكهف ، إذ يقول الله عز وجل عنهم :

« نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى • وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلهاً ، لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً • هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً • وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً » .

وتمضى السورة متحدثة عن القصة فى إيجاز معبر ، وتصوير موح دال ، حتى إذا أوفت على نهايتها ، شاء الله أن يعود إلى حديث التوحيد الخالص ، فيقول عز وجل :

« وَلَبِثُوا فى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً ، قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ ، وَلَا يُشْرِكُ فى حُكْمِهِ أَحَداً » .

وإذن فهذا الزمن المشرك الذى اختلط فيه معنى التوحيد اختلاطاً ملتبساً لدى أتباع المسيح كان ظرفاً مهيئاً لبعث هؤلاء الفتية ليعلنوا حقيقة الاعتقاد الصحيح ، ليعيدوا إلى عقيدة المسيحية روحها الأولى ، كما دعا إليها المسيح عيسى ابن مريم ، حين يجهرون وسط المحتفلين ببعثهم الخارق بأن الله واحد ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحداً ، وحين يعلنون أنهم فروا من تعدد الآلهة حين اضطهدهم دقيانوس الوثنى فآووا إلى الكهف هاتفين : (ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذن شططاً) . وتلك إحدى آيات الله فى بعثهم الخارق ، ونشرهم المعجز بعد أكثر من ثلاثمائة عام .

وإذا كانت العامة حينئذ قد ضلت سبيل التوحيد ، فإن ذوى العقول من متعاطى الفلسفة ، ومجادلى القضايا الفكرية ، قد وقعوا فى ضلال مماثل ، حين أخذت الأفلاطونية الحديثة تغمر الفلسفة المسيحية إذ ذاك بضباب قاتم يطمس لآلئ الحقيقة ، فأخذ مفكرو المسيحية بنظرية العقول المتعددة تأثراً بفلسفة اليونان ، إذ تجعل من العقول المتعددة ما يرمز إلى الأب والابن وروح القدس ، لتوائم بين الوثنية القديمة فى فلسفة الإغريق وما تظنه ينصل بما جاء به المسيح عن السماء ! ونحن نعرف أن الأفلاطونية الحديثة قد تأثرت بالإغريق غرباً والهند شرقاً ، فأخذت

نظرية العقول من الإغريق ، وأخذت انبثاق الابن عن الأب الإله من الهند ، ومزجت ذلك كله فى فلسفة تفسر ما تظنه ديانة المسيح ، وقد كان لها رجالها الأعلام ودعاتها المؤثرون ، فألبسوا العقيدة لباساً تنكره دعوة التوحيد ، وشاركوا العامة فى تعدد الإله ، وإن اختلفت وجهات النظر فى كيفية هذا التعدد ، فكان مبعث أهل الكهف هاتفين بالتوحيد الخالص تصحيحاً لما ارتطم فيه العامة والخاصة من ضلال ، لو وجدوا من يستجيب للحق لوجهه الصحيح .

وأكبر ما هز دعاة الأفلاطونية من بعث أهل الكهف هو تحطيم مبدئهم الفلسفى فى الإيمان بالعلية التى تربط السبب بالمسبب وتتنكر للمعجزات والخوارق ، لأن بعث هؤلاء بعد أكثر من ثلاثمائة عام أمر خارق يحطم هذه العلية المقدسة لدى المفكرين من دعاتها المتحمسين ، ويجعل الخوارق ذات مكان معقول لايذهب به التفكير مذهب الاستحالة المتعذرة ، وإذن فقد جاء أصحاب الكهف ليقولوا لدعاة الأفلاطونية الذين يصرون على ربط الأسباب بالمسببات دائماً دون معجزة تخرق المنطق المعقول : لقد قمنا من النوم بعد ثلاثمائة عام على غير ما تتوقعون فأين ذهب إيمانكم بمبدئكم الفلسفى فى إنكار المعجزات ؟ وإذا كان بعض دعاة الأفلاطونية قد أنكر البعث الأخروى مدعياً استحالته فإن مبعث أهل الكهف قد هدم هذا الإنكار ، وجاء دليلا ملموساً على البعث النهائى تصديقاً لقول الله عز وجل :

« وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ لَارَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً ، رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً » .

وكما كان بعث أصحاب الكهف مفاجأة لمن حرفوا دعوة عيسى من اعتقادها الصحيح ، فقد كان نزول سورة الكهف على رسول الله صلى الله عليه وسلم مفاجأة مماثلة لمشركى مكة ، حيث أرادوا أن يعجزوا محمداً عليه السلام بما ظنوه ليس فى مقدوره ، فأرسلوا وفداً من المشركين إلى يهود المدينة يتقدمه عقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث وغيرهما ليعلموا من الأحبار ما يظنون أنه سلاح هدم لدعوة الإسلام ، وقد سأل عنه الأحبار أسئلة من يتطلع إلى معرفة أمر يتضايق من وجوده ، ثم أعملوا تفكيرهم فى ابتداع أسئلة يظنونها ذات إجابة مستعصية ، فإذا لم يستطيع رسول الله أن يجيب عنها كان ذلك مصدر تشهير به ، واستهانة بدعوته .

وكان فى مقدمة هذه الأسئلة المتحدية سؤال عن فتية بعثوا من رقادهم فى الدهر الأول ، وواضعو هذا السؤال ألو مكر دقيق ، فقد توهموا مخطئين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ألم بأخبار التوراة والإنجيل ثم ادعى الرسالة ، فشاءوا أن يتقدموا بسؤال لم يرد فى التوراة أو الإنجيل ، وهو حديث أهل الكهف .

وقد طار المشركون فرحاً بهذه الأسئلة ، وشاء الله أن يمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة دون إجابة حتى يخبره الوحى بما كان ، فعدوا ذلك التأخير انتصاراً مبيناً على صاحب الرسالة ، ولكن الوحى يصدع بسورة الكهف لتجيب عن الأسئلة الثلاثة فى صدق أمين .

أما المفاجأة التى قصدناها فى هذا المقام فهى مفاجأة المشركين بدعوة التوحيد فى قصة أصحاب الكهف ، إذ أعلنت إيمانهم بالوحدانية وأكدت ما يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسلم حين حارب الأصنام وعادى المشركين ، فماذا عساهم يقولون فى حديث فتية آمنوا بربهم فزادهم هدى

وربط على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذن شططاً ، لقد نزلت السورة الكريمة شافية صدور قوم مؤمنين ، وملجمة مشركى مكة ، ومحيرة أحبار اليهود بالمدينة الذين أذهلهم تفصيل القصة على نحو دقيق لم يكونوا يتصورون أن يحيط به عربى أمى نشأ فى مكة مع الأميين ، ولكنه أتى بالوصف الدقيق وتعرض لأدق حالات النوم ، وهم غائبون فى الكهف ، مستترون عن العيون ، لا يعلمهم أحد غير الله .

« وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فى فَجْوَةٍ مِّنهُ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ، وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِداً • وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً » .

وإذن فقد أبدعت السورة الكريمة تصوير هذا البعث المفاجىء وما فيه من حيرة وتساؤل يشملان أهل الكهف أنفسهم ، ومن بعثوا فى عهدهم من الناس . وقد تدرج الأمر حين استيقظ الفتية من النوم وهم يظنون أنهم رقدوا يوماً أو بعض يوم ، ثم أحسوا بالجوع ، فطلبوا من أحدهم أن يذهب إلى المدينة فيشترى الطعام ، وأوصوه أن يكون حذراً كيلا يدركه الأعداء ، وبالغوا فى التحذير ، فهتفوا قائلين فيما حكاه عنهم كتاب الله : (إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذن أبداً) . أما الدهشة الكبرى وهى انتفاضة البعث بعد النوم الطويل ، فقد أوجزها القرآن إيجازاً بليغاً ، لأنها

برمتها تمثل إطناباً نفسياً يمتد ويتسع ليشمل أفسح الفراغات فى المشاعر والعقول ، وقد عصفت بكل سفسطة وأتت على كل اعتراض .

والقصص القرآنى فى كل مشاهده لايساق لذاته ، بل لما يطوى من عبر تهدى إلى الخير فى الحياة ، وترتفع بالسلوك الإنسانى ، حين تشتبه المسالك ، وتوحش الدروب ، وقد ألحقت قصة أصحاب الكهف بما يجب التقيد به من هدى ربانى ، ونصح سماوى فى مثل قول الله :

« وَلَا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً . إلاَّ أن يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ عَسَى أن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً » .

والقصة — بعد — بمناسبتها الزمنية وأدوارها التاريخية ، وشخصيتها الواقعية ، قد صورت إيماناً وإصراراً ، وهدت إلى موعظة حية ، وصححت مفاهيم معتلة ، لذلك كانت فى حاجة إلى بسط شاف فى كتاب كبير يفقه فى العقيدة ، ويعلم التاريخ ، ويبسط مسارب النفوس واضحة صريحة ، وإذ ذاك تقع موقعها المفيد .

مراء لا جدل

يكتب بعض الأدباء فى أوربا روايات تاريخية يمتزج فيها الخيال بالواقع عن بلاد العرب وعن الدعوة الإسلامية فى نشأتها الأولى فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقوم بعض المترجمين من أبناء الإسلام بتعريب هذه الروايات وتقديمها للقارئ العربى فى شتى ربوع الإسلام، ولا ننكر ما فى هذه القصص التاريخية من وصف جيد لمناظر الطبيعة بالبادية ، ومن تحليل كاشف لبعض الأحداث ، وتصوير صادق لخلجات كثير من الشخصيات ، فمؤلفوها فى هذا المضمار رجال فن وخيال وتنسيق ، ولكن كثيراً منهم يقع فى المحظور حين يأتى على حادثة تاريخية نزلت فيها آيات قرآنية صريحة ، وشرحتها كتب السنة والتفسير والتاريخ بما لا لبس فيه ، ثم يفهم النص القرآنى على غير وجهه متعمداً أو غير متعمد ، وكان على المترجم المسلم أن يعقب ذلك بالنقد فى هوامش الكتاب كيلا يخرج القارئ غير المتخصص بانطباع غير صادق عن كتاب الله عز وجل فى بعض ما قال ، ولكن المترجم غالباً ما يكتفى بالنقل دون تعقيب ، وهنا مكمن الشر ، إذ أن الأمر أمر الدعوة الإسلامية ، والنص هو النص القرآنى ، فيجب التصحيح .

وأضرب هنا المثل بما فهمه بعضهم من آية المباهلة فى سورة آل عمران ، إذ يقول الله عز وجل :

« فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ، فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ، وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ ، وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ » .

فقد قال المؤلف : إن القرآن قد أوصد باب النقاش ولم يرد حواراً مع القوم ، بل طلب منهم أن يجتمعوا مع المسلمين ، ثم يرفعوا أكفهم طالبين إنزال اللعنة على المخطئ !

وهذا كلام ينكره الواقع ، ويخالف الصريح المتبع من إقناع القرآن واستدلاله ، وإذا كان الروائى الأجنبى يذكر ذلك عن جهل أو عن عمد ، فلماذا يسكت المترجم عن إحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، وهذا واجبه البدهى ؟ !

قصة المباهلة :

لوكان المؤلف ذا دراية بموضوعه لعلم أن هذه الآية الكريمة خاتمة لآيات قرآنية جاوزت الستين من مفتتح سورة آل عمران ، وكلها تتحدث عن قوم من أهل الكتاب يناقشون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر المسيح عليه السلام ، ويلجون فى النقاش لجاجاً لا يلتزم الدقة ، كما شاء لهم تعصبهم الواضح ، فنزلت سورة آل عمران مليئة بالشواهد والبراهين تتابع أدلتها ردوداً حاسمة ذات جلاء يقتنع بها من أخلص قلبه لله وهو مؤمن ، حتى إذا بلغت مقطع الرأى ، فوضح الصواب لذى عينين لم تجد مجيباً يقرع المنطق بالمنطق ، فكأن الله بهذه الآية الكريمة قد قال لهم : لم يبق بعد هذه الأدلة الصريحة إلا أن يجتمع المسلمون وخصومهم فى ساحة واحدة ليبتهلوا إلى الله كى يجعل لعنته على الجاحدين.

وتفصيل هذا الحادث التاريخى المعروف فى كتب السيرة بحادث المباهلة يقتضى صفحات طويلة لا يسمح بها المقام ، ولكننا سنوجزه على دقة لنصل إلى الحق من أقرب طريق .

لقد تسامع نصارى نجران بقيام الدعوة الإسلامية وانتشارها فى المدينة وما حولها على نطاق واسع ، كما علموا ما قام بين اليهود من أهل

الكتاب وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من نقاش دينى يتصل بدعوته الإسلامية ويلم باليهودية والتوراة وموسى عليه السلام ، فأرادوا أن يقفوا فى وجه الدعوة من ناحيتهم كما وقف اليهود بالمدينة ، فلجأوا إلى أسقفهم الكبير يعرضون عليه ما سمعوه من أنباء النبى العربى ، وما يدعو إليه من عبادة الله وحده وعدم الإشراك به ، وما يحض عليه دينه من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وبعد عن الفحشاء ، وهى أمور فطرية تتقبلها الطبائع السليمة أحسن قبول ، ولا يحيد عنها غير من أضله الله وجعل على بصره غشاوة .

وقد فكر الأسقف الكبير ، فرأى أن الدعوة الجديدة فى شمال الجزيرة العربية تشكل خطراً على ما يعتقد ، فلابد أن يبعث إلى يثرب بوفد من كبار رجاله المستنيرين وفيهم الأحبار المتخصصون من ذوى الدراية والدربة ، ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم — على رءوس الأشهاد — عن ألوهية المسيح ، وهى ما يعتقده الوفد النجرانى ، وعن معتقدات النصارى فى التثليث ، فإذا وافق الرسول على ما يقولون فهو منهم ، وإذا خالف فلابد أن يعارضوه ! .

جاء وفد نجران مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أجمل مظهر وأبهاه ، إذ اختير من رجاله ذوو الوجاهة الجاذبة ، والمنطق المفحم ، عليهم الثياب المذهبة ، وتحتهم المطايا الفارهة ، ثم دخلوا مسجد المسلمين فى هذه الأبهة الحافلة ، وأقاموا صلاتهم الخاصة على نهجها المرسوم ، مستقبلين قبلتهم لا قبلة المسلمين .

وفى تسامح الرسول صلى الله عليه وسلم معهم حينما دخلوا مسجد الإسلام ليؤدوا صلاة النصرانية ما يدل على سعة صدر الداعية ، بحيث

لا ينبغى أن يضيق ذرعاً بمخالفيه إذا وجد منهم ما ينكر ، وبحيث يعتصم بالصبر حتى يحين النقاش فيجادل بالتى هى أحسن .

قال محمد بن جعفر بن الزبير — فيما روت كتب السيرة والتاريخ — قدم وفد نجران عليهم ثياب الحبرات ، وأردية ذات جمال وبهاء ، يقول من رآهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأينا وفداً مثلهم ، وقد حانت صلاتهم فقاموا فى مسجد رسول الله ، فقال عليه السلام : دعوهم ، فصلوا إلى المشرق ، وهم على اختلاف فى شأن المسيح ، يقولون : هو الله ، ويقولون تارة : هو ولده ، ويقولون ثالث ثلاثة ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، ويحتجون فى قولهم بأنه ابن الله ، بأنه لم يكن له أب فيعلم وقد تكلم فى المهد .

وقد تكلموا فسمع إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتظر إلى الغد حتى نزلت سورة آل عمران مبتدأة بقول الله عز وجل :

« الٓمٓ ۝ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ، وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ... » .

فجهرت الآية بادئ ذى بدء بوحدانية الحى القيوم لا إله إلا هو ، دونا نتظار أو تمهيد .

ثم أكدت ذلك فيما تلا من قول الله : « هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

وقد تكرر نفى الشريك فى الآية الواحدة مرتين ليعقب ذلك بحقيقة أهل الكتاب ، إذ يقول الله فيهم :

« وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » .

قال الإمام الزمخشرى رضى الله عنه فى تفسير هذه الآية بالكشاف قوله : (أأسلمتم ؟) معناه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام ويقضى حصوله لا محالة ، فهل أسلمتم أو بقيتم على كفركم ، كقولك لمن لخصت له المسألة ، ولم تترك من طرق البيان طريقاً إلا سلكته ، هل فهمتها ؟ وفى هذا الاستفهام استقصار وتعيير بالمعاندة وقلة الإنصاف ، لأن المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق ، أما المعاند فتضرب دونه الأسداد فلا يذعن .

ثم مضت سورة آل عمران تفصل أمر المسيح عليه السلام تفصيلا شافياً ابتداء من قول الله عز وجل :

« إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ ، رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فى بَطْنِى مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » حتى قوله تبارك وتعالى : « إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فى الْمَهْدِ وَكَهْلاً ، وَمِنَ الصَّالِحِينَ » .

ثم توالت الآيات تتحدث عن معجزاته الصريحة فى إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ، وفى خلقه من الطين كهيئة الطير حين ينفخ فيه فيكون طيراً ، وفى إحيائه الموتى ، وهى معجزات يعرفها وفد نجران ويعترف بها القرآن صريحاً دون لبس ، ولو كان رجال هذا الوفد ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه لكفاهم ذلك ، ولكنهم سألوا عن والد المسيح ؟ وكأنهم وجدوا فقد الأب دليلا على الألوهية أو البنوة ، فنزل قول الله عز وجل :

« إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونَ • الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَاتَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ » .

هذه ستون آية تتحدث فى أكثرها عن أسئلة أثارها وفد نجران من أهل الكتاب ، وتتبسط تبسطاً شافياً فى حديث الوحدانية ، وقدرة مالك الملك حين يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، ويخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، مما لايستطيعه بشر على الإطلاق ، فكيف يكون المسيح إلهاً يشاركه ألوهيته ؟ فإذا عاند وفد نجران بعد هذه الحجج فإن القرآن لايقبل المعاندة دون نقاش ، ولا يوصد الباب دون برهان ، ولكنه أمام هذا المراء الصريح والعناد المتشدد يصل إلى مقطع حاسم حين يدعو المختلفين إلى المباهلة فترتفع الأكف إلى الله مستنزلة اللعنة على من يعارض الحق ، وقد خاف النصارى عاقبة المباهلة فلم يرتضوها ، وقال قائلهم : ما لاعن نبى قوماً إلا ودحرهم .

ولعلك تدرك سماحة الإسلام وسعة صدره حين تقرأ ما تلا هذه الآية الكريمة من قول الله عز وجل :

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ ، وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » .

فإن هذا النص يعلن صراحة أنه لا إكره فى الدين إذ تبين الرشد من الغى ، وقد اكتفى من أهل الكتاب أن يعبدوا الله وحده دون شريك ، وألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً ، وأى عاقل مفكر لايجد فى هذه الدعوة غير السماحة العادلة ، والابتعاد عن مواطن الشقاق ، فكأن القرآن يقول للمعارضين دون اتئاد : لكم دينكم ولى دين ، لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى .

أفيجوز بعد هذه الحجج الفواصل أن يقول قائل عن المباهلة أن القرآن قد أوصد الباب دون نقاش ، وكأن قائل هذا الكلام لم يتدبر آيات الكتاب فى مواضع كثيرة تفوق الحصر حين يدعو الله أولى الألباب وذوى البصائر إلى التدبر والتفكير ، وإلى اتباع الهدى عن طريق الحجة والبرهان ... وماذا بعد الحق إلا الضلال ..

الامام الشافعى بين مفسرين

تتقدم الإنسانية فى مدارج الرقى بتقدم العصور ، حيث كنا نرى فى تاريخ النقاش العلمى من ضروب التهجم والافتيات ، ووسائل القدح والتنقص ، ما ينفر منه أكثر المتجادلين اليوم فى حلبات النقاش ؛ إذ الإنصاف خلق حميد يجب أن يحرص عليه ذوو العلم ممن يتصدرون للمقارنات النظرية ، كما أن محاولة التنقص والازدراء لمن يذهبون مذهباً مخالفاً ، لا تدل على سعة الأفق ، وامتداد المحيط ، بل تضائل كثيراً من مكانة ذويهما وإن كانوا أهل صواب فيما يقررون ، لأن الصواب لا يكتمل على وجهه الصحيح دون رعاية للأدب فى الحديث .

وقد مضى وقت كان التعصب الفقهى فيه على أشده بحيث لا يطيق نفر من المتشددين أن يسلموا بوجهة نظرة سديدة فى مذهب مخالف ، ولم يكن الخطب فى ذلك عاماً شاملا ، بل كان يخص جماعة متشددة ضاقت بسعة الصدر ، وتحجرت فى زواياها الضيقة ، على حين وجدت شخصيات مستنيرة ناقشت الرأى باعتدال ، واعترفت بالصواب لمن أتى به دون نظر إلى اتجاهه المذهبى ، وهذا هو المظنون فى قوم يحملون راية العلم ، ويدعون إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادلون بالتى هى أحسن ، وسنضرب المثل لكلا الفريقين ليرى القارئ الكريم كيف يحتفظ التاريخ بالكلمة الأخيرة ، فيقولها خالصة صادقة لترجح بالمعتدل وتشيل بالمتسرع العجول .

كان الإمام الشافعى — رحمه الله — حجة فى علم العربية كما هو حجة فى التشريع ، وقد رحل إلى البادية فشافه الأعراب ، وجمع

اللغة ، وروى أشعار الهذليين حتى رويت عنه ، وعزيت إليه ، وكان للأسلوب الفقهى فى كتاب الأم والرسالة روعة عاقلة رصينة ، وأقول ذلك لأن بيانه الفقهى ذو تركيز دقيق يعجب عشاق المعانى المحددة ، والأدلة السافرة ، والإمام شاعر أديب ، وكان فى قدرته أن يستفيض فى تأليفه الفقهى بما يمتع الوجدان ، ولكنه علم أن لغة القانون غير لغة الأدب ، وأن النبوغ فى التأليف التشريعى يعتمد على الأسلوب المركز والحجة المحددة ، فجاء أسلوبه ذا روعة عاقلة رصينة ، إذ هى روعة عقل ، وليست روعة وجدان .

وطبيعى أن يجعل آيات القرآن حجته الأولى ، وأن يشرح مايستشهد به من تلك الآيات ، وقد وجد من ناقشه فى بعض ما اتجه إليه جانحاً إلى غير وجهته ، وذلك طبيعى غير مستغرب ، ولكن المستغرب حقاً أن يوجد من كبار العلماء من يحاول أن يترك القول إلى القائل ، وإذا جاز أن نرى ذلك لدى الأغرار من الناشئة ، فكيف نراه لدى أئمة أعلام وهم بلا شك يعرفون موهبة الإمام الفقهية ! وقد آن أن نستشهد بالمثال .

يقول الله — تبارك وتعالى — فى سورة النساء :

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فى الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ لَا تَعُولُوا ... » .

وقد ذهب غير الشافعى إلى أن معنى « أن لا تعولوا » هو (أن لا تجوروا) من قولهم : عال الميزان عولا إذا مال ، وعال القاضى فى

حكمه إذا جار ، وقد روى أن أعرابياً حكم عليه قاض بما لا يجب ، فصاح فى وجهه : أتعول علىّ ! أى أتجور علىّ ، كأنه يستنكر حكمه ويرميه بالجور .

أما الشافعى فقد ذهب إلى أن معنى « أن لا تعولوا » هو : أى لا يكثر عيالكم ، لأن الزوجة الواحدة لا يكثر أولادها كثرة من يتزوج بثانية وثالثة ورابعة !

ولكل فقيه أن يأخذ بما يترجح لديه من التفسير ، فليس لأحد أن يلتزم بتفسير الشافعى إذا رجح لديه سواه ، ولكن الذى ليس له أن يتطاول على شخصه بما يجب أن يحترز عنه ، وممن تطاولوا على الشافعى أبو بكر بن العربى ، والشريف الرضى ، وممن وافقوه من غير رجال مذهبه : الزمخشرى الحنفى ، والقرطبى المالكى ، وسنشير إلى نبذ من أقوالهم جميعاً ، ليرى الدارس كيف يضائل التهجم من شخص صاحبه ، وكيف يرتفع الإنصاف بذويه إلى أفق نبيل .

١ ــ أما أبو بكر العربى : فقد قال فى تفسيره « بيان أحكام القرآن» المسألة العاشرة : قوله تعالى : « ذلك أدنى أن لا تعولوا » اختلف الناس على ثلاثة أقوال فى تأويله :

الأول : ألا يكثر عيالكم ، قاله الشافعى . الثانى : ألا تضلوا ، قاله مجاهد ، والثالث : ألا تميلوا ، قاله ابن عباس والناس .

ثم قال ابن العربى : أعجب أصحاب الشافعى بكلامه هذا ، قالوا: هو حجة لمنزلته فى اللغة ، وشهرته فى العربية ، والاعتراف له بالفصاحة ، حتى لقد قال الجوينى : هو أفصح من نطق بالضاد مع غوصه على المعانى ، ومعرفته بالأصول ، واعتقدوا أن معنى الآية : (فأنكحوا واحدة إن خفتم أن تكثر عيالكم) .

وتابع يقول : (وكل ما قيل عن الشافعى أو وصف به فهو كله جزء من مالك ، ونغبة من بحره ، ومالك أوعى سمعاً ، وأفصح لساناً ، وأبرع بياناً ، وأبدع وصفاً ، ويدل على ذلك مقابلة قول بقول فى كل مسألة وفصل) .

ثم قال : (والفعل عال ، فى كثرة العيال رباعى لا مدخل له فى الآية ، فقد ذهبت الفصاحة ، ولم تنفع الضاد ، المنطوق بها على الاختصاص) .

هذا ما قاله ابن العربى ، وقد تعرض للموازنة بين إمامين عظيمين ليرفع أحدهما ، ويخفض الآخر ، وما كان له أن يتجه إلى ذلك ، فما منهما إلا له مقامه المعلوم ، وقد اعترف مالك بذكاء الشافعى حين قرأ عليه الموطأ ، كما قال الشافعى : (إذا ذكر العلماء فمالك النجم) . فما دخول ابن العربى بين التلميذ وأستاذه ، وقد أعجب مالك بتلميذه وتنبأ له بالإمامة ، وحسب من حسناته ، حتى إذا بلغ مرتبته دافع عن كثير من أحكامه ، وإذا ذهبت الفصاحة من مثل الشافعى ، أفتبقى لابن العربى ؟!

٢ ــ على أن أبا بكر لم يستقص ما قاله اللغويون فى معنى كلمة (عال) ، وكان عليه كمفسر يتعرض لتخطئة الأئمة الكبار أن يحرص على هذا الاستقصاء ليقف على أرض صلبة لا تهزها الزعازع ، وقد جاء من بعده الفقيه المالكى (القرطبى) ليقوم بهذا الاستقصاء فى تفسيره الشهير ، فيظهر تعجل ابن العربى فيما أسرع به من تخطئة الشافعى .

قال القرطبى : وقديماً قال الشافعى : (ألا تعولوا) أن لا تكثر عيالكم ، قال الثعلبى : وما قال هذا أحد غيره ، وإنما يقال : أعال يعيل إذا كثر عياله .

يريد أنه من الفعل الرباعى لا الثلاثى ، وزعم ابن العربى أنه على سبعة معان لا ثامن لها ، يقال : عال بمعنى مال ، وزاد ، وجار ، وافتقر ، وأثقل ، وقام بمؤونة العيال ، وغلب ، وأعال الرجل : كثر عياله ، أما عال كثر عياله فلا يصح .

ورد القرطبي على ذلك فقال : أما قول الثعلبي عن الشافعي (ما قاله غيره) فقد أسنده الدارقطنى إلى زيد بن أسلم ، وهو أيضاً قول جابر بن زيد ، فهذان إمامان من علماء المسلمين وأئمتهم قد سبقا الشافعى إليه .

وأما ما ذكره ابن العربى من الحصر وعدم الصحة فلا يصح ، فهناك عال الأمر : اشتد وتفاقم ، حكاه الجوهرى ، وقال الهروى فى غريبه : « ... وقال أبو بكر (يريد بن دريد) : يقال : عال الرجل فى الأرض يعيل فيها إذا ضرب فيها ، وقال الأحمر : يقال : عالنى الشيء يعيلنى إذا أعجز .

وأما عال بمعنى كثر عياله ، فقد ذكره الكسائى ، وأبو عمر ، والدودى ، وابن الأعرابى ... » .

وهذا التصحيح من القرطبي يدل على إنصاف وأدب : أما الإنصاف فقد اتجه به إلى الشافعى ، وأما الأدب فقد التزم به مع ابن العربى ، إذ اكتفى بتصويب خطئه دون جموح ، وهذا ديدن الأصلاء من الباحثين .

فإذا تركنا ابن العربى إلى الشريف الرضى فى كتابه (التأويل فى متشابه التنزيل) فإنا نجده يترك للسانه المجال ليتسع فى انتقاص الشافعى ، وقد تجرأ فقال عن الإمام — رضى الله عنه — : (وكفى بأقواله بعداً عن علم اللغة وغربة عن وطن العربية) ، وهى جملة خاطئة مخطئة ،

لأن الشريف الرضى إذا كان يفخر بعربيته لأنه هاشمى ، فالشافعى أعرق منه فى الهاشمية ، فهو من بنى المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، فكيف يكون بعيداً عن وطن العربية ؟!! ثم إن الشريف من رجال القرن الرابع الهجرى والشافعى من رجال القرن الثانى ، فأيهما أقرب إلى التماس الفصحى من أعراب البادية قبل أن تختلط الألسنة ؟!!

وإذا كان المؤرخون قد سجلوا للشافعى إلمامه بلغة الأعراب ، وانتجاعه إياهم ، حتى روى الأصمعى وأمثاله عنه ، فهل قرأ الشريف من علم اللغة إلا ما حصله الشافعى مشافهة ، ويسره لحاضر لم يبد لتقييد العلم ؟ وإذا خالفه فى معنى (ذلك أدنى ألا تعولوا) ، وفرضنا — من باب التسليم الجدلى فقط — صحة ما ذهب إليه الشريف ، أفيكون تفسيره للآية على غير ما يروم كافياً لبسط القلم بعبارات تؤذى الناقد ولا تصيب المنقود ؟

لقد كان الإمام الزمخشرى أهدى بصيرة وأقوم سبيلا من الشريف وأمثاله حين قال فى تفسير الآية الكريمة : « ذلك أدنى ألا تعولوا » من قولهم : عال الميزان عولا إذا مال ، وعال الحاكم فى حكمه إذا جار ، والذى يحكى عن الشافعى — رحمه الله — أنه فسر ألا تعولوا : أى لا يكثر عيالكم . وكلام مثله من أعلام العلم ، وأئمة الشرع ، ورءوس المجتهدين ، حقيق بالحمل على الصحة والسداد ، وألا يظن به تحريف تعيلوا إلى تعولوا . وكفى بكتابنا المترجم بـ (شافى العى من كلام الشافعى) كافياً بأنه كان أعلى كعباً وأطول باعاً فى كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا ، ولكن للعلماء طرقاً وأساليب ، فسلك فى تفسير هذه الكلمة طريق الكنايات ، وقرأ طاووس : ألا تعيلوا من أعال الرجل إذا كثر عياله ، (وهذه القراءة تعضد قول الشافعى) .

أرأيت إلى أدب الزمخشرى ، وإنصافه .. لقد بدأ بذكر المعنى الذى يرتضيه ، ثم ثنى بما ذكره الشافعى ، منوهاً بمكانته ومستبعداً أكبر الاستبعاد أن يخطئ مثله الفرق بين الفعل الرباعى والفعل الثلاثى ، وملتمساً له التأييد فى قراءة قرأها طاووس ! أليس هذا سبيل المنصفين الأثبات ! والزمخشرى حنفى المذهب ، ولكن العلم رحم موصولة بين العلماء .

إن مما دفع إلى التهجم المذهبى لدى السابقين هو ما اشتهر من المناظرات الفقهية العلنية فى الأماكن العامة بعد انتشار المدارس النظامية فى القرنين الخامس والسادس الهجريين ؛ فقد كان لكل مذهب رأسه الكبير الذى يؤلف فى فقهه ، ويدرس لتلاميذه ، ويقوم بالمناظرة عند الاختلاف . وفى معمعان الجدل العلنى يتولد التعصب ، وينتقل إلى الكتب ، وكان على الغلاة من المتناظرين أن يعرفوا أنهم طلاب حق وأنهم ورثة السابقين من أمثال مالك والشافعى وأبى حنيفة وابن حنبل — رضى الله عنهم — فقد كانوا جميعاً يختلفون مع نظرائهم فى الفتوى دون لجاج .

وقد حفظ لنا التاريخ مناظرة فقهية هامة بين الليث بن سعد ومالك ابن أنس ، دارت على بعض المسائل ذات الاختلاف ، وقد أوضح كل من المتناظرين رأيه فى حيدة وإخلاص ، ولئن جاز الشغب العلمى — على أنه لا يجوز — فى قضايا الفلسفة وما يمت إليها من فروع ، فلن يجوز فى علوم دينية ترجع أصولها إلى كتاب الله — عز وجل — وسنة رسوله الكريم ، وإجماع الصفوة من المجتهدين .

ولابد أن يحدث الاختلاف بين العلماء فى تطبيق القواعد ، وفهم النصوص ، حتى ليفتى الفقيه بالحل فى مسألة ما ، ويفتى زميله بالحرمة

فيها ، وعلى العلماء أن يتداولوا الأدلة المتعارضة فى هدوء عاقل ، وأن يبتعدوا بمواطن الخلاف عن صحافة العامة ، إذ ليس كل قارئ بقادر على أن يتتبع وجهات النظر ، ولكنه ينظر فيجد اختلافاً يتركه فى مكان الحيرة والقلق ، وها نحن اليوم نرى لغطاً متعارضاً حول مسائل التأمين والاستثمار ، ونرى الصحافة تفسح مجال النشر لكل كاتب ، فتتعدد الآراء عن خطإ لا صواب ، ولبعض الأدعياء غرور يظنون به أنهم على شيء ، ومتى نشرت لهم الصحف غير المتخصصة رأياً مبتسراً ظنوا أن النشر دليل الصحة ، وتابعوا الفتوى دون أصالة ، وللفتوى الصحيحة رجالها المتخصصون فى مجمع البحوث ، وفى لجنة الفتوى ، وفى كليات الشريعة ، وفى دار الإفتاء ، فيالله كيف لا نأتى الشيء من بابه فنصيخُ إلى كل داع دون اعتبار .

وإذا كان الاختلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية ، فكيف يجرؤ أحد خطباء المنابر على الصراخ المزعج ، والعداء الأهوج إذا قرأ حكماً لا يرتضيه فيدفع بالعامة إلى بلية لا يطيقونها ، ولماذا لا يكتب إلى ذوى الاختصاص أو يرسل إلى الجريدة التى نشرت الرأى مخالفاً فى أدب وموضوعية ، وسيتكلم المتخصصون لا محالة ، فتنجلى الرغوة عن الصريح ، ويذهب الزبد جفاء ، ويبقى فى الأرض ما ينفع الناس .

هذا بعض ما نرجوه فى هذا المجال ، وليس بالعسير بعد على من يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

* * *

تدوين التاريخ الاسلامى
بين الإنصاف والإجحاف

وجدت فى مصر — بعد ابن خلدون — عناية هائلة ضخمة بتدوين التاريخ سابقاً ، ومعاصراً، فأنت تذكر المقريزى ، وابن حجر ، والبدر العينى ، وابن عربشاه ، وابن تغرى بردى ، والصيرفى ، والسخاوى، وابن إياس ، والسيوطى ، وابن زنبل ، وابن خليل ، وغيرهم ممن لا تزال مؤلفاتهم مخطوطة تتطلب النشر والتحقيق ، وفيهم من عكف على التاريخ وحده ، ومن كتب فى علوم كثيرة ولكنه جعل التاريخ من همه ، فجارى الفحول من المتخصصين . ومن الواضح الجلى أن أثر ابن خلدون كان ضئيلا فى أكثر ما خطه هؤلاء ؛ لأن طريقته التحليلية ، ومنهجه التعليلى ، ووقوفه المطمئن أمام الظواهر ، لم يجد تطبيقه العملى لدى هؤلاء على وجه شاف مبسوط ، بل إنه لم يكد يجد تطبيقه العملى لدى ابن خلدون نفسه ، لأنه رسم القواعد الدقيقة فى مقدمة الكتاب ، ولم يتقيد بها فى أكثر ما تلاها من الفصول ، حتى ظن بعض الدارسين أن المقدمة كتبت أخيراً بعد أن انتهى المؤلف من كتابه، وهذا ظن معقول نشاهده فى ذوات أنفسنا ، إذ نلجأ إلى كتابة المقدمة للكتاب بعد أن نفرغ من تدوين فصوله ، وليس معنى ذلك أن المؤلف الذى يرجئ المقدمة إلى النهاية يظعن على عمياء دون تحديد ، بل معناه أنه يحتفظ بطريقة السير فى نفسه محاولا تطبيقها ، حتى إذا فرغ من مهمته عكف على كتابة المقدمة ، موضحاً جهده العلمى كما كان لا كما سيكون .

ولقد كان المأمول ممن ذكرنا من هؤلاء أن يرتفعوا إلى الإنصاف

الحميد فى كل ما يكتبون ، وبعضهم من كبار العلماء الذين كتبوا فى التفسير والحديث ومسائل التشريع ، ولكن الإنصاف الدائم مطلب عسير لا يبلغه غير الصفوة ممن اجتباهم الله ، وليس الإنسان ملكاً فى كل أحواله ، ولكنه بشر يخلق ويسف وكل امرئ بما كسب رهين .

إن الباحث ليطالع كثيراً مما خط هؤلاء فلا يعدم الإنصاف السديد والأمانة الحميدة فى كثير مما يقرأ ، ولكنه من ناحية أخرى يشاهد جموحاً لا مبرر له ، ويرى اعتسافاً يضلّ به صاحبه سواء السبيل ، ولو علم الذى يركب متن الشطط أنه ليس وحده فى الميدان ، وأن إخوانه يكتبون فيما يكتب ، وستتيح المقارنة الدقيقة وجه الحق فيما يدونه المتسرعون ، وقد ينقضى عصره دون أن يكشف اللثام عن الإسراف ، ولكن باحثى العصور التالية سيقرءون ويوازنون ، وسيحللون البواعث ، وسيبحثون عن السرائر — وحينئذ تنجلى الرغوة عن الصريح ، أما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، أقول : لو علم الذى يرتكب الاعتساف فى التاريخ أنه موضع بحث دقيق ، وأنه مسئول مفحوص ، لخشى عاقبة التسرع ، ورحم اسمه من الناقدين ، وأكبر الظن أنه يعلم ذلك ويعيه ، ولكن أين الإرادة القوية التى تسيطر على النوازع ؟ وتعصم الميزان أن يميل ؟ وإذا وجدت فى بعض الأوقات فهل يقدر لها أن تطرد وتستقيم ؟

وسأحاول أن أضرب المثل لبعض الشطط الذى كشف أمره وانتقل إثمه من المتحدَّث عنه إلى المتحدِّث به ، ليعرف جمهرة الدارسين أن الإجحاف لا يستمر ، وأنه لا يصح غير الصحيح ، مهما أرجف الباطل ، وجلب على الحق بخيله ورجله .

نعرف جيداً كتاب (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) منذ أخذت دار الكتب المصرية فى نشره وتحقيقه لأربعين سنة خلت ،

ومعرف من قراءة الكتاب الضخم — دون تزكية خارجية — أن مؤلفه أبا المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى كان ثاقب النظر ، وذا تدقيق بارع وسرد سهل على أعجمية لم تمنع عذوبة لغته ، وسلاسة سرده ، هذا ما تنطق به أجزاء الكتاب ، وهى وثيقة صادقة لا تقبل الإرجاف من منتقص لجوج ، فإذا تركنا هذه الوثيقة الشاهدة ودرسنا حياة المؤلف لم نجد أنه أعجمى ألكن اللسان يتطفل على العلم دون دراسة وتحقيق كما حاول أعداؤه أن يقولوا فى إجحاف مغرض ، بل نرى طالب علم أولع بالتحقيق منذ نشأته ، وقد سلك سبيل المجتهدين من ذوى النجابة ، فقام على تربيته المعيشية والعلمية معاً زوج أخته ، وهو قاضى القضاة ناصر الدين بن العديم الحنفى ، فإذا فارق الحياة خلفه على هذه التربية المزدوجة زوج أخته أيضاً قاضى القضاة جلال الدين البلقينى الشافعى . فما ظنك بمن يشرف على ثقافته الأولى رأس الحنفية ، ورأس الشافعية معاً ، حتى إذا غرسا فى نفسه ظمأ المعرفة ، وأوقدا حرارة التطلع بادر بنفسه إلى مجالس العلية الكبار من أساتذة الحلقات العلمية الكبرى فى عصره ، فتتلمذ على أستاذه الأول المقريزى ، وناهيك به فى مجال التاريخ ، وواصل الأخذ عن الشهاب بن حجر ، والبدر العينى ، وهما علما العصر تاريخاً وفقهاً وسنة ، ولم ينس من دونهما من النابهين كابن عربشاه وابن ظهيرة وابن العليف وابن الشماع ، وبعضهم فى غير مصر من بلاد الإسلام ، فتجشم إليهم الرحلة شوقاً ، وانكب على التأليف حين استوى على ساقه ، واستحصد فأخرج شطأه الذى أعجب وراق ، وقرأ معاصروه اثنى عشر كتاباً من تأليفه أشهرها كتاب : (النجوم الزاهرة) الذى كتبه فى سبع مجلدات ضخام ، ومن ينشرونه الآن سيمتدون بالأجزاء إلى حيز مستريح محلاة بالتحقيق ، والتوثيق ، والشرح ، هذا المؤرخ النابه الذى يجىء ثالثاً فى حلقة ممتازة تبتدئ

بابن خلدون وتثنى بالمقريزى وتثلث بأبى المحاسن هذا ، ثم تمضى فى اتساقها المطرد حتى تنتهى بابن إياس .

هذا المؤرخ النابه يجد من معاصريه وتلاميذه من يثلبه طاعناً فى غير سداد ، ونحن لا نحرم على أحد أن ينقد أحداً ، فلن تظهر الحقيقة إلا بعد مثافنة وتمحيص ، ولكننا نحرم أن يكون النقد طعناً ظالماً دون حق ، فقد ترجم له نور الدين بن الجوهرى الخطيب فى كتابه عن (أنباء العصر) ، فذكر المعروف من أساتذته ، وزاد على ما ذكرناه من قبل ، فنص على أنه حضر مختصر القدورى فى الفقه وشروح ألفية ابن مالك فى النحو ، وإيساغوجى فى المنطق ، وشرح العقائد لسعد الدين التفتازانى ، وسمع المسانيد فى الحديث ، وأعلى ما سمعه سنن أبى داود والترمذى ، والشمائل ، ومسند ابن عباس ، كما قرأ علم العروض على النواجى ، وأخذ علم النغمات عن فتح الدين العجمى .

هذا الدارس الصبور الذى أخذ شتى العلوم عن أئمتها ، وأظهر من المؤلفات ما يدل على ضلاعته البارعة ، لم يجد الجوهرى فى نفسه حرجاً من أن يقول عنه : « ... وحاصل الأمر فيه أنه عامى والمصداق لما قلته يشهد من خطته فى كتبه التى سردناها ، فإنه يكتب كتابة ما تصدر عن صغار الكتاب المتعلمين من تصحيف وزيادة فى الأحرف ، ونقص ولحن مفرط ، وإذا نقل حكاية فتجد غالبها تصحيفاً ولحناً ، ولعمرى فهذه العلوم التى سردها والشيوخ الذين حضر عليهم ما استفاد منهم مسألة ، والظن أنه كلما فرغ من تصنيف يتوجه به إلى من يعرف العربية فيصلحه له ، ويصير له به مزية ، ولكن إذا أراد الله أمراً بلغه .

ولقد حاضرته مراراً ، فإنه كان يحضر عند مخدومنا وصاحبنا وجارنا المقر الزينى ، فكنت أمشى معه فى الحوادث فلم يمش ، وأتكلم

معه فى شيء من الفقه فأجده عارياً منه ، وكذا فى النحو والعروض ، ومن حين عرف أنى اشتغلت بفن التاريخ لم (أعارنى) كتاباً من كتبه ولا أوقفنى على شيء من مصنفاته ... » اهـ .

هنا مربط الفرس حقاً ! إذ أن العلة فى هذه الحملة أن الجوهرى قد طلب مؤلفات صاحبه التاريخية فرفض أن يعطيها إياه ! فلابد أن تقوم القيامة على الرجل ، لا سيما وقد انتقل إلى رحمة ربه وترك من المنافسين ما يؤلمهم ذيوع تآليفه ، فليحاول أن يسلقه بتجريحه الظالم ، ولعل أدهى ما فى هذا التجريح هو التشنيع على فساد العبارة عند أبى المحاسن ، حتى اضطر إلى اتخاذ من يراجع قوله ليصحح الخطأ ، لأن فساد العبارة لدى الجوهرى أشد وأفدح ، وفى كتابه ركاكات وأخطاء تمنعه أن يتصدر للحكم على البناء الأسلوبى لدى سواه ، وأهونها أن يقول : (ولم أعارنى كتاباً) !

لقد تحدث الجاحظ عن تحاسد العلماء ، فخيل إلىَّ أنه أفرط وبالغ ، ولكن بعض ما نستشهد به الآن يميل بنا إلى تصديقه ، كما أن الذين كتبوا فى الجرح والتعديل أشاروا إلى (المعاصرة) وعدَّها أكثرهم مانعاً من قبول الشهادة ، ولست أرى أن الكلام على إطلاقه ، فقد تكون المعاصرة حائلة دون الإنصاف لدى قوم تهيج أنانيتهم حين يتقدم سواهم ويتأخرون ، ولكن هناك من رزقوا السلام النفسى فما ضرهم فى شيء أن يجيد المجيد ، بل أسعدهم أن يسارعوا إلى تقديره والثناء عليه ، ولم يعدم أبو المحاسن من عرف مكانه من الكبار ، فقد نال تقدير ابن حجر ، وهو علامة الإسلام فى عصره ، ورأس القضاة الشافعيين ، كما عرف مكانته البدر العينى ، وهو منافس ابن حجر فى التصدر والفتوى والترأس ، بل إن العينى كانت تأتيه الأسئلة العويصة فى بعض الغوامض التاريخية فلا يستنكف أن يحيل على تلميذه أبى المحاسن

كى يجيب معتذراً بتقدم السن، وتأخر الصحة ، وقد ترجم له ابن تغرى بردى فأشار إلى شيء من ذلك حين قال :

« ... ولما انتهينا من الصلاة على قاضى القضاة (العينى) قال لى بدر الدين محمد بن عبد المنعم : (خلا لك البر) ، فلم أرد عليه ، وأرسلت إليه بعد عودتى إلى منزلى ورقة بخط العينى ، يسألنى فيها عن شيء سئل عنه ، ويعتذر عن الإجابة بكبر سنه وتشتت ذهنه ، ثم بسط فى الشكر والثناء ، إلى أن قال : وقد صار المعوَّلُ عليك الآن فى هذا الشأن ، وأنت فارس ميدانه ، وأستاذ زمانه فاشكر الله على ذلك ، وكانت كتابة هذه الورقة فى سنة ٨٤٩ هـ ، أى قبل وفاة العينى بسنتين ... » اهـ .

ماذا نأخذ من هذا النص ؟ نأخذ منه صراحة أن العينى لم ير بعد انتقال المقريزى وابن حجر من يعتده مرجعاً فى قضايا التاريخ غير أبى المحاسن ، كما نأخذ منه صراحة أن الفقيه الحنبلى بدر الدين ابن عبد المنعم قد لسَّن حين قال لأبى المحاسن فى جنازة العينى : (خلا لك البر) ، وإذا كان الجوهرى ، والسخاوى ، والسيوطى عند وفاة العينى دون أبى المحاسن سناً وإنتاجاً ، وهم الذين واصلوا مسيرة التاريخ فيما بعد ، فإن الرجل قد أخذ زعامة التاريخ عن استحقاق ، وما يلقاها إلاَّ ذو حظ عظيم .

لقد قرأت فصولا مما كتب الجوهرى ، فلم أرتح إلى لغته بالقياس إلى لغة أساتذته ، ونظرائه ، وعرفت أن المثل القائل : (رمتنى بدائها وانسلت) قد انطبق عليه ، والشاهد الناطق بيننا هو آثار الرجلين ، وإذا كان السخاوى — عفا الله عنه — قد تجرأ ظالماً على ابن خلدون والمقريزى وأبى المحاسن ، أفيسكت صادقاً عن الجوهرى ؟!!

لقد عنَّ لى أن أراجع ما كتبه عنه ، فوجدته يقول :

« ... وقد نسخ (البداية) لابن كثير ونحوها فى مجلدات يُضحك أو يبكى عليه فيها ، والعجب أنه قرظها له كثيرون ، ثم آل أمره إلى أن نفد غالب ما معه ، واحتاج فناب فى القضاء .... ونصب نفسه لكتابة التاريخ فكان تاريخاً لكونه لا تمييز له عن كثير من العوام إلا بالهيئة ، مع سلوكه لما يستقبح بحيث أمسكه جماعة الوالى ، وصار الفقهاء والقضاة به مُشْلَةٌ ، وصرف بأمر السلطان مرة بعد أخرى ... ثم لما كثر تردده إلى توقفت فى كونه يحصل شيئاً ، وعملت له مقامةٌ بعد أخرى للزين بن مزهر ، ومع كونه كرر قراءتها علىَّ غير مرة لم يحسن قراءتها عنده ... » اهـ .

هذا ما قاله السخاوى ، وما استشهدت به لأنقل رأيه فى الجوهرى وحده ، بل لأتجاوز ذلك إلى مؤاخذته غير المنصفة حين هاجم زملاءه ، وأساتذته ملحفاً محتداً ، وحين تصدر معركة طاغية جارحة فلاقى من السيوطى والبقاعى نِدَّين جهيرين ، وشغلوا الناس بقذائفهم دون نكوص ، وهم من أكابر العلماء ، ورؤساء المحدثين ، وكان من الخير للجدل العلمى أن يقتصر على الحقائق الفكرية دون أن ينقلب إلى مماراة وتشهير بالمواقف الهابطة ، فينتقل من الموضوعية الجديرة بالاعتبار إلى الذاتية التى يتضخم لديها غرور الشخصية حتى ما يرى صاحبها سوى نفسه ! والقوم بعد علماء مفسرون ، ومن واجبهم أن يلتزموا بحق قول الله — عز وجل — : « ... ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون .. » .

آن لنا أن نصل إلى موضع العبرة مما ذكرناه ، فقد اتضح لنا أن الهجوم على أبى المحاسن لم يجد الإقناع الجازم فى عصره ، ثم مضى

الزمن فى سيره ، واهتمت المؤسسات العلمية الآن فى الجامعات، ودور البحث ، بمراجعات دقيقة لأعلام التراث ، ودرس ما عثر عليه من آثار السابقين دراسة عادلة ، ووزن ما قيل من النقد بميزانه الدقيق محاطاً ببواعثه ودواعيه ، فإذا هؤلاء المظلمون من أمثال المقريزى ، وابن خلدون ، وأبى المحاسن ، يأخذون اعتبارهم العادل ، فتعرف لهم مزاياهم وسقطاتهم جميعاً ، ثم تميل كفتهم إلى الرجحان حين تثقل جهودهم الصائبة ، وتشيل هناتهم التى لا بد منها ، وإذا هؤلاء الظالمون من أمثال الجوهرى والسخاوى يرتدون إلى حجومهم الطبيعية دون اتساع ، ولئن حُمدت لهم جراءة البحث ، وقوة الدفع ، فقد أُخذوا بما تورطوا فيه من افتيات وادعاء ، وأذكر أن المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة قد كتب بحوثاً جيدة تحت عنوان (المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى : القرن التاسع الهجرى) كانت — على وجازتها الدقيقة — شافية صادقة ، وقد حفظت للمقريزى ، وأبى المحاسن مكانى الرياسة والتصدر ، ولو كان ابن خلدون من رجال هذا القرن لخصّه المؤلف ببحث منصف كما خص زميليه ، على حين جعل السخاوى والجوهرى والسيوطى ممن عنفوا فى المؤاخذة والتشهير بمنزلة دون أولئك ، ولم يرسل القول إرسالا دون استدلال ، ولكن شرح ، وعلّل ، واستنتج حتى بلغ الشاطئ فى اطمئنان مريح ، وقد صدق شوقى حين رثى المنفلوطى فقال :

سكن الأحبة والعدى وفرغت من ... حقد الخصوم ومن هوى الأشياع
فإذا مضى الجيل المراض صدوره ... وأتى السليم جوانب الأصلاع
فافزع إلى الزمن الحكيم فعنده ... نقد تنزه عن هوى ونزاع
فإذا قضى لك أبت من شم العلى ... بثنية عزّت على الطلّاع

* * *

عتاب لا مؤاخذة

« عَبَسَ وَتَوَلَّى • أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى • وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى • أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى • أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى • فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى • وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى • وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى • وَهُوَ يَخْشَى • فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى • كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ».

من الإسراف كل الإسراف أن تنظر إلى النص القرآنى الكريم بعيداً عن مناسبته المدونة فى كتب التفسير ، وصحائف أسباب النزول ، إذ وجد لدينا اليوم من يقتطعون النص القرآنى عن مناسبته ، ليجعلوه كأثر شعرى ، أو رسالة أدبية يبيحون لأنفسهم أن يستشفوا منها كل ما يمكن أن يفد على الذهن من خواطر ، دون أن يتقيدوا بظروف النص المدونة فى كتب التفسير والحديث ، وقد فاتهم أن النص البشرى[1] لا خطر فى فهمه على غير وجهه ، لأنه ليس من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه أو خلفه ، ولكن أقل خطأ فى فهم النص القرآنى أو استشفاف ما يصعب استشفافه من مراميه يوقع فى معصية ذات خطورة ، إذ يحمل هذا المتسرع على كتاب الله ما ليس فيه ، وقد يقرأ غير الدارس ما حمل خطأ على كتاب الله فيظنه حقاً لا شك فيه ! ويا لها من سيئة .

والآيات الأولى من سورة عبس ذات اشتهار بين الناس شرحاً ونزولا ، وكان الظن بها أن تظل بمنجاة من التأويل المسرف ، وهى

(١) إذا كان غير نبوى .

فى مجملها الدقيق عتاب كريم لتصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما روى الإمام القرطبى عن نفر من الباحثين ، وقد شاء الرسول أن يحسم الموقف بعد هذا العتاب بسماحة لا تصدر إلا من مثله ، فقابل عبد الله بن أم مكتوم باسماً بعد نزول الآيات الكريمة وقال له فى مودة: « أهلا بمن عاتبنى فيه ربى » ، فالمسألة إذن بنص النطق النبوى عتاب ربانى ، وليست مؤاخذة ذات ردع وزجر كما حلا لبعضهم أن يقول، وكأنه يتحدث عن إنسان يشمخ على الضعفاء ، لا عن نبى نبيل من كرام الأنبياء ، وقد وصفه الله بأكرم ما يوصف به إنسان من خلقه حين قال مخاطباً إياه : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

وقبل أن نشير إلى خطإ هؤلاء المتسرعين نعرض لظروف الآيات كما دلت عليها المصادر الصحيحة فى أمهات كتب التفسير والحديث والسيرة النبوية ذات الإسناد الوطيد .

لقد جاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة ما جاهد ، ناشراً دعوة ربه ، فوجد من صناديد قريش وأعلامها المرموقين فى المجتمع المكى معارضة طاغية كابد منها ما كابد ، مثابراً على تأدية الرسالة كأصلب ما تكون المثابرة ، وكم تعرض لمناقشة هؤلاء المنكرين ، إذ يقابلونه بالإيذاء والسب حيناً ، وبالإنكار والجحود حيناً آخر ، وصاحب الخلق العظيم يدفع السيئة بالحسنة ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة مجادلا بالتى هى أحسن ، وقد واتته الفرصة ذات يوم، فشاهد مجلساً ضم نفراً من هؤلاء الصناديد ، فلم يشأ أن يضيع الفرصة السانحة ، وقد بدأهم بالحديث ، فوجد موادعة قل ما تتاح ، وأنساً شذ ما يتهيأ ، فتوقع الخير ورجا الله أن يوفقه إلى استمالة هؤلاء المنكرين فيميلوا معه إلى حقه الصريح .

وكان بالمجلس القرشى الحاشد من هؤلاء الأعلام : عتبة بن ربيعة ، وشيبة أخوه ، والوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، والحكم بن هشام المعروف بأبى جهل ، والعباس بن عبد المطلب ، وهم يومئذ سادة الملإ وأصحاب الرأى الجهير بين الناس .

فنظر صلى الله عليه وسلم إلى وجوه القوم فصادف استبشاراً وأنساً فرأى أن يبدأ الحديث مع عتبة بن ربيعة ، فقال له عليه الصلاة والسلام أما آن يا عتبة أن تدخل أنت وأخوك شيبة فى دين الله ؟ والله ما دعوتكما لأمرى وإنما دعوتكما لله رب العالمين ، وهذا كلامه بين يدى ، فاستمعا إلىَّ وأصغيا لعل الله يهديكما فتكونا من عباده المخلصين .

فرد عليه عتبة بأدب ، ورد الرسول بمنطق مهذب ، حتى قطع حجته وحجة شيبة أخيه ، وبان للمجلس قوة المنطق فى كلام الرسول ، فطمع أن يسير بالأمر إلى خطوة مماثلة .. فتوجه إلى عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو أقرب الحاضرين إليه نسباً ، وأعطفهم عليه قلباً ، فقال له ، وكان مصغياً يستمع إلى حديث ابن أخيه مع ابنى ربيعة : وأنت يابن عبد المطلب لو استجبت إلى الإسلام ، ومكانك فى الذروة من قريش ، لاهتدى بك نفر كثير ، فلا تحل بين أتباعك ورحمة الله ، فأطرق العباس إلى الأرض ولم ينطق بإيجاب أو رفض .

وأدرك رسول الله ما بنفس عمه ، فهو يعلم اتئاده وحسن تأنيه ، فتركه متجهاً إلى الوليد بن المغيرة ليقول له : أيحق لك وأنت سيد العشيرة أن تبطئ عن دين الله ؟ والله ما فى أصنامكم من غناء لكم يوم يقوم الناس لرب العالمين .

فسكت الوليد ونظر إلى أصحابه كمن يستشف دلائل الملامح فى صفحات الوجوه .

فانتهز رسول الله صمت القوم واتجه إلى أمية بن خلف فقال له : ما كان لسادة قريش أن يكفروا بالله رب العالمين ، وما كان لك يا أمية إلا أن تكون قدوة لقومك ، فما بعد الكفر من ذنب . فقال : يا محمد، أمهلنى يوماً أو بعض يوم ، فالأمر أعسر عندى من يسره لديك ، وقد خاف أبو جهل أن يكون فى رد أمية ما يدل على الإذعان ، فأعلن صوته بالمعارضة ، وناقشه الرسول فى لين سمح كى يطفىء من غضبه الحاقد ، وأخذ يتلو من كتاب الله ما لو نزل على جبل لرأيناه خاشعاً متصدعاً من خشية الله .

وفى هذا الموقف الحرج البالغ مبلغه من الدقة الحاسمة جاء عمرو ابن قيس الأعمى الشهير بابن أم مكتوم ، فقال : يا رسول الله ، أقرئنى وعلمنى مما علمك الله ، وأخذ يكرر ذلك فى موقف كان فى ظن الرسول أن غيره أولى بالانتباه إليه ، فهو يناقش الصناديد فى أمر الرسالة ، ولابد أن يسير بهم إلى نهاية الطريق ، ثم انفض المجلس دون حسم ، ونزل الوحى على رسول الله متحدثاً عن الموقف كما كان ، وموجهاً نظر رسول الله إلى الأولى والأجدر فيما كان ينبغى أن يصنع ، إذ أن الله يعلم من إعراض هؤلاء ما لا يعلم الرسول ساعتئذ ، فالانتباه إلى المؤمن أولى من شغل الفراغ بما لا ينتج ، وأدرك محمد صلى الله عليه وسلم بعده عن الأولى والأصوب ، فرأى أن يصحح الموقف ، وتقدم إلى عبد الله بن أم مكتوم ليستل ألمه وليقول له على رءوس الأشهاد : « أهلا بمن عاتبنى الله عز وجل فى أمره » .

هذا لباب الموقف الذى نزلت بشأنه الآيات الكريمة فى سورة عبس ، وهو لا يدل على أن رسول الله — حاشاه — قد أعرض عن ابن أم مكتوم لأنه فقير مستضعف ، ولأن الصناديد من قريش أقوياء أغنياء كما حاول بعض الكاتبين أن يقول ذلك ، ولو أن أبا بكر

أو الفاروق أو عثمان أو علياً أو حمزة بن عبد المطلب قد جاء أحدهم فى هذا الموقف ، وهو لا يقل مكانة عن هؤلاء الصناديد ، لأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يتم مناقشة من بدأ معهم الحديث فلم يكن إعراضه عن ابن أم مكتوم امتهاناً لفقره ، ولكن أعرض اتكالا على سابقته ، وأنه وقد أسلم وجهه لله أصبح مفروغاً من أمر هدايته التى أسبغها الله عليه .

هذا هو الواضح الجلى من سلوك الرسول فى قومه ، ومن توجيهاته النبيلة فى المساواة والإخاء ، ولكن بعض الكاتبين قد جعل الموقف موقف كبراء ومستضعفين ، وكان الشهيد الحبيب الأستاذ سيد قطب رحمه الله ممن اتجهوا هذه الوجهة ، إذ قال رحمه الله عنه بصدد هذه الآيات فى الجزء الأخير من (ظلال القرآن) : إن الميزان الذى أنزله الله للناس مع الرسل ليقوموا به القيم كلها هو : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » هذه القيمة الواحدة التى يرجح بها ميزان الناس ، وهى قيمة سماوية بحتة لا علاقة لها بمواضعات الأرض وملابساتها إطلاقاً ، ولكن الناس يعيشون فى الأرض ويرتبطون فيما بينهم بارتباطات شتى كلها ذات وزن وثقل ، وهم يتعاملون بقيم أخرى فيها النسب ، وفيها القوة ، وفيها المال ، وفيها ما ينشأ عن توزيع هذه القيم من ارتباطات عملية ، فيجىء الإسلام ليضرب صفحاً عن كل تلك القيم الثقيلة الوزن فى حياة الناس ، ثم يجىء هذا الحادث — حادث ابن أم مكتوم — لتقرير هذه القيمة فى مناسبة واقعية محددة ، وليقرر معها المبدأ الأساسى وهو « أن الميزان ميزان السماء » .

وهذا الكلام أحب ما يمكن أن أستشهد به فى موضع الخلاف ، لأن الأستاذ الشهيد قد أبان وجهة نظره فى رفق متأن أنيق ، ولم يكن

مثل من ظن بالرسول ما لا يمكن أن يكون ، فاشتط فى تخريجات لا معنى لها ، وإذا كان هؤلاء يرون أن الرسول قد مال للكبراء دون الضعفاء جرياً وراء قيم ثقيلة معروفة ، فقد أخطأوا وأسرفوا فى الاستنتاج فتاريخ الرسول العملى يتجه عكس ذلك ، كان المستضعفون من الفقراء والعبيد يحضرون مجلسه ولا يكادون ينقطعون — قبل حادث ابن أم مكتوم وبعده — حتى كانت قريش تتهكم بهم ، وتقول فيما روى القرآن عنهم : « أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا ؟ » وتقول : « لو كان خيراً ما سبقونا إليه » .

وتروى كتب السيرة أن نفراً من وجهاء قريش فيهم عتبة وشيبة والحارث بن نوفل والمطعم بن عدى قالوا لأبى طالب : لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا وحلفاءنا ، فإنهم عبيدنا وعتقاؤنا ، لكان أعظم فى صدورنا ، وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقنا به . فأتى أبو طالب النبى صلى الله عليه وسلم ليخبره بذلك ، فقال عمر مشيراً : لو فعلت ذلك يا رسول الله حتى تنظر ما الذى يريدون وإلام يصيرون ؟ فلم يشأ رسول الله أن يقبل قول عمر ، ونزل قول الله تأييداً له :

« وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ، وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ، أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ، وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

والحق أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وقد طمع فى تقريب أعدائه فقط ، دون أى احتقار لصاحبه المسلم ، بل أقول : إنه أعرض عنه اتكالا على ما يعلم من قوة يقينه ، وهـذا ما عاتبه الله عليه ، ولو جاء عمر بن الخطاب كما جاء ابن أم مكتوم لتركه كما ترك عبد الله ، فعلى الذين يرون فى آيات سورة عبس نوعاً من المؤاخذة أن يفرقوا بين العتاب وبين المؤاخذة ، فالأول يكون حين يخالف الإنسان الأولى دون أن يقع فى خطإ ، والثانية تكون حين يقع الخطأ فعلا ، وهذا ما يجب أن نقف عنده دون إسراف ، وقد حدد رسول الله طبيعة الموقف حين قال : « أهلا بمن عاتبنى فيه ربى » ، ففيم اللجاج ؟

الفضائل الخلقية من أصول الاسلام

قرأت فى كتاب (رحلة إلى الهند) فصولا جيدة تصف مشاهدات أديب دقيق النظر ، واسع الخبرة ، حسن الاستنتاج ، يتمتع بأسلوب جذاب يحمل قارئه على متابعته فى شوق وإمتاع ، وقد وصف الكاتب طرائف البوذيين وصفاً دقيقاً ، ويظهر أنه خالطهم مخالطة تامة ، فعرف اتجاهاتهم النفسية ، وشمائلهم الخلقية ، وتحدث عنهم بروح العطف الخالص ، وهو ما نؤيد منحاه لدى كل رحالة ، لأن الكاتب المقتدر لا يؤدى رسالته فى وصف ما يعرض له إذا كان ينظر إلى الموصوف من بعد ، وإذا كان يقيم الحواجز العقلية والنفسية بينه وبين من يتحدث عنهم ، إذ يصبح فى هذه الحالة غريباً عن موضوعه ، يكتفى بالظواهر دون الغوص على الخوالج والبواعث ، وأحرى به حينئذ أن يكون مراسل جريدة لا أديباً صاحب يراع .

وقد وقفت طويلا عند حديثه عن نفر من المسلمين يجاورون البوذيين إقليمياً ، ويشعرون نحوهم بالحب والتعاطف ، وهذا غير مستغرب ، لأن الإسلام يدعو إلى المودة والتراحم والبر ، لا بين أبنائه فحسب ، بل بين الناس جميعاً إن لم يكونوا أولى عدوان على المسلمين ، وكلنا نقرأ قول الله عز وجل : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » . فالمودة بين المسلمين وجيرانهم المسالمين شىء طبيعى ، بل خضوع ممتثل لأمر الله .

أقول : وقفت طويلا عند حديث الكاتب ، حين قال عن هؤلاء المسلمين : إنهم تأثروا بتعاليم البوذية فى الرحمة والرفق ، والبعد عن

الإيذاء ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، والزهد فى الملذات ، حتى لتحسبهم ـ لولا قيامهم بشعائرهم الخاصة صلاة وصياماً ـ بوذيين !

هذا ما قاله الكاتب الفاضل ، ولا أدرى كيف غاب عنه أن هذه الفضائل التى أشار إليها مجداً مستجيداً من صميم الأخلاق الإسلامية ، ولن ينقلها المسلم من جيرانه إذا اتصفوا بها ، لأن الرحمة والرفق والبعد عن الإيذاء ومقابلة السيئة بالحسنة تجد سندها الصحيح فى كتاب الله تعالى وفى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيما عرف من تاريخ المسلمين ذوى الحرص على تعاليم دينهم ، حين ضربوا أروع المثل فى الوفاء والإيثار والبذل ، وحين أمروا بالمعروف ، ونهوا عن الرذائل ، وفيهم من بات على الطوى ليشبع ضيفه ، ومن اكتفى بالأسمال البالية ليكسو آمله بالجديد الطريف من الثياب ! أما الزهد الورع فمن صميم تعاليم الإسلام ، ونحن نعرف أن هذا الدين قد أحلَّ الطيبات ولم يحرم زينة الله التى أخرج لعباده ، ولكنه جعل التقشف والاخشيشان من وسائل الرجولة الحق ، كما جعل الزهد الورع سبيل الارتقاء النفسى ، إذ ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه ، وإذ الاكتفاء بالموجود خير من التطلع إلى المفقود : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا ، لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى » .

نعلم ذلك ، ويعرفه كل من قرأ اليسير من تعاليم الإسلام ، فكيف يكون تمسك المسلمين بفضائلهم القرآنية أثراً من آثار الاتصال الودى بالبوذيين ! وأيهما أقرب للإنسان ؟ أن يتأثر بنبيه ، وكتاب ربه ، أو أن يتأثر بمصلح فاضل لا ينتمى إليه من قريب أو بعيد !

لقد دأب كتبة الاستشراق على أن يتمرنوا أحكام القرآن بما سبقها من أحكام أهل الكتاب ، ويرون فى ذلك تأثراً مزعوماً ! وذلك لأنهم لا يؤمنون بنبوة رسول الله ، ويعدونه ناقلا عن سواه ! وقد فنـ

المحققون باطلهم المفترى بالحجج الدامغة ، فإذا رأينا اليوم من يريد أن يرجع بأخلاق المسلمين إلى التأثر بجيرانهم البوذيين ، فذلك ممن يجهل نصوص القرآن وأحاديث السنة المطهرة ، بل يجهل أن دين الفطرة يماشى كل فضيلة ، ويحاشى كل رذيلة ! فإذا اتفقت الفضائل فى الأديان السماوية الصحيحة فلأنها من عند الله ، وإذا نادى مصلح بمثل ما جاءت به هذه الأديان فقد رجع إلى الفطرة الصافية إن لم يكن علم شيئاً من آثار من تقدموه من الأنبياء، «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير» .

ونحن نعلم أن بوذا لم يدوّن كتاباً ، وإنما نقل تلاميذه أقواله ، وتتابعت هذه النقول مسهبة فى شروح كثيرة ، حسبت بمرور الأيام من أقوال بوذا نفسه ، مع أن الثابت أنه كان داعية فضيلة فحسب ، ولم يتكلم عن خالق السموات والأرض ، ولا عن الحساب والجزاء ، ولم يكلف أتباعه بأى عبادة من العبادات ، كما نادى بالمساواة ، وحطم الفوارق التى أكدتها البراهمية بين طبقات الشعب ، إذ جعلت الكهنة فى الرأس ، والجند فى الذراعين ، وأرباب الحرف فى الساقين ، والأرقاء فى القدم ، فجاء بوذا ليؤكد أن الجميع سواء ، وهذا ما يحسب له فى ميدان الإصلاح .

وحين نرجع لمن كتبوا عن تعاليم بوذا لضبط النفس وتربيتها ، نجدهم يجعلون أول هذه التعاليم هو التجرد من سلطان اللذة ، ورياضة النفس على تركها ، والسعى إلى المعرفة الحقيقية ، لأن الجهل سبيل الضلال والانحدار ، وكل المصلحين الصادقين يتجهون وجهة بوذا الإصلاحية ، وقد كان للرجل من ظروف حياته ما هداه إلى سبيله الموفق ، حيث نشأ فى أسرة حاكمة ، بعيداً عن منغصات الحياة ، وتم زواجه فى حفل شاركت فيه جميع طوائف البلاد ، ولكنه كان يخلو بنفسه كثيراً ، فيرى من صنوف البؤس والحرمان ما ينغص عليه لذة

النعيم ، وبهجة السيطرة ، وقد شاهد احتضار مريض تآكل جسمه وشاه مرآه فأورثه ذلك تمام الحسرة ، وعلم أن المصير واحد ، فصمم على الرحلة ، وترك أبهة الرسالة ، وأصبح داعية للخير ، وانجذب نحوه الآلاف ممن لمسوا طهارة نيته ، وأصبحوا دعاة لمذهبه ، مذهبه الذى تقدم بنفسه لتحقيقه حين هجر اللذة ، وحارب الشهوات .

ولم يكن الرجل وحيداً فى اعتزال الأبهة المسيطرة ، والحكم المهيمن ، فقد روى التاريخ أمثلة شتى لأناس فضلوا التقشف على الترف . وتركوا التاج والصولجان ليصبحوا كسائر الأنام ! وهى حالة نفسية تعتاد ذوى الدعوات الإصلاحية على مر الأجيال ، ولعلنا نذكر النعمان الأكبر صاحب الخورنق ، وقد حكم الحيرة ثلاثين عاماً ، ورأى من حوادث الدهر ما أزعج خاطره ، فآثر الزهد والانزواء ، ولبس المسوح وتاه فى الأرض فلم يعلم أحد أين سار ، وفيه يقول عدى ابن زيد :

وتذكر رب الخورنق إذ فكر ... يوماً وللهدى تفكير
سره ماله وكثرة ما يملك ... والبحر معرضاً والسدير
فارعوى غيه فقال وما غبطـ ... ـة حى إلى الممات يصير
ثم ساروا كأنهم ورق جف ... فألوت به الصبا والدبور

ونظيره فى الإسلام إبراهيم بن أدهم ، فقد كان أميراً من أعرق بيوت الرئاسة فى بلخ ، لا يسير إلا فى موكب من الحراس والحاشية ، وقد دفعه شبابه إلى اللهو الصاخب ، فاشتغل بالصيد والسكر والمنادمة وجمع حوله حاشية ترى رأيه وتلهو لهوه ، ولكن تتابع اللذات قد أفقدها كل بهجة ، فصارت بالتكرار شيئاً تافهاً لا قيمة له ، وعادت الصحوة لإبراهيم حين ذهب فى بعض أيام الجمعة إلى الصيد ، متصدراً موكبه الحافل ، وسمع نداء الصلاة عن بعد ، ورأى الناس ينهضون

حول ركبه إلى المسجد ، فتساءل عن مصيره وقد ترك كل فريضة ، وأدركته الخشية ، فرجع إلى داره ، وهان عليه ما أغرق فيه من النعيم فاعتزل ماضيه ، واستقبل حاضراً زاهداً نقياً ، ثم ختم حياته بالشهادة غازياً فى جنود الرباط .

فليس بوذا إذن بواحد فى منحاه ، بل له نظراء كثيرون .

وإذا كنا نعرف أن التوراة قد انتشرت لعهده ، وأن الوصايا العشر كانت متعارفة متعالمة ، فإننا نعرف أن بوذا قد ترك وصايا عشراً تنهى عن القتل والزنا والسرقة والكذب والاغتصاب ، والتنعم بالطيب والزهر والفراش الوثير وشرب المسكر وشهادة الزور والشغف بالذهب والفضة ، وقد جاء الإسلام بتحريم الكذب والسرقة وقتل النفس دون حق ، كما حرم تناول المسكر وشهادة الزور ، ولكنه أباح الطيبات من المآكل ، وأحل لحم الحيوان والطير ، وقد حرمهما بوذا ، وحبب الطيب والزينة المحتشمة ! ولا شك أن المسلمين فى كل مكان يعرفون الأصول الأخلاقية فى الإسلام ، ويصدرون عنه فى كل اتجاه فإذا اتفقوا مع جيرانهم البوذيين فى بعض الفضائل فقد التزموا بشريعتهم السماوية قبل كل شىء .

ولسنا فى حاجة إلى أن نذكر لصاحب (رحلة إلى الهند) أنه أخطأ حين جعل التواد والرحمة والتآلف من سمات البوذية التى انتقلت إلى جيرانهم المسلمين ، فلو لم تكن الرحمة خلقاً إسلامياً لكانت خلقاً فطرياً تنجذب إليه النفوس الصافية فى كل مكان ، وهى من صفات الله التى يذكرها المسلم مرات فى صلاته ، وفى كل ركعة ، وحسبه أن يبتدئ كل أمر ذى بال ببسم الله الرحمن الرحيم .. أما الذين يتحدون الفطرة الإنسانية فقد نشزوا عن الهدى ، وخالفوا شرع الله الحق منذ آدم أب البشر إلى أن يقوم الناس لرب العالمين .

رأى فى تفسير آية كريمة

« الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فى أَدْنَى الْأَرْضِ ، وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فى بِضْعِ سِنِينَ ، لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَن يَّشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

فى سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) أى منذ ثلاثين عاماً ، كانت تلقى بدار الحكمة بالقاهرة فى شارع القصر العينى محاضرات رائعة فى تفسير القرآن أسبوعياً ، يقوم بها الأساتذة الأعلام : محمود شلتوت ، وعبد الوهاب خلاف ، وعبد الوهاب عزام ، وعبد الوهاب حمودة ، رحمهم الله ، وقد وجدت هذه المحاضرات صدى واسعاً لدى المثقفين فكانت القاعة الفسيحة تزدحم بهم على اتساعها ، وكانت الطرقات بين المقاعد تتكدس بالواقفين ، مما يدل على قوة اليقظة الإسلامية ومنزلة التراث القرآنى لدى المسلمين ، وبخاصة إذا قام بتفسير القرآن من يملك البيان المشرق مع الفكر النير المستقيم .

وأذكر أنى استمعت — وكنت حينئذ طالباً بكلية اللغة العربية بالقاهرة — فيما استمعت من هذه المحاضرات ، كلمة رائعة جديدة فى تفسير مفتتح سورة الروم ألقاها الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام رحمه الله ، ونضر مثواه ، تتضمن رأياً قوياً فى تأويل الآية : « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » . وقد خرج المجتمعون وفيهم كبار الأساتذة بالجامعات يناقشون هذا الرأى ،

وجلهم يثنى على توجيه الدكتور عزام ، ويؤيد منطقه الجديد اللماح ، ومن خالفه — إذ لابد لكل رأى من مخالف — يشكر له اتجاهه الناقد ، ودرايته الواسعة بتاريخ العرب والفرس والروم دراية لا تقف عند المصادر العربية وحدها ، بل تتعداها إلى عدة مراجع شتى ما بين شرق وغرب .

ثم مضت الأيام ، أو قل مضى ثلاثون عاماً ، وصليل المحاضرة لا يزال يرن فى سمعى كالأمس ، إلى أن فوجئت اليوم بحديث إذاعى يقدمه وكيل كلية جامعية ، يسطو على ما قال الدكتور عزام ، ويقول : إنه فتح هداه الله إليه ، ولا يستحيل أن يتفق اثنان دون تأثر فى تفسير آية ، فما أكثر ما تتوارد خواطر العلماء ، ولكن المستحيل كل المستحيل أن تكون الألفاظ والجمل بأعيانها التركيبية ، ولم تكن المسجلات الكهربائية منتشرة إذ ذاك كما نعهد الآن ، إنما نشر الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام مقدمة تفسيره بالعدد (٧٢٣) سنة ١٩٤٧ من السنة الخامسة عشرة بمجلة الرسالة ، وبالرجوع إليها بعد استماع حديث المتكلم ، وجدنا أن النقل مماثل ! فهل ظن هذا الذى يفسر القرآن أنه بمنجى من المؤاخذة ، لأن العهد بعيد ! ! لو كنت مكانه لعرضت رأى الدكتور عزام معزواً إليه ، ثم عقبت عليه بما أشاء ، ولن ينقص قدرى العلمى لحظةما ، بل يرتفع إذا ضمت إليه سمات الأمانة والصدق والإخلاص ! وهى سمات كان الواجب أن تتمكن من نفوس الدارسين لكتاب الله ! !

والدكتور عزام رحمه الله كان من دعاة الإسلامية النظيفة أينما حل وقد درس لغات المسلمين من فارسية وأردية وتركية ، لا ليجلس أستاذاً فى معهد اللغات الشرقية ، بل ليدرس آمال المسلمين وآلامهم فى كل بقعة ، وليفصح عنها بما يملك من بيان ، وليقدم أعلام المسلمين

ونتاجهم الحافل إلى العربية كما قدم : إقبال ومحمد عاكف والجامى وعبد الحق حامد ، مترجماً وشارحاً ودارساً ، وقد كان رئيساً لرابطة الأخوة الإسلامية بالقاهرة ، وكانت تجمع ممثلين مستنيرين لشتى الدول الإسلامية ، وقد كان عميداً لكلية الآداب بمصر فسفيراً لها بالمملكة العربية السعودية والباكستان . ولقى الله وهو مدير بجامعة الرياض بالعاصمة السعودية .

ولو شئنا أن نفيض فى حديثه لاتسع المجال ، ولكننا نعود إلى توضيح رأيه ، لنؤكد نسبته إليه ، فللحقيقة أنصار وأعوان .

تحدث المفسرون عن هذه الآيات بما هو مدون مشتهر ، وقد ذكروا فى أسباب نزولها أقوالا عدة ، أسيرها فى الذكر والاشتهار ما رواه الإمام ابن جرير الطبرى بإسناد ينتهى إلى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : كانت فارس ظاهرة على الروم ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب ، وهم أقرب إلى دينهم ، فلما نزلت : « ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » ، قال المشركون : يا أبا بكر ، إن صاحبك يقول : إن الروم ستظهر على فارس فى بضع سنين . قال أبو بكر : صدق . قالوا : هل لك أن تراهن — ولم يكن الإسلام يومئذ حرم المراهنة لأن الحادث مكى لا مدنى — قال : نعم . فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين ، فمضت السبع ، ولم يكن شىء ، ففرح المشركون بذلك ، وشق على المسلمين ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما بضع سنين عندكم ؟ قالوا : دون العشر قال : اذهب فزايدهم وزد سنتين فى الأجل ، قال : فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ، ففرح المؤمنون .

ولتوضيح هذا الحادث - المهم - نذكر أن تجار مكة كانوا - وهم من المشركين - ذوى علائق طيبة بالروم ، فهم ينتقلون فيما يحكمون من المسافات الشاسعة التى تطوى الممالك والشعوب دون حرج . كما أن الغساسنة من العرب كانوا أداة طيعة لتيسير التجارة القرشية ، لصداقات شخصية وعائلية تربط ما بين مكة وجلق ، فحين اندحر الرومان أمام الفرس ، وكان ذلك حوالى سنة ٦١٥ م قلق العرب من المشركين لسيطرة فارس ، ورأوا أن يجعلوا من هذا الاندحار تعلة لمهاجمة المسلمين فى دينهم ، فأخذوا يقولون : إن الروم أهل كتاب وليسوا وثنيين ، وإن الفرس وثنيون وليسوا أهل كتاب ، وقد انتصروا على الروم ، فلو كانت الوثنية باطلة كما يزعم محمد ما تحقق هذا الانتصار ، وكأنهم بذلك يتهكمون بدعوة التوحيد التى قام بها النبى الكريم ، فنزلت الآية لتعد بشيئين منفصلين ، تعد بنصر الروم من ناحية أولى ، وهذا ما أجمع عليه المفسرون دون خلاف ، وتعد بنصر الإسلام وفرح المسلمين بنصره بعد سنوات من ناحية ثانية ، وهذا ما اهتدى إليه الدكتور عبد الوهاب عزام ، ولابد أن نقدم لرأيه بتمهيد يجلوه أتم جلاء .

نعلم أن الدولة الفارسية قد اشتبكت مع الدولة الرومانية فى حرب طاحنة منذ مئات السنوات قبل الإسلام ، وكانت الحرب سجالا بين الفريقين قبيل البعثة النبوية الكريمة حتى ولى فارس كسرى برويز حفيد كسرى أنو شروان ، وكان داهية جباراً عميق التدبير ، فأخذ يرسم الخطط الماكرة لدحر الرومان ، فتوالت انتصاراته فى آسيا الصغرى والجزيرة وشمالى الشام دون أن يتمكن الروم من صد هجماته ، وقد استولى على دمشق سنة ٦١٤ م وانتقل منها إلى بيت المقدس ، وأخذ الصليب الذى يزعم المسيحيون أن عيسى قد صلب عليه : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

وكتب برويز إلى هرقل ملك الروم خطاباً بدأه بقوله : (من كسرى رب الأرباب إلى عبده الحقير هرقل) ، ثم جعل يوبخه بما يبعث الغيظ والكمد فى نفسه ، وامتد بغزوه إلى مصر ، وصمم على فتح القسطنطينية ، وكاد صاحب روما يتنازل عن العرش حيث لا طاقة له بقوة صاحبه ، لولا ارتماء القساوسة على قدميه متوسلين ، وجاءت هذه الأنباء إلى مكة والفرس فى أوج انتصارهم ، بحيث لا يظن ظانّ أن مدهم الظافر سيقف عند حد ، وكان من يتوقع انتصار الروم فى هذه الفضيحة المدمرة ، وقد عزم قائدهم على الهروب من الميدان ، يعد من أرباب الشطحات المخرفة والخيالات الموهومة فى رأى المتأملين .

فى هذا الوقت نسى أو تناسى كفار مكة علائقهم الوشيجة بالروم وأخذوا يتهكمون بهم ، ويمجدون أتباع الوثنية ، غير مصدقين بأن الحرب سجال .

وكثر الكلام حتى نزل القرآن الكريم يعلن أن الروم المنهزمين الآن سينتصرون فى بضع سنين ، وكان الأمر بالنسبة إلى المسلمين يقيناً لا شك فيه ، ولكنه لدى المشركين أضحوكة هازلة تدعو إلى السخرية .

وإذا كان أبو بكر رضى الله عنه ــ دائماً ــ أول من يصدق أخبار السماء دون أن تأخذه أدنى ريبة ، فقد جاهر الملأ من قريش بتصديقه لما سيكون من أمر الروم بعد بضع سنين ، وتسرع أمية بن خلف فأراد التحدى بالرهان ، وكان يومئذ مباحاً لم يحرمه الإسلام ، وقد اختلف فى عدد النياق ، فقيل : إنها أربع ، وقيل : إنها خمس ، ولكن المتفق عليه أن الرهان قد وقع بالفعل ، وقد امتد إلى تسع سنوات ، وفيها تمت الهزيمة للفرس وتحقق وعد الله .

وإلى هنا والحديث معروف مكرر يردده المفسرون دون أن يتعدوه ، إذ يرون المراد بنصر الله هو انتصار الروم على الفرس ، ولكن

الدكتور عزام رحمه الله يأتى برأيه الجديد ، فيقول فى العدد (٧٢٣) من الرسالة : « فى هذه الآية إخبار بأن المؤمنين سيفرحون بنصر الله حينما يغلب الروم الفرس ، فهل نصر الله الذى سيفرح به المؤمنون هو انتصار الروم ؟ هذا بعيد ، وما للمؤمنين يفرحون بانتصار الروم وهم عدو لهم كسائر أمم الأرض التى كرهت دين الإسلام حفاظاً على تراثها ، ثم إن الآية تقول : « وعد الله لا يخلف الله وعده » ، فهل هو وعد الله المسلمين أن ينتصر الروم ؟ بعيد كل البعد أن يقال : إن المسلمين يفرحون بانتصار الروم وقد وعدهم الله هذا النصر ، إنما الوعد لمن يعود إليه الخير من الواعد ، ولم يكن للمسلمين فى انتصار الروم خير

ثم يقول الدكتور : « رجحت من قبل أن هزيمة الروم التى اهتم بها العرب حين نزلت الآيات وقعت حوالى سنة ٦١٥ ، فالنصر الذى يفرح به المسلمون حين يغلب الروم فى بضع سنين من هذه الهزيمة هو انتصارهم فى وقعة بدر فى السنة الثانية من الهجرة ، أى سنة ٦٢٤ من الميلاد ، وبين ٦١٥ م و ٦٢٤ بضع سنين » .

ومعنى ذلك كله أن الله عز وجل قد وعد بشيئين فى الآية الكريمة لا بشىء واحد ، أما الشىء الأول فهو انتصار الروم ، وقد جاء فى قوله تعالى : « وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » ، وأما الثانى فهو انتصار المسلمين — الذى هو نصر الله فعلا بمعناه الحقيقى — وقد جاء فى قوله : « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء » ، ومعناه الواضح هو هذا : حين يتحقق نصر الروم سيتحقق لكم أيها المسلمون انتصار تفرحون به ، وقد وعدكم الله بذلك ، ولا يخلف الله وعده .

ولهذا الكلام ما يؤيده ويقويه ، لأن نصر الروم حينئذ — وهم أرباب طغيان وجبروت وعسف بالأمم والشعوب ، واستغلال لجهود الضعفاء ، وتسخير للرعايا فى الأهوال والمشاق — لا يمكن أن يكون

نصر الله الذى وعد به المسلمين وعداً لا يخلفه ، إنما الوعد الربانى هو للفئة المجاهدة فى سبيل الله ، الداعية إلى التحرير والعدالة والمساواة ، يؤكد ذلك أن الرسول قد اضطر فى حياته إلى محاربة الروم حين أرسل الجيوش إلى مؤتة فى وقت كان هرقل وحده حاكم الدنيا المنتصر على فارس ! وقد دحر كسرى فثار عليه أتباعه وقتلوه .

ثم يقول الدكتور عزام رحمه الله : « وعد الله لا يخلف الله وعده » هذا هو الوعد الذى فى قوله : « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » وهو مطابق لوعد الله العام ، وسنته الدائمة فى أن ينصر المؤمنين ، ويؤيد المجاهدين ، ويمكن الصالحين .

« وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فى الْأَرْضِ ، كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِى ، لَايُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ». وقوله : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ » . وقوله : « الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » .

هذا ما جلاه الدكتور عزام ، وهو ما جاء المتحدث الإذاعى ليعرضه ناسباً إياه لنفسه ، وهى مناسبة بعثت إلى إحيائه وعرضه على من لم يكن سمعه فى دار الحكمة أو قرأه فى مجلة الرسالة ، وقد تكون هناك من الاعتراضات لدى بعض الدارسين ما يعرض وجهة نظر مقابلة ، فالحقيقة بنت البحث كما يقال ، ولكن نسبة الآراء لغير أصحابها مما يؤلم ويشين ، وماذا بعد الحق إلا الضلال .

من الابتهالات الدينية

● أعرف أستاذاً كبيراً ، غزير المعرفة ، نافذ البصر ، قوى الملاحظة تحدث إلىّ فيما يود أن يقرأ فى ساعات صفائه ، فقال : إنه يطمح إلى تلاوة نوع من الأدعية البليغة ، تكون مناجاة ضارعة يتقدم بها بين يدى ربه ، إذ أنه قرأ كثيراً من الابتهالات الذائعة ، فوجدها تعبر عن أحاسيس البسطاء وقد كتبت بلغة أقرب إلى الضعف منها إلى القوة ، فهى لا تهزه وجدانياً كما تهز من يحفظونها من عامة الناس ، لذلك يتجه بالبحث عن ابتهالات ذات روعة ونفاذ .

● قلت : إن الذين يضعون الأدعية الدينية يعلمون أن العامة من المسلمين يجدون فيها تنفيساً عن أشواقهم ومواجدهم ، ولن تصادف موقعها من هؤلاء إلا إذا كتبت بلغة سهلة ، وتضمنت عواطف واضحة وحفلت بخواطر وثيقة الصلة بأحاسيسهم الصريحة ؛ فما تريده أنت من بلاغة النسج ، وعمق النظرة ، لا يجد مكانه من قبول الكثرة الداعية ؛ فإذا شئت لك ابتهالا لا يخضع لمثلك الأدبية ، فحاول أن تضع له أنموذجاً من بيانك فتستريح .

● قال صاحبى فى تواضع : لا أريد أن تفهم عنى جنوحاً إلى الترفع أو المباهاة ، فيعلم الله أن هذا الترفع من أمقت ما أكره من الصفات ، ولكن مناخى العقلى وأفقى الروحى يأبيان علىّ كلاماً ألمح فيه جوانب الضعف الأدبى ، وأنا بحاجة إلى ابتهال بيانى يشبع نوازعى ويرضى أشواقى ، أنا مثلا مسلم واع ذو ثقافة متسعة ، وأجد لدىّ جنوحاً إلى قراءة الإسلاميات فى كل اتجاه من تشريع وسيرة وعقيدة وتاريخ ،

وتراجم ، وما أكثر ما كتب فى هذه الحقول المترامية الفيحاء ، ولكن نمطاً خاصاً من الكتابة الإسلامية يملأ عقلى نوراً وقلبى نفاذاً وبصيرة ! ذلك النمط أجده لدى القمم الفكرية من أمثال عباس محمود العقاد ، أفلوم أنا إن أعرضت عن ذوى السطحية الهينة وعشقت ذوى الأعماق والأغوار !

● قلت : كلا يا أخى ، فكل ميسر لما خلق له ، وإذا كنت تنشد نفاذ البصيرة فى الابتهالات والنصاعة البليغة فى الأدعية فإن حاجتك لدى أبى حيان التوحيدى .

● أشرق وجه محدثى ، وكأنى ذكرته بعزيز أثير لدى عقله وروحه ، فطفق يقول : إذا كتب أبو حيان فى الابتهالات الدينية فما أظن كاتباً عربياً فى عصره الزاخر بالأعلام يدنو من مستواه ، لقد كان الرجل زعيم الفكر العربى فى عصره ، ولكنه كان مجحود النعمة ، محسود الموهبة ، فلقى من محن العداوة ، وغطرسة التكبر ، واستعلاء الأدعياء ما صيَّر حياته جحيماً لا يطاق .

● قلت : وذلك السر الأول فى روعة ابتهالاته وقوة أدعيته . لقد سدت عليه منافذ الأرض فاتجه إلى أبواب الرحمة فى السماء ! ما ظنك بأكبر مفكر فى عصره ، تسد فى وجهه أبواب الرزق ، وتقام دون ضروریاته الحوائل ، حتى يصرخ من أعماقه قائلا فى فزع الحائر ولهفة المستجير :

« لقد فقدت كل مؤنس وصاحب ، ومرافق ومشفق ، والله لربما صليت فى الجامع فلا أرى إلى جانبى من يصلى معى ، فإذا اتفق فبقال أو عصّار أو نداف أوقصاب ، ومن إذا وقف إلى جانبى أسدرنى بصنانه ، وأسكرنى بنتنه ، فقد أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ،

غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوحدة ، ملازماً للحيرة ، محتملا للأذى ، يائساً من جميع من ترى . ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطى الرياء والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم » .

● قلت ذلك واستشعرت ذلة النابغة المضطهد ، فوجمت ، وشملنى اكتئاب لحظه محدثى ، فأراد أن ينقلنى من حالة إلى حالة ، فقال : ألا تحضر لنا شيئاً من ابتهالاته إذ كانت فاتحة الحديث ومدار النقاش .

وكأن كلامه قد حرك نشاطى ، ودفعنى إلى أن أسرع بإحضار « الإشارات الإلهية » للنابغة البائس ، وأن أقرأ منه كما اتفق قوله :

« اللهم إنا نسألك ما يسأل ، لا عن ثقة ببياض وجوهنا عندك وأفعالنا معك ، وسوالف إحساننا قبلك ، ولكن عن ثقة بكرمك الفائض ، وطمعاً فى رحمتك الواسعة ، نعم وعن توحيد لا يشوبه إشراك ، ومعرفة لا يخالطها إنكار ، وإن كانت أعمارنا قاصرة عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة ، نسألك ألا ترد علينا هذه الثقة بك ، فتشمت بنا من لم يكن له هذه الوسيلة إليك ، يا حافظ الأسرار ، ويا مسبل الأستار ، ويا واهب الأعمار ، ويا منشئ الأخبار ، ويا مولج الليل فى النهار ، عد علينا بصفحك عن زلاتنا ، وأنعشنا عند تتابع صرعاتنا ، وحطة حالنا معك فى اختلاف سكراتنا وصحواتنا ، وكن لنا وإن لم نكن لأنفسنا لأنك أولى بنا ، وإذا خفنا منك فأبرح خوفنا برجائنا فيك ، وإذا غلب علينا يأسنا منك فتلقه بأمل فيك » .

إلى أن يقول فى حرارة عاطفة وقوة إيمان :

« حرام على قلب استنار بنور الله أن يفكر فى غير عظمة الله ، حرام على لسان تعوّد ذكر الله أن يذكر غير الله ، حرام على نفس طهرت من أدناس الدنيا أن تدنس بشىء من مخالفة ، حرام على عين نظرت إلى مملكة الله أن تحدق إلى غير الله ، حرام على كبد ابتلت بالثقة بالله أن تظمأ إلى غير الله ، حرام على من لم ير الخير إلا من الله أن يجدد طمعاً فى غير الله ، حرام على من تلذذ بمناجاة الله أن يناجى غير الله ، حرام على من وقع فى فقه الله أن يعبد غير الله »[1] .

● طرب الأستاذ لما سمع طرباً أمتع عقله وملأ وجدانه ، فقال : إنه ينشد أمثال هذه الروائع ؛ إذ جمعت مع نضارة البيان قوة الفكرة ، وحرارة العاطفة ، والتوجه بالسؤال عن ثقة بكرم الله لا ثقة بمنزلة الداعى تفريق بين وجهين مختلفين ، والخوف من رد هذه الثقة مجلية لشماتة قاسية يأباها المبتهل ، وقوله : « كن لنا وإن لم نكن لأنفسنا ؛ لأنك أولى بنا » اعتراف نفسى جدير بالقبول ، أما هذا التكرار المشبع فى قوله : حرام حرام حرام ، على اختلاف مدار المعانى ، وتنوع مجال الخواطر ، فمن أنفس ما تشرئب له نفس المؤمن المبتهل اشرئباباً يريح من برح سعيره ، ويهدئ من لواهب خوفه ، ويمد أمامه بساط الأمل مخضوضر الجناب ، عبق الرحاب !

● سمعت هذا التحليل الكاشف من الأستاذ فدفعنى إلى أن أقول : إن صاحب هذه الابتهالات الحارة قد رمى بالزندقة وصيغت حوله الأراجيف ، وما ارتاح بعد وفاته من مذمة اللائمين ، إذ ظلت هذه التهمة تتقاذف سمعته على ألسنة أعلام كبار ساعدوا على إذكاء الضرام وامتداد الحريق ، فما تقول فى ذلك ؟

---

(١) رجعت إلى كتاب الأستاذ الدكتور الحوفى عند كتابة هذا النص ، إذ لم أجد الإشارات ساعتئذ .

● قال صاحبي متئداً : إن الاتهام بالزندقة إن جاز لأحد أن يفتريه في القديم كي تصدقه العامة دون تمحيص ، فما يجوز الآن أن يوجه إلى متدين ورع زاهد كأبي حيان ، والدليل على ذلك صريح لا يحتمل اللبس ، فقد قرأنا من كتبه العدد الكثير فلم نجد في سطر واحد ما يؤخذ عليه ، بل وجدنا دفاعاً حاراً عن العقيدة ، ودعوة طيبة إلى أسمى الفضائل ، وولوعاً بالمثل العليا في العلم والسياسة والسلوك . أيكون الرجل زنديقاً ثم يكتب هذه الروائع الخالدة في باب الابتهال ؟ أيكون الرجل زنديقاً ثم تكون له هذه الحرارة المتقدة في الدفاع عن المثل العليا ومكارم الأخلاق ؟ أيكون الرجل زنديقاً ثم لا تند منه فيما أثر من مؤلفاته كلمة مريبة ، أو غمزة مشبوهة ؟

إن كتب الرجل دليل قلبه ، ومفتاح شعوره ، وثمار تفكيره ؛ فإذا نطق أجمل النطق وأفصحه بما ينبئ عن إيمان القلب ، وطهارة الشعور ، واستواء التفكير ، فذلك كله صباح ينسخ ما تجمع من ظلام ، وشمس تبدد غواشي الضباب !

ثم استطرد يقول :

قد يكون أبو حيان — وفي كتاب المقابسات بنوع خاص — قد تعرض إلى سرد بعض الأقوال الفلسفية الشاذة التي تدور حول الكون والطبيعة والمبدأ والمآل ، ولكن هذه الآراء ليست له ولم تذكر عن وحيه ، بل إنها تنسب لأصحابها ليرد عليها الكاتب أو من يجمعهم المجلس العلمي من أساتذة أبي حيان وزملائه ، وليس شيء في أن تذكر رأي المعارض ثم تكر عليه بالدليل ، وهذا القرآن الكريم موضع القدوة ومناط الاحتذاء قد ذكر آراء المشركين والدهريين والضالين ليرد عليها بأقوم حجة وأنصع بيان ، ولكن أعداء أبي حيان قد عز عليهم أن

يسبقهم فى غزارة المادة ورصانة التفكير وعلو التحليق وبعد الغوص، فما استطاعوا أن يسابقوه فى مضماره الأدبى السامق ، فهبوا ينسجون الأراجيف .

لقد كنت أتمنى أن يفرغ قلم كقلم أبى حيان لصياغة أبواب التشريع بما عرف من اقتداره وغوصه وارتفاعه واتساع أقطاره ! فيكون لنا منه أدب حى مستنير ، يقرأ كما تقرأ أرفع النماذج الأدبية بياناً ، وأقواها تعبيراً ، لقد قرأت له كلاماً عن تحريم الخمر نسبه إلى غيره كعادته ، مع أن الصياغة صياغته ، والحوك حوكه ، لا يمترى فى ذلك عارفو طريقته ، ورواد منهله ! قرأت حديثه عن تحريم الخمر فتمنيت لو أتيح للرجل أن يكتب فى أبواب التشريع بهذه الجهارة الجهيرة ، وهذا الرسوخ المتمكن ، وذلك التحاليل الآسر المبين، لقد قال أبو حيان فيما قال فى ذلك ، وإنى لأحفظ حفظاً ، فما تند عنى منه لفظة تغيب .

● قال أبو حيان والصوغ له وإن نسبه إلى أبى سعيد :

« اعلم أنه لو كان المسكر حلالا فى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان يجب على العاقل رفضه بحجة العقل والاستحسان ، فإن شاربه محمول على كل معصية ، ومدفوع إلى كل بليّة ، ومذموم عند كل ذى عقل ومروءة ، يحيله عن مراتب العقلاء والفضلاء ويجعله من جملة السفهاء ، ومع ذلك فيضر بالدماغ والعقل والكبد والذهن ، ويولد القروح فى الجوف ، ويسلب شاربه ثوب الصلاح والمروءة والمهابة ، حتى يصير بمنزلة المخبط المخريق ، يقول بغير فهم ، ويأمر بغير علم ، ويضحك من غير عجب ، ويبكى من غير سبب ، يخضع لعدوه ، ويصول على وليه ، ويمنع من يستحق الصلة ، ويبتذر فى الموضع الذى يستحق فيه أن يمسك ، ويمسك فى الموضع الذى يستحق

فيه أن يبـدر ، يصير حامده ذاماً ، وأفعاله ملاماً ، عبده لا يوقره ، وأهله لا تقربه ، وولده يهرب منه ، وأخوه يفزع عنه ، يتمرغ فى قيئـه ، ويتقلب فى سلحه ، ويبول فى ثيابه ، وربما قتل قريبه ، وشتم نسيبه ، وطلق امرأته ، وكسر آلة البيت ، ولفظ بالخنى ، وقال كل غليظة وفحش ، يدعو عليه جاره ويزرى به أصحابه ، عند الله ملوم ، وعند الناس مذموم ، وربمـا تستوى عليه فى حال سكره مخايل الهموم فيبكى دماء ويشق جيبـه حزناً ، وينسى القريب ويتذكر البعيـد ، والصبيان يضحكون منه ، والنسوان يفتعلن النوادر عليه ، ومع ذلك فبعيد من الله ، قريب من الشيطان ، قد خالف الرحمن فى طاعة الشيطان ، وتمكن من ناصيته ، وزين فى عينه إتيان الكبائر ، وركوب الفواحش ، واستحلال الحرام ، وإضاعة الصلاة ، والحنث فى الأيمـان ، سوى ما يحـل به عنـد الإفاقة من الندامـة ، ويستوجب من عـذاب الله يوم القيامة » .

● هذه قطرات من صَيِّب ! وليت شعرى أى أدب فقهى تدخر لدينا كنوزه لو كان أبو حيان قد فرغ إلى إيضاح العلل وتشريح المسائل ، وتعليل الأحكام ، وفلسفة البراهين !

● قلت : إن الدعوة إلى قراءة كتب أبى حيان واجب أدبى ، والتزام فكرى ، وسبيل إلى كتابة دينية حية ، تغوص ما تغوص ، لتأتى بأبدع الفوائد ، وأنفس الأعلاق .

ابن رشد بين الفلسفة والفقه الاسلامى

— ١ —

● حارب الغزالى الفلسفة بضراوة عنيفة ، حيث كان رجلا ألمعى النظر ، شديد العارضة ، وقد ظهر فى عصر كانت فيه الفلسفة عضداً ركيناً لعلم الكلام ، يعتمد عليها فى البرهنة والتعليل ، ويتخذ من قضاياها وسيلة الإقناع والإفهام ، حتى تكدرت موارده بما التصق به من شوائب السفسطة والتخيل ، والإحالة ؛ ولأمر ما كره الغزالى طريقة المتكلمين من ذوى الجدل المنطقى ، ورأى الفلسفة داءهم القاتل ؛ فنشط لدراستها دراسة ناقة ، ثم تفرغ لكتابة مؤلفه « تهافت الفلاسفة » لينص على أن منهم من جحد الصانع ، وقال بقدم العالم ، وهم الدهريون ، والزنادقة ، ومنهم من أنكروا البعث بما يتبع من ثواب وعقاب ، وهم أيضاً ملاحدة يتزندقون . أما الفلاسفة الإلهيون ، فمنهم أولو الرياضيات وذوو المنطقيات وأصحاب الطبيعيات والإلهيات ، ولا يبعد حديثهم جميعاً عن الآفات العقلية ، والعاهات النفسية ؛ مما يقذف بالشكوك إلى النفوس فلا تستريح . وأفضل طريقة للهداية فى رأيه هى طريقة التصوف التى تبعث بالنور عن صفاء القلب ، واطمئنان الروح ، إذ أن الحقائق فى منطق الغزالى لا تنكشف بنظم الكلام وترتيب الدليل ، بل بنور يقذفه الله تعالى فى الصدر « فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة » .

● وقد كان لحجة الإسلام نفوذه الكبير فى عالم الحنيفية ، فانصرف المسلمون فى الشرق عن الفلسفة وفترت العناية بمسائل الطبيعة ، ولكن

مسلمى المغرب لم يعدموا رجالا كابن زهر وابن طفيل وابن رشد ، ينافحون عن الفلسفة بما يملكون من حجاج ، وكان ابن رشد أقوى من تصدى إلى الغزالى ، فوضع كتاب « تهافت التهافت » ليرد به على « تهافت الفلاسفة » ، فيؤكد أن أبا حامد لم يفض فى كتابه إلى بيان الحق فيما استحر فيه الخلاف بين الفلاسفة والمتكلمين ، بل سلك مسلك السفسطة فى التماس أوجه التضارب بين الأدلة ، كما أنه أخل بفهم الفلسفة حين اقتصر على كتب ابن سينا وحده . وكان ابن رشد حاسماً صريحاً حين واجه الغزالى بقوله :

« وأما قوله : إن قصده من (كتاب التهافت) ليس هو معرفة الحق وإنما قصده إبطال أقاويلهم وإظهار دعاويهم الباطلة ، فقصد لا يليق به ، بل بالذين فى غاية الشر ، وكيف لا يكون ذلك كذلك ومعظم ما استفاد هذا الرجل من النباهة ، وفاق الناس به فيما وضع من الكتب ، إنما استفاده من كتب الفلاسفة وتعاليمهم . وهبهم أخطأوا فى شىء فليس من الواجب أن ينكر فضلهم فى النظر ، وما راضوا به العقول ، ولو لم يكن لهم إلا صناعة المنطق لكان واجباً عليه وعلى جميع من عرف مقدار هذه الصناعة شكرهم عليها ... أفيجوز لمن استفاد من كتبهم وتعاليمهم مقدار ما استفاد هو منها حتى فاق أهل زمانه ، وعظم فى ملة الإسلام صيته وذكره أن يقول فيهم هذا القول ، وأن يصرح بذمهم على الإطلاق » .

● وبعد أن اعترف ابن رشد بخطإ بعض الفلاسفة فى أشياء من العلوم الإلهية ذكر أن هذا الخطأ لا يتضح لنا إلا بقوانينهم المنطقية وأقيستهم العقلية ، ثم أخذ يتناول المسائل المختلف عليها بين المتكلمين والفلاسفة بالشرح والتفصيل تناولا يدركه من يقرأ « تهافت التهافت » ؛ إذ ليس

من سبيلنا اليوم أن نوازن بين التهافت ونقده ، إنما نريد أن نشير إلى دفاع ابن رشد عن الفلسفة كفيلسوف !

● لقد نشأ ابن رشد فى أسرة تشتهر بدراسة الفقه والتأليف فى مسائله ، كما تتولى أرفع مناصب التشريع حين تتسنم منصة القضاء لتصدر الأحكام الشرعية فى شئون الناس ، وكان جده ابن رشد المالكى أوحد زمانه فى الفقه ، وتوجد مجموعة فتاويه فى كتاب خطى كبير ، وقد سفر للسلطان فى المغرب سفارة ناجحة ، وترك كتابى : المقدمات ، والبيان والتحصيل فى الفقه المالكى ، بحيث صار أحد الأقطاب الأربعة من أئمة المالكيين فى القطر الأندلسى مع الدين والفضل والوقار والحلم ، كما أجمع على ذلك مؤرخوه من أمثال : الضبى وابن بشكوال وابن فرحون .

هكذا كان الجد ، ونسل من بعده الأب ، فشارك والده الفتيا وتولى قضاء الجماعة مكانه ، وحافظ على مجد الأسرة الفقهى ليسلمه إلى ابن رشد الحفيد فيلسوفنا الكبير الذى برع فى الفلسفة والفقه على حد سواء ، ولكن شهرته الفلسفية قد طغت على مجده الفقهى ؛ فكان ذلك ضيماً كبيراً لكل من اشتغل بناحيتين مختلفتين من نواحى النظر الذهنى ، فطغت إحداهما على الأخرى ، لا لقصور فى الثانية وكمال فى الأولى ، بل لتوفيق فى الشهرة رجح بناحية ، وشال بناحية ؛ فقد ذكر مترجمو ابن رشد الحفيد أنه درس الفقه والأصول وعلم اللغة والكلام والأدب على أئمة عصره ، إذ أخذ ذلك كله عن أبيه قاضى الجماعة ، وعن ابن مروان وابن ميسرة وأبى بكر بن سمحون وكان شعلة لاتخمد فى القراءة والبحث ، حتى ليروى ابن الأبار عنه : « أنه لم يدع النظر ولا القراءة منذ عقل إلا ليلة وفاة أبيه وليلة بنائه على أهله ، وأنه سوّد فيما صنف وقيد وألف وهذب نحواً من عشرة آلاف ورقة !

وكان على شرفه أشد الناس تواضعاً ، وأخفضهم جناحاً ، وقد تأثلت له عند الملوك وجاهة عظيمة لم يصرفها فى ترفيع حال ، ولا جمع مال ؛ إنما قصرها على مصالح أهل بلده خاصة ، ومصالح أهل الأندلس بعامة » .

● وإذا كان هذا الحفيد قد شارك فى بناء المجد الفقهى لأسرته حين تولى منصب قاضى الجماعة مكان أبيه وجده ، وحين ترك المؤلفات الفقهية ذات النفع العلمى المؤكد ، فإنه يفسح لنا مجال التساؤل عن صلة الفقه بالفلسفة فى حياته ، وكيف استطاع أن يشرق فى سماء أفقين يظهران فى مرآة بعض الناس كالمتقابلين ؛ إذ أن عداء الفقهاء للفلاسفة مما ظهرت بوادره فى عصر الترجمة الأول للعهد العباسى ، ومما اندلع شراره بعد هجوم الغزالى الفقيه على الفلسفة والمتفلسفين ؛ كيف اهتدى الفقيه إلى الفلسفة ، أو كيف اهتدى الفيلسوف إلى الفقه ؟

● هذا سؤال دقيق يحاول من يسبر شخصية ابن رشد الحفيد أن يجيب عليه بما يستطيع ، وقد حاول الدكتور أحمد أمين فى الجزء الثالث من (ظهر الإسلام) أن يسفر عنه النقاب حين قال (ص ٢٤٥ ط ٣) :

« والذى يلاحظ أنه كان من مداخل الفلسفة الفقه لسببين .

الأول : أن الفقه والاشتغال به والبحث عن استنباط الأحكام يعلم العمق ، ودراسة الفلسفة دراسة عميقة .

والثانى : أن الفلسفة لما كانت مكروهة فى الأوساط الشعبية الأندلسية كان الفقه شعاراً يتخذه الفلاسفة حتى لا يرموا بالزندقة » .

● وفى رأيى أن التعليل الثانى لا ينهض فى قضية ابن رشد : لأننا نعرف من تاريخه أنه درس الفقه لأول عهده على أيدى معاصريه حتى برع فيه براعة جعلته يتصدر الفقهاء عن جدارة ويقوم بمنصب قاضى

القضاة ، فيراجع الفتوى ، ويناقش الأحكام بما يخلع الهيبة على نفوس مرءوسيه من القضاة ، وقد ألف فى الفقه قبل أن يؤلف فى الفلسفة ، فلو كان الفقه شعاراً يتخذه ابن رشد ليتستر به حين يخوض البحث الفلسفى لكان اتجاهه الفلسفى سابقاً اتجاهه الفقهى ، ولكن الأمر على عكس ما تصور الدكتور أحمد أمين ، أما القول بأن دراسة الفقه تعلم العمق الذى تنشده الفلسفة ، وتصدر عنه فى البحث والاستنباط ، فذلك مالا ينكره باحث ؛ إذ أن ارتكاز الفقه الإسلامى على علم الأصول قد أورث الفقهاء فى الإسلام من دقة النظر ، وسلامه الاستنباط ، وجودة القياس ، ما يذكر لهم بالتقدير ، وأذكر أن فقيد الفكر الإسلامى الأستاذ مصطفى عبد الرازق — رحمه الله — قد جعل علمى الأصول والكلام دليل العبقرية الإسلامية فى الفلسفة الدينية المستقلة عن تأثير اليونان الفلسفى ؛ إذ أصدر كتابه المعروف بالتمهيد لدراسة الفلسفة الإسلامية ، ليعلن أن الفلسفة الإسلامية لا تلتمس فيما كتب ابن سينا والفارابى وابن رشد ، بل تلتمس فيما وضع علماء الإسلام من الأصول الفقهية والقضايا الكلامية ، لأن ابن سينا ومن تابعه قد نقلوا فلسفة الإغريق كما ذكرها أصحابها الأوائل مع زيادات يسيرة فى الشرح والتحليل ، أما علماء الأصول ورجال الكلام فقد أسسوا آراء إسلامية تجد جذورها فى التراث الإسلامى الخالص ، فهم لذلك جديرون أن يكونوا فلاسفة الإسلام !

● وإذا فات ابن رشد أن يكون فيلسوفاً أصيلا فيما نقل عن أرسطو ، فإنه فى منطق الأستاذ مصطفى عبد الرازق فيلسوف بكتابه الفقهى الشهير « بداية المجتهد » الذى سنلم بمضمونه عن قريب .

● ونشأة ابن رشد الدينية هى التى جعلته يفكر تفكيراً ملحاً فى الصلة القوية بين الفلسفة والشريعة ، فهو كفقيه إسلامى كبير يؤمن بالشريعة

المحمدية صحة نظر ، وصدق استدلال ، وجزالة نفع ، وهو كفيلسوف مفكر يؤمن بحرية العقل ، وسلامة المنطق ، وجودة القياس ، ويرى أن طريق الفقه فى حقيقة الأمر لا يتناقض مع النظر الفلسفى فى شيء ، وما يبدو للوهلة الأولى من التعاوض الظاهر لايعدم طريق التوافق الموصل إلى الاطمئنان النفسى لدى عشاق النظر الصائب ، وقد أصبحت المسألة فى حاجة إلى استدلال كاشف بعد أن جاهر الغزالى بعداوة الفلسفة ، ورأى فى أهلها مطايا تخب براكبيها إلى الزندقة والإلحاد !

● لقد كانت هذه المسألة شغل ابن رشد الشاغل فى أكثر أدوار حياته ؛ إذ تعرض لها فى ثلاثة كتب من مؤلفاته ، والكاتب لايثنى ولا يثلث بالحديث فى موضوع واحد إلا إذا استشعر خطره الداهم ، ورأى من الضرورى جلاء الصواب فى أمره ، وهل كانت كتب ابن رشد :

١ ــ تهافت التهافت .

٢ ــ وفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال .

٣ ــ والكشف عن مناهج الأدلة .

هل كانت هذه الكتب الثلاثة إلا محاولة للاطمئنان النفسى ونوعاً من الانسجام الضرورى بين ثقافات تتلاطم فى عقل الرجل الكبير ، يراها الناس تتضارب وتتشاجر ، ويراها بمجهره تتوافق وتتلاقى ، ولا خير فيه إذا سكت عما يرى ، بل لابد أن يفصح للناس عن مكنونه بتسطير ما يهدى إلى الصواب .

● ألح ابن رشد فى تأكيد صلة الشريعة بالفلسفة ؛ لأن النظر الفلسفى لا يخرج عن القياس المرادبه استنباط المجهول من المعلوم ، وهو ما دعا إليه الله تعالى حين قال : « قل انظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء » .

وإذا كان النظر العقلى واجباً يدعو إليه الشرع. ، فإننا ننظر إلى من قبلنا لنعلم أفحصوا عن هذا النظر الواجب أم سكتوا ؟ فإذا ثبت أنهم بحثوا مسائل النظر العقلى وجب علينا أن نستعين بهم فيما حاولوه واهتدوا إليه باحثين منقبين ، فما كان لديهم مما يوافق الحق فهو مقبول محترم ، وما كان لديهم مما لا يوافق الحق أشرنا إليه وعذرنا المخطئين ؛ إذ لم يهتدوا إليه .

وإذن ، فيكون النظر فى كتب القدماء واجباً شرعياً لا محيد عنه ، ومن نهى من كان أهلاً له عن النظر فيها فقد صد عن طريق يدعو إليه القرآن ، وإذا كان بعض الناس قد ضل بالنظر فى هذه الكتب فذلك لقصوره العقلى لا لفساد هذه الكتب ، ومن منع النظر فيها لذلك العارض فكمن يمنع الظمآن من الماء ؛ لأن قوماً قد شرقوا به فماتوا ، وكم من فقيه لم يتورع بفقهه فى سلوكه الدنيوى ، أفنمنع الناس — إذن — عن دراسة الفقه لضلال بعض الفقهاء ؟

● على أن من المقطوع به فى مذهب ابن رشد أن كل ما أدى إليه البرهان الصحيح لا يمكن أن يخالف ما جاء به الشرع الإسلامى الحنيف ، لأن الحق لا يضاد الحق ، بل يشهد له ويقوم به ، فإذا وجد بعض التعارض كان لابد من تأويل يتفق مع قواعد اللغة المسلم بها من الدارسين بأن يخرج الكلام من دلالته الحقيقية إلى دلالته المجازية لوجود بعض القرائن الواضحة ، وبهذا لا يصطدم العقل بالشرع ، وقد احتاط الفيلسوف فتساءل : أيجوز أن يؤدى البرهان إلى تأويل ما أجمعوا على ظاهره ، أو ظاهر ما أجمعوا على تأويله ؟ وذلك سؤال يتطلب إجابة شافية أوضحها ابن رشد بقوله الصريح :

« إنه لا يصح ذلك إذا ثبت الإجماع بطريق يقينى ، فإذا كان الإجماع ثابتاً بطريق ظنى فقد يصح » .

● وقد قسم المؤلف الناس إلى ثلاث طوائف : الخطابيون وهم الكثرة الغالبة ممن يكتفون بالإقناع السهل والأدلة الخطابية ، والمتكلمون الذين ارتفعوا حقاً عن العامة ولكنهم لم يصلوا لمرتبة أهل البرهان الحقيقى ، والبرهانيون وهم أهل النظر بطبائعهم المواتية وحكمتهم العميقة المتأصلة ، ذاهباً من وراء هذا التقسيم إلى أن الخطابيين والجدليين لابد لهم من الإيمان بظواهر النصوص دون تأويل ، أما العلماء من أهـــل البرهان الحقيقى فيدركون الخفى من المعانى بالتأويل ! وقد أنحى ابن رشد باللائمة على الغزالى وسائر المتكلمين من أشاعرة ومعتزلة ؛ لأنهم أثبتوا التأويل فى مؤلفاتهم ، فذاعت بين العامة ، وتركت بلبلة كثيرة فى العقول ، وأوقعوا الناس — وبخاصة المعتزلة — فى شنآن وتباغض وحروب .

● وإذا كان فى كلام الفيلسوف ما يكون موضع النقاش والتعقيب ، فقد أصاب الهدف حين قرر أن طريقة القرآن الكريم أفضل الطرق فى الإقناع والتدليل ، فمن حرّفها بتأويل لا يكون ظاهراً فى نفسه فقد أبطل حكمتها ، وعطل القصد منها فى إفادة السعادة الإنسانية ، وحاد عن طريقة السلف من الصدر الأول ؛ إذ أنهم صاروا إلى السعادة الوافية بترك التأويل ومن وقف منهم على تأويل لم يصرح به ، وما أتى الناس فى عقائدهم إلا من شطحات المتكلمين ، وتعسفاتهم المغرقة ، والجرى وراء أقيسة المعتزلة والأشاعرة الجافة الباردة النائية عن حرارة الإيمان ، وبرد اليقين .

● وقد وفق الدكتور أحمد أمين فى الإشـارة إلى طرق المفكرين من المسلمين فى موضوع « الشريعة والفلسفة » ؛ إذ ذكر أن منهم من حاول التوفيق بينهما بالتأويل فاشتط ، ومن رمى الفلسفة وحدها بالضـلال فصدر عن إيمان ، ومن رأى أن نلتزم بقواعد الفلسفة فى الطبيعيات والكيماويات وبقواعد الدين فى الإلهيات والغيبيات ، فلا تجور الفلسفة

على الدين فى شىء ! ثم رأى الدكتور الكبير ترجيح الرأى الأخير معقباً عليه بقوله :

« فلا حرج أن يدخل المسلم المسجد ليؤدى شعائر الدين كما وردت ، ثم يخرج منه إلى المعمل ليختبر المواد الطبيعية ، والنظريات العلمية » .

● وليس لنا من تعقيب على قول الدكتور أحمد أمين إلا أن نعلن أن الدين الإسلامى يدعو معتنقيه فى جلاء إلى النظر فى ملكوت السماوات والأرض ، وارتياد المعمل لاختبار المواد الطبيعية ، والنظريات الكيماوية ، لا بهدى من الفلسفة وحدها ، بل بردّ إلى منبعه الحقيقى من فيض القرآن الكريم !

● لقد أطلنا الحديث عن ابن رشد الفيلسوف ، وآن لنا أن نتحدث عن ابن رشد الفقيه .

— ٢ —

● كان للفقهاء فى دولة المرابطين التى تقدمت عهد ابن رشد الحفيد صولة ونفوذ ؛ إذ كانوا مستشارى يوسف بن تاشفين وأصحاب أمره . ولا غرابة فى ذلك ، فالرجل ذو منحى دينى يعتز به ، ويرى فى الفقهاء حفظة الدين وحراس الإسلام ، فهم أصحاب الفتوى ، وولاة القضاء ، ومفزع الناس إذ يلتمسون وجوه الهداية لما يرضى الله ، ولكن أكثر هؤلاء قد تشددوا تشدداً لايعرف التسامح ، فأحلوا قراءة بعض الكتب ، وحرموا قراءة بعضها ، دون رعاية لأبعاد النظر المختلفة فى ملة واحدة ، وكانت كتب الإمام الغزالى — على وجاهة قدره لدى أهل السنة — مما يحرمون ويقبحون ، لأنها فى نظرهم الضيق ملأى بالزندقة لتعرضها إلى مباحث علم الكلام على نحو لايرضى القوم ، وقد أغروا صاحب الأمر بها ؛ فاستمع إليهم ، وأصدر أمره بإحراقها ، ومعاقبة من

تثبت لديه قراءتها، والرجل حاكم حربى لا صلة له بشئون العلم ، فظن أن أقوال مستشاريه صواب لايتطرق إليه الخطأ ، واشتط مع الناس فى مرهقات مجحفة نزعت عنه رضا الصدور ، حتى عجلت بدولته فى فى سرعة قاهرة ، وقام على أنقاضها حكم الموحدين .

● وطبيعى أن يحدث العهد الجديد ما يخالف سابقه من الاتجاهات ، ففطن الموحدون إلى أثر الفقهاء فى التزمت الفكرى . وكان منهم ذوو البصر بالقراءة المستنيرة والمذاهب الفكرية من دينية وسياسية وفلسفية ، فافتتحوا عهداً زاخراً بالبحث الفكرى ، وأعادوا لكتب الإمام الغزالى حرمتها ، وتمكن الفيلسوف الكبير أبو بكر بن طفيل صاحب حيّ بن يقظان من الوجاهة والحظوة لدى الحاكمين حتى كان الصنى الأول لخليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن ، فاجتمعا على حبّ الفلسفة والنظر ، وشغلا كثيراً من الوقت فى حل المعضلات المذهبية ، ثم رأى ابن طفيل أن يقدم ابن رشد إلى الخليفة ، فحظى عنده ، وأظهر من دلائل النبوغ ما أحله الصدر بين رجال الدولة من عمليين ونظريين .

● وإذا كان من آفة المرابطين التزمت وضيق الصدر ، فإن من آفة الموحدين الاستعلاء والتباهى بالمعرفة ، وإضافة القيادة العلمية لأنفسهم ، وقد أكثروا القول فى جهل أسلافهم ورميهم بالأمية والجفاء ، ثم جنح بهم الترف العقلى إلى تحكم فى الرأى جعلهم ينتقدون المذهب الفقهى السائد لعهدهم ، وهو مذهب الإمام مالك رضى الله عنه ، ويرون فى أوجه الخلاف بين علمائه مطعناً ينفذون منه إلى التهجم على بعض مالا يرتضون من الآراء ، وكان المتوقع ممن يحبون الفلسفة ويصفون أنفسهم بالمعرفة الرحبة ، أن يكونوا ذوى صدور متسعة لما يتقابل من الأفكار ، وأولى عقول تعلم أن اختلاف الآراء فى المذاهب الفقهية مدعاة

يسر وتسهيل وباب رحمة للمسلمين ، كان المتوقع ذلك من هؤلاء ، ولكن عزة الحكم ألجأتهم إلى نوع من القسر لا يحمدون به حين تصدّروا للحكم على أئمة الفقهاء من السابقين ، ثم تورطوا فى نقد مخطئ لا يستقيم مع ذوى الرأى السديد ، وفى القصة التالية ما يشير إلى ضيقهم الكريه :

● ذكر صاحب المعجب عن أبى بكر بن الجد أحد كبار الفقهاء فى عصر الموحدين أنه قال :

« لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أول دخلة دخلتها عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس — أحد أعلام الفقه المالكى بالأندلس — فقال لى : يا أبا بكر ، أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة التى أحدثت فى دين الله ، أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ، فأى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيهما يجب أن يأخذ بها المقلّد؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك ، فقال لى — وقطع كلامى — : يا أبا بكر ليس إلا هذا ، وأشار إلى المصحف ، أو هذا ، وأشار إلى كتاب سنن أبى داود ، وكان عن يمينه ، ثم قال : أو السنيف » .

● فنحن نرى صاحب الأمر يفرض نفسه عالماً يناقش الآراء الفقهية ، ويرى فى اختلافها مدعاة فساد يقابل بالسيف ، ولكنه لم يفلح مع ذلك فى مقاومة الفقه المالكى ؛ إذ ظل فقهاء المذهب ورجال الأمة فى المغرب متمسكين بتعاليمه على ضيق منه ، وكانت فى ابن رشد شجاعة صارخة ، فعمد إلى التأليف الفقهى وأصدر كتابه « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » فى جزءين كبيرين ليثبت أن أوجه الخلاف فى المسألة الواحدة مما يتحمله النص القرآنى والحديث النبوى ، ولو كان الفيلسوف ضعيف النفس لجرى مع القوم فى منحاهم الفقهى ، ولكنه كان من الإيمان والترفع

بحيث صار الحق وجهته ، ولم يعدم هذه الشجاعة الأدبية البارعة حين تصدّى لمهاجمة الغزالى فى دولة الموحدين ، وهى التى أشادت بحجة الإسلام وقررت إباحة كتبه وإعادة نسخها وقراءتها وتدريسها بعد أن جاربها المرابطون !

● وإذا كنا نختلف مع الفيلسوف فى كثير مما قرر فلن نختلف قليلا فى تقدير شجاعته وإنصافه الرائع للفقه الإسلامى فى كتابه الحافل الجليل.

● بدأ ابن رشد كتابه بمقدمة شافية توضح الغرض من تأليفه وتدل على قدمه الراسخة فى علمى الأصول والفقه معاً ، فتحدث عن الطرق التى تهدى إلى الحكم الشرعى ، وفرق بين القياس الشرعى وغيره ، وحدد معنى الإجماع الأصولى ، وخاض بحوثاً دقيقة توضح مذهبه التأليفى ومنحاه الفقهى ، ليدل على أن اختلاف الآراء فى المذاهب مما يوجبه التيسير والتذليل ، وقد خالف الطريقة المتبعة فى التأليف الفقهى إلى منحى جديد من القول يبدأ فى كل فصل من فصول الكتاب بذكر العناصر التى سيعرض إلى دقائقها بالبحث ، ثم يثنى بذكر آراء الفقهاء والعلماء من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم من أئمة الفقه فى المسائل الخلافية مع إيجاز يتطلبه اليسر والرفق ، فقد كان الفقيه الفيلسوف قادراً على أن يجعل كتابه موسوعة كبيرة يحشد لها جل الآراء الفقهية من لدن رسول الله إلى عصره ، ولكن ذلك مما يعوق تداول الكتاب ويجعله وقفاً على خاصة الخاصة دون بقية رجال العلم ، وهو ما يتحاشاه صاحب الهدف المركز فى التبويب والتقريب ، وقد أحسن كل الإحسان فى بيان مناشئ الخلاف بين الفقهاء ، إذ يذكر الحكم متبوعاً بما يستند إليه من نصّ أو قياس أو إجماع أو مصلحة ، مرجّحاً ما يرتضيه من القول ، ومعتمداً على أهدى القواعد الأصولية بعيداً عن شذوذ الطفرة ولجاج الجدل ، وقارئه يشعر أنه أمام فقيه كبير بلغ مرتبة الاجتهاد ، وإذا لم

يكن لمثلى أن يرتقى إلى الحكم الصائب فى عمل أصولى فقهى كعمل ابن رشد ، فإنى أكل ذلك إلى عالم المغرب الكبير أستاذنا البحاثة عبد الله كنون، حيث أوضح ما نبتغى فى بحث مجمعى ألقاه فى مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة قال فيه :

« وأزعم أن ابن رشد فضلا عن تأثره كغيره بهذه الروح كان أيضاً متأثراً بثقافته المنطقية ومرانه على الجدل فى مقارنته للمذاهب وتخريجه للأقوال ، ولعل ذلك هو ما منعه من أن يكون متعصباً لهذا المذهب أو ذاك ، فإنه يناقش كل خلاف بروح رياضية نزيهة ، وإذا رجح فقهاً على فقه فإنه لا يبدى أى تنطع فى ذلك كما هى عادة فقهاء المذاهب، والغالب أن يرى الخلافات المذهبية ناشئة من يسر الشريعة ومرونة قواعدها ، فيجعلك تشعر بالاطمئنان لكل المذاهب وتلاشى الخلاف فيما بينها تلاشى الضباب بأشعة الشمس ، ولا يعنى هذا تنازله عن مالكيته وعدم قيامه بفقه المذهب كما يطلب من أحد أقطابه ، كلاّ ، فإنه أول ما يذكر مذهب إمامه ويزيد بذكر أقوال أعلامه المشهورين التى خالفوا فيها الإمام ومداركها ، ولا يقول فى مسألة من المسائل إنه لا يعرف حكمها فى المذهب كما يقول ذلك أحياناً فيما يتعلق ببعض المذاهب الأخرى ، مما يدل على تمكنه من معرفة مذهبه وتضلعه فى فقهه ، وهو يأخذ على المذهب مخالفته للأصول فى بعض المسائل ، وربما يعلل ذلك بعدم بلوغ النص إلى الإمام أو عدم صحته عنده ، وكثيراً ما يلاحظ مخالفة المذهب للقواعد التى بنى عليها ، واتخذها أساساً للحكم ، وله فى العمل الذى هو أصل من أصول مذهب الإمام مالك ، أعنى عمل أهل المدينة ، كلام ضمّنه كتابه « فى أصول الفقه » ، ولعله هو الذى لخصه فى كتابه « بداية المجتهد » عند الكلام على جمع الصلاة ، ورأيه فيه وسط ، يقبل ويرد بحسب المقامات » .

● هذا بعض ما أشار إليه العلامة الأستاذ عبد الله كنون فى بحث شاف قد اتسع لتسجيل آراء فقهية جديدة اهتدى إليها ابن رشد دون تقليد ، منتفعاً بمعلوماته الطبية والعلمية والفلكية فى الترجيح والتدليل ، وكتاب ابن رشد بتبويبه الدقيق يصلح أن يطالعه المعاصرون ، فيردوا أصفى الموارد بعيداً عن كدر المتون والحواشى والتقريرات التى اتبعت فى التأليف الفقهى لمدى متطاول طال ليله وغاب ضحاه ، كما أنه يرشد إلى النظر الصائب فى توجيه الاستدلال وصحة النظر وسلامة القياس ، مما يعلم التفكير الصحيح ، ويورث قارئ الفقه من البصر والدقة ما لا يتاح له عند قراءة كثير من الكتب ذات الحشود والنقود على وجه ترديدى يكتفى بالنقول المزدحمة والتخريجات المتعسفة ، مما يدركه الباحثون . ونستطيع أن ننقل عن البداية نصاً موجزاً يوحى بطريقة الرجل فى التأليف ، ولا يخلو من فائدة فقهية تتاح للقارئ دون عناء .

● جاء فى الجزء الثانى ص ٢٩٢ من البداية عن ميراث ذوى الأرحام ما نصّه :

« وأما المختلف فى إرثهم فهم ذوو الأرحام ، وهم من لا فرض لهم فى كتاب الله ولا هم عصبة ، فذهب مالك والشافعى وأكثر فقهاء الأمصار وزيد بن ثابت من الصحابة إلى أنه لا ميراث لهم ، وذهب سائر الصحابة وفقهاء العراق وجماعة من العلماء من سائر الآفاق إلى توريثهم ، والذين قالوا بتوريثهم اختلفوا فى صفة توريثهم ، فذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى توريثهم على ترتيب العصبات ، وذهب سائر من ورثهم إلى التنزيل ، وهو أن ينزل كل من أدلى منهم بذى سهم أو عصبيّته بمنزلة السبب الذى أدلى به ..

وعمدة مالك ومن قال بقوله أن الفرائض لما كانت لا مجال للقياس فيها كان الأصل ألا يثبت فيها شيء إلا بكتاب أو سنة أو إجماع . وجميع

ذلك معدوم فى هذه المسألة ، وأما الفرقة الثانية فزعموا أن دليلهم على ذلك من الكتاب والسنة والقياس ، أما الكتاب فقوله تعالى :

« وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » ، وأما السنة فاحتجوا بما أخرجه الترمذى عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى أبى عبيدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الله ورسوله مولى من لا مولى له ، والخال وارث من لا وارث له ، وأما من طريق المعنى فإن القدماء من أصحاب أبى حنيفة قالوا : إن ذوى الأرحام أولى من المسلمين لأنهم قد اجتمع لهم سببان : القرابة والإسلام ، فأشبهوا تقديم الأخ الشقيق على الأخ للأب ، أعنى أن من اجتمع له سببان أولى ممن له سبب واحد » . اهـ .

● فأنت ترى من هذا المثال الواحد أن ابن رشد الفقيه ، هو ابن رشد المنطقى فى صحة أدائه ، وترتيب قضاياه ، ووضوح لفظه ، ودقة استيعابه . لقد تعرض إلى توريث ذوى الأرحام فذكر أن الفقهاء فى شتى المذاهب ما بين مانع ومثبت ، فإذا كان مالك والشافعى وأكثر أصحاب الأمصار قد منعوا هذا الميراث ، فإن دليلهم أن كتاب الله عز وجل وسنة رسوله سكتا عن توريثهم ، فليس لهم أن يأخذوا شيئاً ، كما أن الإجماع لم ينعقد على هذا التوريث ، والفرائض لا قياس فيها ، فيجب أن نلتزم بالنص لا بالقياس . أما أبو حنيفة وأصحابه فقد ذهبوا إلى توريثهم بأدلة غير صريحة استنبطت من الكتاب والسنة والقياس ، وقد ساق الرجل أدلتهم فى وضوح كاشف لا لبس فيه ، ثم قرر طريقتهم فى الإرث ، إذ تكون على ترتيب العصبيات بأن « ينزل كل من أدلى منهم بذى سهم أو عُصْبَة بمنزلة السبب الذى أدلى به » .

● وتسألنى بعد ذلك عن رأى ابن رشد فى هذه المسألة ، وكأنك تتخيل أن الفقيه قد أدلى بآراء غيره دون أن يبين اتجاهه الخاص ، ولكن الواقع أن ابن رشد قد ارتضى وجهة نظر مالك والشافعى وزيد بن ثابت وأكثر فقهاء الأمصار فى منع التوريث ، لا لأنه مالكى يصدر عن مذهب مالك ، فكثيراً ما يخالف المذهب دون تردد حين يرى الحق فى غيره ، ولكن لما يفصح عنه قوله : وأما الفرقة الثانية « فزعموا » ، لأن الزعم مما لا يصل إلى اليقين ، وما كان الرجل ليصل إلى أبعد من ذلك فى توهين رأى لا يرتضيه .

● وإذا أخذ على كتاب البداية أنه قد تخطئه الدقة فى نسبة قول إلى صاحبه ، فذلك ما لم يسلم منه كبير أو صغير ؛ إذ أن الكمال لله لا لسواه ، أما ما قيل من أنه يخص مذهب مالك بالتفصيل والشرح وذكر الدليل ، فهذا ما لا حيلة له فيه ؛ إذ أنه درس مذهب مالك دراسة مستوعبة جعلته من أقدر الفقهاء على توضيحه ، وعلى غيره من فقهاء المذاهب الأخرى أن يتولوا طبع كتابه طبعة جديدة يضيفون إلى هوامشها ما ندّ عن الرجل من تفصيل أو تعليل ، وهذا هو الطريق الأمثل لتحقيق التراث الفقهى فى زمننا الأخير .

● وبعد ، فهل استطاع ابن رشد مع إمامته فى الفقه والفلسفة أن ينجو بنفسه من مكايد الحاسدين ، لقد كان الرجل محسوداً على عقله الواسع ، ونظره الصائب ، وعمقه الدقيق ، فتألبت عناصر الشر عليه لتميل بالحق إلى غير وجهه ، فنسبوا إليه من الأقوال عن عاد وثمود ما لم تصح نسبته إليه ، واقتطعوا من كتبه الفلسفية ما يوهم المروق والإلحاد ، ورأوا أن ذلك كله لا يستطيع أن يؤلب عليه صاحب الأمر ، فعمدوا إلى الدس الحقير حين أبلغوا أمير الموحدين أن الرجل قد انتقص من قدره حين قال عنه فى أحد دروسه إنه ملك البربر ، وتلك كبوة ما نظن أن

مثل الفيلسوف فى سياسته الحاذقة وصداقته المخلصة لحاكمى الدولة يأتيها، ولكنه الاختلاق الآفن قد أوغر صدر الأمير، فاستدعاه إلى محاكمة جائرة خلص منها إلى لعنه وطرده ونفيه مع نفر من تلاميذه ، ثم إلى إصدار منشور مسهب بإلحاده ومروقه ، فتحاماه الناس كصاحب لعنة توشك أن تحل بمن يصحبه أو يكلمه أو يراه ، وقاسى الفيلسوف من جراء ذلك ما كان له أثره البالغ فى تكدير صفوه وظلام ليله . وكان أوجع ما كابده فى ذلك أن ذهب مع ولده لصلاة العصر فى مسجد قرطبة فثار عليه العامة وأخرجوه مع ولده فى موقف آسف — وكان أمير الموحدين تحقق أخيراً فساد ما نسب إلى الرجل من افتراء ، فعمل على تقريبه وأصدر أمره بالعفو عنه، وكان الفيلسوف فى حالة ميئسة لارتفاع سنه، وكثرة همه ، وتألب العامة والخاصة عليه ، فلم ينعم بالعفو غير أيام يسيرة اشتدت بها علته التى أسلمته للموت بعد جهاد عنيف .

وهكذا جاء العفو متأخراً عن موعده ، فما انتفع به الأمير فى تقريب صاحبه ، وما انتفع به الفيلسوف فى تبديد همه ؛ إذ وقف الموت حائلا دون إعادة الصفاء واقتراب الشمل :

أتت وحياض الموت بينى وبينها

وجادت بوصل حين لاينفع الوصل

حول لفظ قرآنى

« ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » .

فى كتب التراث العلمى مجالس علمية متخيلة أو حقيقية يعقدها كبار العلماء لدراسة البيان القرآنى المعجز ، وفى هذه المجالس تتجلى نعمة الله على العقل الإنسانى فى لطف التأمل وقوة النفاذ ، لأن العقول إذا تصاولت وتناظرت تطرقت إلى لطائف علمية يتعذر الحصول عليها لدى مفكر واحد يتأمل فى المعنى بينه وبين نفسه ، ومن هنا كانت مجالس المناظرات الفكرية ميداناً فسيحاً تجول فيه الأفهام إلى أبعد مدى يستطاع، وقد يكون المعنى المتناظر بشأنه من الوضوح بحيث يستغرب فيه النقاش لدى الدارس العجول ، ولكن الذين يقدرون دقة الألفاظ وتحديد المعانى وملاءمة النظم البيانى لايتركون تعبيراً دون تحليل وضح أو غمض ، لذلك حفل تراثنا العلمى بروائع النكات البيانية ولطائف التحليلات الأسلوبية

حرف واحد :

وسنتحدث اليوم عن مجلس حاشد عقده الشريف المرتضى خاصاً بحرف واحد من كتاب الله ، ولحرف واحد من هذا الكتاب تعقد المجالس وتملأ الصحف وتشتجر الألسنة ، لأن عظمة البيان المعجز تجعل

كل حرف فيه موضع التأمل البعيد والنظر الفاحص. والشريف المرتضى يعد رجل العلم الجدلى فى زمانه ، وقد تصدر فى فنون كثيرة من علوم الشريعة الإسلامية واللسان العربى وكتب فى الأدب الخالص نظماً ونثراً، ومؤلفاته المتنوعة تدل على نوع من الصدارة الجهيرة .

ولعل روح القرن الرابع الهجرى وما ذخر به من شتى الثقافات المتصاولة كانت سبب احتدام النقاش فى بعض المجالس التى يتصدرها الرؤساء من العلية سامعين والأعلام من العلماء متصاولين ، ولغلبة حب المناظرة على الشريف المرتضى رحمه الله كان يعنى بتحقيق مسائل الخلاف دون أن يتعرض لمسائل الاتفاق ، حيث يتسع الموقف للتفريع والتشريح والتحليل ، أما مجالسه العلمية فقد قال مؤرخوه إن المجلس الواحد منها يتسع لأربعمائة تلميذ ، كل منهم أستاذ بالقياس إلى من نعرف من المؤلفين . ومن ثمرات هذه المجالس نطالع كتابه الشهير بالأمالى ، حيث ضم ثمانين مجلساً سجلها التلاميذ شفاهاً عن أستاذهم الصوال النظار فى حلبة النقاش ، وقد مدحه تلميذه أبو العلاء المعرى فى أكثر من قصيدة - على ضنه بالمديح أحياناً - فقال عنه فيما روى الرواة :

لو جئته لرأيت الناس فى رجل والدهر فى ساعة والأرض فى دار

أما ما نريد تلخيصه اليوم فهو بعض ما دار من النقاش حول كلمة (أو) فى قول الله عز وجل : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون » .

فقد سأل سائل فى مجلس الشريف عن قوله (أو أشد قسوة) فقال : إن ظاهر كلمة (أو) يفيد الشك ، وهو لا يجوز على الله . والسؤال

واضح الإجابة فى ظاهر الأمر ، ولكن الشريف جعل منه ميداناً للنقاش ، مستعرضاً ما يموج فى خاطره من شتى المعانى ، إذ انطلق يقول ما ملخصه وإيضاحه : إن فى كلمة (أو) عدة وجوه : أولها أن تكون للإباحة ، كقولك : جالس الحسن أو ابن سيرين ، فكلاهما أهل للمجالسة ، فإن جالست الحسن فأنت مصيب ، وإن جالست ابن سيرين فأنت مصيب ، وإن جمعت بينهما فأنت مصيب ، فيكون معنى الآية الكريمة على ذلك : أن قلوب بنى إسرائيل كانت متجافية عن الرشد والخير ، فإن شبهت قسوتها بالحجارة فصواب ، وإن شبهت قسوتها بما هو أشد من الحجارة فصواب ، وإن شبهت بالحجارة وبما هو أشد من قسوتها كالحديد معاً فصواب كذلك .

ولذلك نظير هو قول الله عز وجل : « أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ » بعد قوله عز وجل : « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ » .

إذ لك أن تقول : إن من الجائز أن يشبه الله عز وجل المنافقين بالذى استوقد ناراً فلما أضاءت ذهبت ، ومن الجائز أن يشبه الله عز وجل هؤلاء بأصحاب الصيب الذى يجمع الظلمات والرعود والبروق ، ومن الجائز أن يكون التشبيه بالاثنين معاً ، (فأو) ليست للشك ولكن لتعدد التشبيه .

قال بعض المستمعين : هـذا رأى أول فى معنى (أو) فهل من ثان ؟ فأجاب الشريف يقول :

من الجائز أن تكون (أو) فى قوله تعالى : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة » للتفضيل والتمييز ، فيكون المراد على هذا المعنى : أن قلوب بنى إسرائيل قد صلبت وقست ، فبعضها كالحجارة وبعض هذه القلوب أشد من الحجارة كالحديد ، ولذلك نظير فى قول الله عز وجل : « وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون » ، فإن معنى (أو) فى الآية الكريمة أن بعض أهل القرية قد هلك بالليل بياتاً ، وبعضهم الآخر قد هلك بالنهار ساعة القيلولة ، وكما قال الله عز وجل فى سورة البقرة : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا » ، فإن معنى الآية : قال اليهود كونوا هوداً ، وقال النصارى كونوا نصارى (فأو) للتفضيل .

وسكت الشريف المرتضى متأملا وجوه تلاميذه ، فشاهد من الإشراق والتفتح ما يدل على الرغبة فى الاسترسال والتشقيق ، فقال مبتسماً : أعندكم رغبة فى رأى ثالث ؟ فصاح الطلاب : نريد ، فقال الشريف : ذهب بعض البيانيين إلى أن (أو) فى الآية الكريمة : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة » بمعنى الواو ، فكأن الله عز وجل قال : فهى كالحجارة وأشد قسوة منها ، وأو — فى لغة العرب — تأتى بمعنى الواو كثيراً ، كما فى قول الشاعر :

نال الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

وقول الآخر :

وقد زعمت ليلى بأنى فاجر لنفسى تقاها أو عليها فجورها

فمعنى البيت الأول : نال عمر بن عبد العزيز الخلافة وكانت من قدره . ومعنى البيت الثانى : لنفسى تقاها إذا كانت من المتقين ، وعليها فجورها إذا كانت من الفاجرين .

سأل سائل فى أدب : وهل لدينا ما هو أقسى من الحجارة ؟ فقال الشريف : على الفرض الجدلى أنه لا يوجد أقسى من الحجارة ، فإن من عادة العرب فى كلامهم أن يتصوروا ما هو فوق الواقع قوة وغرابة فيعبروا عنه ، والتصور لا يمنع أن يمتد بالمخيلة ، فنتصور الأسد الواحد آساداً كثيرة ، والجبل المفرد جبالا شاهقة ، ثم إن الآية الكريمة جاءت على سبيل المثل ، والمثل فى كلام العرب يعتمد على الخيال والتصور . فلو أن العرب لم يكونوا يعلمون شيئاً أشد قسوة من الحجارة فإن تصورهم الخيالى يضيف المجهول للمعلوم ، فيزداد به التصور الأدبى قوة ووضوحاً واكتمالا ، وقد شبهوا فى كلامهم بما لا يرون ، كالغول وكالعنقاء تصوراً وتخيلا ، والأمر هنا كذلك .

ثم سكت المرتضى ، فابتسم بعض الطلاب فى أدب كعادة الطالب حين يهم بالكلام ، وعرف الشريف ذلك فنظر إليه مشجعاً ، وقال فى اهتمام : قل ما عندك يا بنى ؟ فقال التلميذ : فى نفسى شىء يا سيدى من أن تكون (أو) فى الآية (بمعنى الواو) ، لأن المعروف أن الواو تأتى للجمع فكيف تكون قلوبهم كالحجارة وتكون أشد منها فى موقف واحد كما تفيد الواو .

والسؤال دقيق جيد ، وقد اعتدل الشريف فى مجلسه اعتدالا يدل على أخذ الأهبة والاستعداد . ولم يشأ أن يهجم على الرد دون تفكير ، بل انتظر قليلا ليجمع الرد الحاسم وليعطى تلاميذه مثلا حسناً للتؤدة العلمية والهدوء الفكرى ؛ لأن العلم صعب المنال يحتاج إلى غور دقيق . ثم قال : لامانع أن تكون الحالتان مختلفتين ، فالقلوب فى حالة كالحجارة وفى حالة أخرى أشد من الحجارة ، ويكون فى ذلك ما يتضمن أن بنى إسرائيل لم يكونوا فى الغلظة والقسوة على مستوى واحد ، فبعضهم ألين

من بعض ؛ بعضهم كالحجارة وبعضهم أعتى وأصلب ، فإذا أبيت ذلك فلك أن تعلم أن (أو) يجوز أن تكون بمعنى (بل) مثل قوله تعالى: « وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون » ، فإن المعنى أن يونس عليه السلام قد أرسله الله إلى مائة ألف إنسان بل يزيدون على ذلك ، ومثل ذلك قول الشاعر :

بدت مثل قرن الشمس فى رونق الضحى
وصورتها أو أنت فى العين أملح

فمعنى البيت : أنها كانت كالشمس ساطعة فى الضحى ، ثم ترقى إلى ما هو أجمل من الشمس فقال : بل أنت أملح من الشمس ..

هذا مجلس دار حول حرف واحد من كتاب الله ، وله نظائر وأمثال ، وقد حاولت جهدى أن أتخلص من المصطلحات العلمية التى ترهق القارئ الكريم .

الصوم عند الامام الغزالى

كنا فى مجلس علمى نتحدث عن حجة الإسلام الإمام أبى حامد الغزالى رضى الله عنه ، وفينا من يرتفع به إلى مستوى الزعامة الفكرية فى عصره ، ويجيب فى تدفق عن كل مأخذ يوجه إلى بعض ما كتب ، وقد قال بعض الحاضرين : إن الغزالى قد تردد فى بعض آرائه ، فهو فى كتاب ما يتحدث عن موضوع دينى بغير ما يتحدث عنه فى كتاب آخر ، وضرب الأمثلة على ذلك من واقع مؤلفات حجة الإسلام ، ولكن عاشق الغزالى من أصحابنا ، قد عقب يقول فى استفاضة : إن هذا التطور فى آراء الإمام مما يحسب له ، لا مما يحسب عليه ، فالرجل الكبير دائم التفكير فيما يصدر من أحكام ، ولابد أن يجدّ له ما يصحح الخطأ ، أو يتم النقص ، وتلك سمة العقل المتجدّد ! لقد تحدث أبو حامد عن العبادات من طهارة وصلاة وصيام وزكاة فى بدء حياته العلمية ، ثم تحدث عنها بعد استوائه على القمة الفكرية فأضاف الكثير ، وحلل وعلل ، وفصّل وفسر ، وقد ظهر كتاب إحياء علوم الدين ليكون الأنموذج الكامل لمعارف الإمام ، فهو فى كل أبوابه ، يضيف من المعارف ما يعمق الفكرة ، ويؤيد الحكم ، بل إنه يضيف من خواطره الصافية ، ما يدل على شفافية نقية ، وما يكاد يعد به شاعراً ذا قلب ، لا عالماً ذا عقل ، لذلك كان كتاب الإحياء صورة لقلبه ، ومرآة لوجدانه ، مع ما يحمل من ثمار الفكر الواعى ، والعقل البصير ، وهنا ارتفع صوت يطلب التمثيل ، فأشرق وجه صاحبى المتكلم ، وقال فى هدوء : ليكن موضوع الصوم عند الغزالى هو موضع التدليل !

لقد كان الإمام أستاذاً للفقه فى المدرسة النظامية ببغداد ، بل كان أول أساتذة التشريع الإسلامى بهذه المدرسة ، وكان يحضر مجلس درسه ثلثمائة عالم من الكبار ، فهو أستاذ العلماء جميعاً ، تشد إليه الرحال ، ويستفتى فى العصى من دقائق المعضلات ، على أنه كان يشرح أبواب الفقه بما تعورف بين الدارسين ، ففى باب الصوم ، يتحدث عن تعريفه ، وواجباته ، وسننه وأنواعه ، ومبطلاته ، ودواعى الإفطار التى تباح ، والمبطلات التى يفسد بها الصوم ، يتحدث عن ذلك بما هو مدون فى كتب السابقين ، وإن زاد شيئاً ففى صحة التعليل ، واستيفاء الدليل ، والمقارنة بين الأحكام فى مذاهب أهل السنة ، وله فى ذلك كله لسان فصيح ، وفكر صوّال ، ويقظة واعية فى فهم السؤال ، وتسديد الجواب ، والرجل الكبير بعد ذلك كله ، عقل مستوعب دارس ، يعرف أن أدوات العلم هى التفكير ، والاستظهار ، والارتكاز على النظر المنطقى ، والدليل الشرعى فى التحليل والتعليل والتخريج ، إلى هنا ويقف الإمام الغزالى دون أن يخترق هذه المسافة صاعداً إلى أفق أعلى ، أما ما كتبه الغزالى عن الصوم فى كتاب الإحياء فلا يقف عند العلم المنقول وحده ، بل يضيف إليه ما توحى به البصيرة الكاشفة ، والقلب الذواق ، والوجدان الصافى ، ولن أتحدث إليكم عما ذكره الغزالى فى كتاب الإحياء فى باب الصوم من المسائل المعلومة المشتهرة ، فهو فى هذا المجال متبع غير مجدد ، ولكنى أتحدث عما ذكره الغزالى فى باب الصوم مما أوحت به البصيرة الكاشفة والعقل الذواق .

أقسام الصوم

لقد قسم الإمام الغزالى الصوم إلى ثلاثة أقسام فقال رضى الله عنه تحت عنوان (أسرار الصوم وشروطه الباطنة) ما يمكن أن نلخصه فيما يلى :

إن الصوم ثلاث درجات ، صوم للعامة ، وصوم للخاصة ، وصوم لخاصة الخاصة .

أما صوم العامة فهو الذائع المشتهر ، الذى يمسك فيه الإنسان عن شهوة الطعام والشراب ، وشهوة الجنس من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، وقد يرتكب الصائم من الصغائر ما لا يلتفت إليه دون أن يفسد صومه ، بل قد يرتكب من الكذب والنفاق والرياء ما لا يظن معه أنه ارتكب ما يبطل به الصوم ، فيظل طيلة يومه ممسكاً عن الطعام والشراب حتى يؤذن المغرب فيقبل على الطعام ، معتقداً أنه قضى يومه صائماً طائعاً ، ومنتظراً مثوبة الله على ما كابد من حرمان .

هذا صوم العامة ، أما صوم الخاصة فهو كف السمع والبصر ، واللسان واليد والجوارح عن الآثام ، فالصائم فى عبادة متصلة ، وصاحب العبادة عليه أن يحترز من المعصية إذ لا يليق به أن يمتنع عن الشراب والطعام قياماً بفريضة الصوم ، وهو يستمع إلى الغيبة دون أن يكف سمعه ، وينظر إلى المحارم دون أن يكف بصره ، ويخوض فى أعراض الناس دون أن يكف لسانه ، ويغتصب مال الغير دون أن يكف يده ! إنه إذا فعل ذلك فقد أخل بفريضة الصوم إذ خلط عبادته بما يهوى بها إلى حيث تضيع ثمرتها المشتهاة ومثوبتها المرتجاة .

فإذا انتقلنا إلى صوم خاصة الخاصة فإننا نرى الإمام الغزالى يراه فى صوم القلب عن كل مسائل الدنيا ، وعن التفكير فيما سوى الله عز وجل ! ويحدث الفطر فى هذا النوع للصائم إذا كان من خاصة الخاصة متى فكر فى غير ربه ، وفى غير ما يتعلق بالحساب والجزاء والموت والبعث ، حتى قال بعض أرباب القلوب : من تحركت همته بالتصرف فى نهاره لتدبير ما يفطر عليه كتب عليه خطيئة ، لأن ذلك من قلة الوثوق

بفضل الله عز وجل ، وقلة اليقين بتوالى رزقه ، وفيض نعمه ، وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين ، إذ هى إقبال بجميع الهمة على الله وانصراف بالعزيمة عما سوى الله .

قال ذلك صاحبى ثم سكت ، ففاجأه بعض أصحابنا باعتراض على القسم الأخير ، لأن الإمام الغزالى قد حجّر واسعاً ، وضيق فسيحاً حين جعل الصوم فى هذا القسم وقفاً على التفكير فى ذات الله وحده ، فكيف يستطيع الإنسان وهو صاحب عمل كادح أن يترك ميدان رزقه ليتفرغ طيلة الشهر للصوم الصامت ! ومن أين يقطف ثمار عيشه ، وهو منعزل فى صمته ، لا يضرب فى مناكب الأرض مرتزقاً كاسباً ؟ والإسلام دعوة للعمل ، وصيحة للكفاح ، وقد انتصر المسلمون فى غزوة بدر ، وفى فتح مكة لدى عهد رسول الله ، وهم صائمون ، والغزالى يقول عن القسم الأخير : إنه مرتبة الأنبياء ، وسيد الأنبياء كان يناضل العدو غازياً فى شهر رمضان ، وهو صائم متعبد ، وإذا لم يكن رسول الله من خاصة الخاصة فمن يكون إذن ؟

الحق أن الاعتراض وارد على القسم الأخير من تقسيم الإمام الغزالى ولعله يقصد به جماعة لعهده قد فرغوا من الدنيا ، وعكفوا فى المساجد راكعين ساجدين .

دفاع وتفنيد

لم يطق تلميذ الغزالى صبراً على ما وجه إليه من اعتراض ، فاندفع يقول : إن صوم الخاصة الذى ذكره الغزالى لا اعتراض عليه من أحد ، بل من الواجب أن يرتفع العامة إلى مستواه ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » . وقيل فى تفسيره : « هو الذى يمسك عن الطعام ويفطر

على لحوم الناس بالغيبة ولا يحفظ جوارحه من الآثام » . ومتى التزم كل صائم بآداب الإسلام الخلقية فقد جاوز الطبقة الأولى إلى الطبقة الثانية ، أما الطبقة الثالثة وهى موضع الاعتراض ، فإنى أرى أن الانصراف إلى الله عز وجل لا يمنع الإنسان من العمل الجاد ، فقد يكون الصائم محارباً غازياً ، وربه لا يعزُب عن تفكيره ، بل إنه يتقدم إلى حومة الجهاد معتقداً أن الله عز وجل يدخر له أجزل الثواب ، وأنه بمرأى ومسمع ممن يعلم السر والنجوى ، فإذا كان الأنبياء يصومون ويحاربون ويناضلون ، فهم مع الله فى كفاحهم الشاق ، وصومهم إذن هو صوم الطبقة الثالثة ! ومن يسعى إلى الرزق صائماً . وهو يفكر فى طاعة الله ، فصومه عبادة ، وإذا كان صوم رمضان تمريناً على الصفاء النفسى طيلة العام فى غير رمضان ، فإن التفكير فى الله سيكون ديدن الصائم فى غير رمضان ! وهنا تتحقق جدوى الصيام ، إذ تمتد إلى سلوك المسلم اليومى صائماً أو غير صائم ، حين ينهاه الصوم عن اقتراف الموبقات بعد أن ينقضى أمده الزمنى وتحين أيام الفطر فى غير رمضان .

العبادات الأخرى

ثم استطرد صاحبى يقول : لم يكن الصوم وحده مجال الغوص النفسى لدى الغزالى دون سائر العبادات ، إذ أن حجة الإسلام قد وقف موقف التأمل الفاحص فيما عالجه من شئون الطهارة والصلاة والزكاة والحج ، حيث لم يكتف بما قرره الفقهاء من أحكام ، بل تغلغل إلى اللباب الصميم فى فلسفة هذه الفرائض ، وله مع كل فريضة نظره الكاشف وسعته الرحيبة ، فهو فى حديثه عن الوضوء والغسل مثلا لا يقف عند الفعل الظاهرى ، بل ينص على أن الطهارة ذات

مراتب أربع : فالمرتبة الأولى هى المعروفة فى أبواب الفقه ، والمرتبة الثانية هى تطهير الجوارح من الجرائم والآثام ، والمرتبة الثالثة هى تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة ، والمرتبة الرابعة هى تطهير السر عما سوى الله ، وهى مرتبة الأنبياء والصديقين .

يقول الغزالى : إن من عميت بصيرته عن تفاوت هذه الطبقات ، لا يفهم من الطهارة إلا مرتبة الوضوء والاغتسال ، وهى القشرة الظاهرة بالإضافة إلى اللب المطلوب ، وكم رأينا من يهتم بنظافة الأيدى والأرجل والوجوه دون أن يهتموا بتطهير القلوب من أقذار الحسد والنفاق والكيد ، مع أن الطهارة كل لا يتجزأ ...

وفى حديث الغزالى عن الصلاة ، يوجه اهتمامه إلى الخشوع ويراه مناط الكمال لصحة الصلاة ، وإذا كان الفقهاء يفتون بصحة الصلاة لغير الخاشع فى كل صلاته فإن مقام الفتوى يتلمس الأعذار اعترافاً بقصور الإنسان وتقصيره ، لأن اشتراط الخشوع فى جميع الصلاة ، وإحضار القلب دون شرود مما يعجز أكثر الناس ، فلابد من الخشوع فى بعض اللحظات ، بالنسبة إلى العامة ، أما الخاصة فعليهم أن يشمل الخشوع كل لحظة يقف فيها المصلى بين يدى ربه ، ليمتد الخشوع إلى غير وقت الصلاة ، فيصبح المسلم بعيداً عن المحرمات إذ نهته الصلاة عن الفحشاء والمنكر تصديقاً لقول الرسول : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً » .

أما الزكاة فلها كالصوم ثلاث مراتب ، أدناها مرتبة من يقصرون على الواجب المشروع فلا يزيدون عليه وفوقهم من ينفقون على قدر حاجاتهم ، ويدفعون إلى الفقراء ما يزيد عن هذه الحاجة ، أما المرتبة الأعلى فلمن صدقوا التوحيد ونزلوا عن جميع أموالهم للفقراء ، وهكذا

نرى الغزالى يطمح إلى ما لا مزيد وراءه فى هذه الفروض وتلك منزلة لا يبلغها غير الآحاد .

وفى حديث الغزالى عن الحج إفاضة فى ضرورة التجرد والتنزه عن الشهوات ، والاقتصار على الضرورات ، وتفسير لمعانى الإحرام ، والسعى والطواف ورمى الجمار والتلبية بما يضفى على هذه المعانى من الروعة والسمو والصفاء ما يجعل الحاج مولوداً جديداً يستقبل الأرض بروح السماء .

عود على بدء

قلت لصاحبى : ألا ترى أن الغزالى غير واقعى فى بعض ما يتحدث عنه من أمور الصوم والصلاة والزكاة ؟ فقال متحمساً : نعتبر الغزالى غير واقعى لو جعل المسلمين طبقة واحدة فى العبادات ، ولكنه قسم الناس مراتب ، ولا شك أن فيهم آحاداً يرتفعون إلى الذروة فى إخلاصهم ، وهم من يتشدد معهم فى بلوغ الغاية أما سواهم فقد سار معهم على سواء الطريق .

فى باب الصوم مثلا ذكر أن كل فرد عليه أن ينظر إلى استعداده الروحى والجسمى ، فمن أطاق الصوم فى أكثر الأيام فى غير رمضان ، فتلك عبادة راقية تجد وقودها فى استعداده الناهض ، وليس لأحد أن يقوم فى وجهه فيصده عن معراج يحاول أن يرتقى به ، ومن أطاق الصوم فى أيام خاصة تتوالى فى الشهر أو تتفرق ، فله أن يسير مع استعداده المناسب ، ومن لم يطق غير المفروض فى شهر الصيام فله أن يلتزم به دون أن يتعداه ، بل إن الذى لا يطيق الصوم المفروض فى رمضان لا جناح عليه أن يفطر إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لذلك كان محمد صلى الله عليه وسلم يصوم ويصوم حتى يقال لا يفطر ، وكان يفطر ويفطر حتى يقال لا يصوم .

وقارئ باب الصوم فى كتاب الإحياء يجد من الإرشادات الواقعية ما يجنبه الشطط والانهماك فى الملذات ، فقد فطن الغزالى إلى جماعة من الصائمين يمسكون عن الطعام والشراب طيلة النهار حتى إذا أذن المغرب انكبّوا على الموائد فاستكثروا مما يجلب التخمة والبشم ، وفيهم من يواصل ملذاته طيلة الليل على أبعاد متقاربة ، والغاية من الصوم هى كسر الهوى ، واعتياد الصبر على الجوع ، وراحة المعدة ، وقد أخلّ هؤلاء النهمون بغاية الصوم ، فأبطلوا فائدته ، فكأنهم جمعوا ما كانوا يتناولونه فى الصباح والظهيرة ، وكدّسوه فى بطونهم بين المغرب والفجر ، فلم يصلوا إلى شىء من تعويد الحرمان وكسر الهوى ، وفاتتهم الفائدة المرتجاة من الصيام ، يقول الإمام الغزالى : ومن جعل بين قلبه وصدره مخلاة ممتلئة بالطعام والشراب ، فهو عن الله محجوب ، لأن امتلاء البطن يقف حائلا دون مواصلة الصلاة فى التراويح ودون التهجد فى شهر العبادة ، ودون مجالس الذكر وخلوات التفكر فى ملكوت السماوات والأرض ، مما يجب أن يكون ديدن الصائم فى شهر رمضان .

إن الإنسان وسط بين الملك والحيوان ، فهو بإقباله على مطالب الروح يرتفع عن إنسانيته إلى مصاف الملائكة ، وبانهماكه فى ملذات الجسم دون التزام بحد معقول ينخفض إلى مستوى الحيوان ، والصوم - فى منطق الغزالى - إذا أدّىَ على وجهه الصحيح يرتفع بصاحبه إلى مستوى الأطهار ، ممن تخلصوا من رغائب البدن وملذات النفس ، وعرفوا أن للروح ملذات أخرى حين تسعد بالتفكير الهادئ فى إسعاد البشرية ، وهداية الناس ، فإذا لم يتيسر هذا التفكير ففى سعادة المرء نفسه ، ومحاولة ابتعاده عن الشرور ، ورمضان فرصة مواتية لهذا

التفكير ، إذ هو عبادة تستدعى غيرها من العبادات ، فالصائم متطهر مصلٍّ ، مزكٍّ ، وقد يصوم فى بعض أيام الحج فيجمع كل العبادات فى وقت واحد ، وهنا تكون صلته بربه قريبة دانية ، وبالتالى تكون صلته بالناس وثيقة هانئة ، لأن من يقوم بالفرائض على وجهها الصحيح لا بد أن يكون حسن السلوك ، جميل السيرة ، يأخذ بالعفو ، ويأمر بالعرف ، ويصنع الجميل ، ويفسح الصدر لمن يقع فى الزلل ، وتلك صفات الموحدين .

إن رمضان شهر مجاهدة ، ومراتب الجهاد تتفاوت ، وقد أوضحها الغزالى فى إسهاب شاف ، وله روحانيته الصافية ، وذوقه الشفاف ، وعقله البصير ...

عناء ضائع فى كتب التفسير

● يحسّ القارئ بركام هائل تزدحم به كتب التفسير دون طائل ، فهناك جهود أخطأت مواضعها المعقولة حين أخذت تلجأ إلى التأويل النحوىّ والتعسف البلاغى دون مبرر مقبول ، فقذفت بالقارئ فى متاهات حائرة سدت آفاقها بغبار كثيف من التمحلات لاينفذ منه ضوء ، ولا ننكر أن بعض الجهود العلمية فى الدراسات القرآنية له مكانه البارز المطمئن ، وذلك حين تتضح الجادة ويستقيم الطريق ، ولكنى لا أنكر أن بعض هذه الجهود قد ضلت سواء السبيل !

● وسر ما نشاهده من كثرة هذا الركام المتزاحم أن بعض الشارحين لكتاب الله يتخذ من قواعد البلاغة والنحو أقيسة لا تقبل النقاش ، فإذا تعرض لآية كريمة من آيات الكتاب العزيز لم تكن وفق المتعارف من هذه القواعد بذل جهده الجاهد فى أن يقرب النص القرآنى من القياس الاصطلاحى ، وقد نسى أن كتاب الله هو الأصل الأول للقياس فى كل علم من علوم العربية ، فإذا خالفته القاعدة النحوية أو البلاغية فيجب أن تكون هى موضع التساؤل ، لا أن تقف الآية الكريمة وكأنها متهمة أمام القواعد الصماء ، وأظن المثال الواضح فى هذا المجال يحدد ما نريد !

● لقد ذكر البلاغيون أن أساليب الخبر لا تحتاج إلى توكيد إذا كان المخاطب خالى الذهن ، وتحتاج إلى مؤكد واحد إذا كان المخاطب متردداً ، كما تحتاج إلى أكثر من مؤكد إذا كان المخاطب منكراً ، واستشهدوا لذلك بأمثلة كثيرة منها قول الله عز وجل فى سورة يس :

« واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذا أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما ، فعززنا بثالث ، فقالوا إنا إليكم مرسلون * قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون * قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين » .

وموضع الشاهد فى هذه الآيات قول الله أولا على لسان المرسلين : « إنا إليكم مرسلون » حيث جاء بمؤكد واحد ؛ إذ كان أصحاب القرية مترددين ثم قول الله ثانياً « ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » ، فجاء بأكثر من مؤكد حين ثبت أن أصحاب القرية منكرون . وقد شاع الاستشهاد بهذا النص فى أكثر كتب البلاغة القديمة ، وهو نص واضح الدلالة على المراد ، ولا حرج على من يستشهد به من البلاغيين حين يتحدث عن أضرب الخبر ، ولكن بعض الدارسين يريدون أن يجعلوا من هذه القاعدة فى تعدد التأكيد وعدمه قياساً لا يقبل الشذوذ ، فإذا فوجئوا بما يصطدم مع هذا القياس تعسفوا التأويل ، وتمحلوا فخبطوا على غير اهتداء !

● لقد نظر البلاغيون ومن ورائهم أشياعهم من المفسرين إلى قول الله عز وجل فى سورة المؤمنون : « ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » . فوجدوا الآية الأولى (ثم إنكم بعد ذلك لميتون) مؤكدة بأداتين هما إن واللام مع أن الموت حقيقة واقعة ملموسة لا يمترى فيها أحد ، ثم تأملوا الآية الثانية (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) فوجدوا تأكيداً واحداً مع أن البعث مجال الإنكار عند قوم ، فكيف تأتى الآية بتأكيد واحد والمقام مقام جحد وإنكار !

هنا تناطحت الأقلام تناطحاً متعسفاً ، وفاضت الشروح بشتى التأويلات ، ومحاولة الإشارة إلى كل ما قيل عناء يتطلب الواسع من

الصفحات ، وحسبنا أن نكتفى ببعض ما قيل ؛ لأن المعركة قد امتدت على تعاقب الأجيال ينقلها كاتب عن كاتب حتى تعذر الاستقصاء ، ولن نعمد إلى أسوأ ما قيل ، ولكننا نختار ما يصلح أن يقال .

● فنى مجال البلاغة نكتفى بما ذكره جلال الدين القزوينى فى الإيضاح حيث قال — رحمه الله — :

« ومما يتفرع على هذين الاعتبارين ، قوله تعالى : « ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » فقد أكد إثبات الموت تأكيدين ، وإن كان مما لا ينكر لتنزيل المخاطبين منزلة من يبالغ فى إنكار الموت ، لتماديهم فى الغفلة والإعراض عن العمل لما بعده ، ولهذا قال ميتون دون تموتون ، وأكد إثبات البعث تأكيداً واحداً ، وإن كان مما ينكر لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديراً بألا ينكر ، بل إما أن يعرف وإما أن يتردد فيه فنزل المخاطبين منزلة المترددين تنبيهاً لهم على ظهور أدلته ، وحثاً على النظر فيها ، ولهذا قال (تبعثون) » !

● وكى نوضح ما قاله الخطيب بتعبير سلس لا لبس فيه ، نعلن أنه — رحمه الله — يعتنق القاعدة البلاغية فى مراعاة أحوال المخاطبين ، ويحاول أن يبرر ما جاء مخالفاً لها فيرى أن الناس مشغولون بأعمالهم الخاصة فى الدنيا عن الموت فكأنهم ينكرون وجوده الواضح لذلك احتاج الموت إلى مؤكدين ، كما أن هؤلاء الناس قد غفلوا عن أدلة البعث وهى واضحة فى مرآة العقل فلم تحتج إلا لمؤكد واحد ! وهذا تخريج عقلى متكلف ينكره أسلوب القرآن الكريم نفسه ، فلم يسر على الخطة التى تخيلها الخطيب القزوينى ومن نحا منحاه ؛ إذ تحدث الله عز وجل عن الموت فى موضع آخر بمؤكد واحد ، وتحدث عن البعث بمؤكدين ، وإذن فليس هناك انشغال عن الموت من ناحية ، ووضوح لدليل البعث

من ناحية أخرى كما يقرر المتأولون، فما عساهم إذن أن يقولوا فى مثل قول الله عز وجل : « إنك ميت وإنهم ميتون » ؟ ولماذا لم يؤكد بالأكثر لانشغال الناس عنه بملاهى الحياة ؟ ! ثم ما عساهم أن يقولوا فى مثل قول الله عز وجل : « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير » ؛ إذ جاء تأكيد البعث بأكثر من مؤكد ، ولم ينظر القائل إلى وضوح أدلة البعث فيكتفى بمؤكد واحد كما قيل فى آية سورة (المؤمنون) !

● الحق أن القاعدة البلاغية ليست مطردة على نحو يوجب تأويل كل نص يخالفها ولكن البلاغة ذوق يغنى فيه السياق بإيحائه الملحوظ عن التأكيد بنصه الملفوظ . وقد لا يكون فى النص تأكيد بأداة معلومة ، ولكن جوه الأسلوبى يمنحه كل تأكيد ، والخطيب ونظراؤه يتقيدون بالأدوات دون نظر إلى الجو العام ، على أن هناك فرقاً بين الالتزام بقواعد النحو والالتزام بقواعد البلاغة ، فالالتزام بقواعدالنحوضرورى لأنه يقف أمام حدود فاصلة لا تجيز للمرفوع أن ينصب ، ولا للمجرور أن يرفع ، أما قواعد البلاغة فليست ذات حدود فاصلة بحيث يكون التقديم أو الذكر أو الحذف أو التأكيد أو الإطناب فى كل أحوالها ضربة لازب لا محيص عنها ، ومن هنا كانت دراسة القواعد النحوية أمراً محتوماً على كل متعلم يتطلع إلى الإنشاء الأدبى ، ولكن دراسة علوم البلاغة ترف ذهنى بحت ، وإلا فماذا كان تحصيل شوقى وحافظ ومطران ومحمد حسين هيكل والمازنى من فنون المعانى والبيان والبديع ، وهم من أمراء البيان دون نزاع !

● فإذا تركنا رجال البلاغة إلى رجال التفسير فسنجد للكثير منهم افتراضات جديدة ما كان أغنى القراء عنها ، حيث شغلت الدارسين

فى غير طائل ، ومن هذه الافتراضات ما يدل على ذكاء واقتدار ، ولكنه شيء والتذوق الأدبى بحواسه الدقيقة شيء آخر ، وسنختاره من هؤلاء المفسرين الإمامين الألوسى البغدادى وأبا حيان الغرناطى ، وقد قدمنا الأول على تأخره الزمنى لأنه انفرد فى تأويله بجدة خالصة هى من وحى تفكيره الخاص ، أما أبو حيان فقد اعتمد على خيوط دقيقة مما نسجه سابقوه :

● قال الإمام الألوسى : « ولم يؤكد سبحانه وتعالى أمر البعث تأكيده لأمر الموت مع كثرة المترددين فيه والمنكرين له اكتفاء بتقديم ما يغنى عن كثرة التأكيد ، ويشيد أركان الدعوى أتم تشييد من خلقه تعالى الإنسان من سلالة من طين (وهو ما ذكر فى الآيات السابقة ابتداء من قوله عز وجل فى سورة (المؤمنون) : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ») ، ثم نقله من طور إلى طور حتى أنشأه خلقاً آخر يستغرق العجائب ، ويستجمع الغرائب ، فإن فى ذلك أول دليل على حكمته وعظيم قدرته عز وجل على بعثه وإعادته ، وأنه جل وعلا لايهمل أمره ، ويتركه بعد موته نسياً منسياً مستقراً فى رحم العدم كأن لم يكن شيئاً ، ولما تضمنت الجملة السابقة فى سورة (المؤمنون) المبالغة فى أنه أحكم خلق الإنسان من طين وأتقنه ، بالغ سبحانه وتعالى فى تأكيد الجملة الدالة على موته مع أنه غير منكر لأن ذلك سبب لاستبعاد العقل إياه أشد استبعاد حتى يوشك أن ينكر وقوعه من لم يشاهده ... » .

ثم قال الألوسى فى خاتمة حديثه : « وهذا وجه دقيق لم أرنى سبقت إليه » :

● ومع اعتزاز المفسر الكبير بطرافة رأيه فإنه ينحصر فى أن آية البعث لم تؤكد بمؤكدين اكتفاء بما ذكره الله من أدلة النشأة الأولى من طين

فنطفة فعلقة فمضغة فعظام مكسوة باللحم ! كما أن آية الموت قد أكدت بأكثر من مؤكد لاستبعاد وقوعه بعد إحكام النشأة فى عين من لم يشاهده، وهذا كلام يلاحظ السياق العام وهو مما يحمد للإمام الألوسى ، ولكنها ملاحظة محدودة ، لو أتيح لها أن تتسع لبلغ الإمام كثيراً مما نريد ، ولنجا من التقيد بالاصطلاح البلاغى على ضيقه الشديد !

● أما الإمام أبو حيان الغرناطى فقد قال فى البحر المحيط حين تعرض للنص الكريم :

« لقد بولغ فى تأكيد الموت تنبيهاً للإنسان أن يكون الموت نصب عينه ، ولا يغفل عن ترقبه فإن مآله إليه ، فكأنما أكدت جملته ثلاث مرات لهذا المعنى ؛ لأن الإنسان فى الحياة يسعى فيها غاية السعى ، ويأكل ويجمع حتى كأنه مخلد فيها فنبه بذكر الموت مؤكداً مبالغاً ليقصر ، وليعلم أن آخره للفناء فيعمل لدار البقاء ، ولم تؤكد جملة البعث إلا بأن لأنه أبرزه فى صورة المقطوع به الذى لا يمكن فيه نزاع ، ولا يقبل إنكار ، وأنه حتم لا بد من كيانه ، فلم يجنح إلى توكيد ثان » .

● وأبو حيان لم يأت بجديد ، غير أنى وقفت عند قوله إن الآية الأولى أكدت ثلاث مرات إذ أراها أكدت بمؤكدين ، أفيكون هناك مؤكد ثالث عرفه أبو حيان وجهلناه ؟

● على أن الإمام الرازى صاحب كتاب « مسائل الرازى وأجوبتها » وهو غير الفخر الرازى صاحب التفسير المشهور ، فقد اهتدى إلى رأى ثالث حين قال : « لما كان العطف يقتضى الاشتراك فى الحكم استغنى به عن إعادة اللام الموجبة لزيادة التأكيد » .

ومعنى هذا القول أن (ثم) فى قوله تعالى : « ثم إنكم يوم القيامة

تبعثون » قد عطفت الآية على ما قبلها فشملها توكيدها ، واستغنت بذلك عن المؤكد الثانى .

● وبعد ، فهذا أثر من ثقافة العصور الوسطى حين حصرت البلاغة فى جزئيات لا تمتد إلى السياق العام ، ولكن التفسير البيانى المعاصر قد وثب وثبات رائعة جعلت الوقوف عند هذه الجزئيات وحدها غير كاف فى استشفاف الروح البيانية للقرآن ، ولعل الشهيد الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ كان أوفى من انتقل بالتفسير البيانى من مجال إلى مجال ففتح ميداناً شاسع الأبهاء ، رحب الحلبات ... !

عقيدة البعث

ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ سورة (قۤ) فى خطبة الجمعة مرات كثيرة مكتفياً بها عن عظة سواها .

فقد روى الإمام مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان رضى الله عنها قالت : لقد كان تنورنا وتنور رسول الله صلى الله عليه وسلم واحداً سنتين ــ أو سنة وبعض سنة ــ ما أخذت (قۤ والقرآن المجيد) إلا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقرؤها كل يوم جمعة إذا خطب الناس . وفى أبى داود والنسائى معنى ما روى مسلم بنقص يسير .

وهذا المتعمد لقراءة هذه السورة الكريمة فى خطبة الجمعة يدعونا إلى أن نتدبر ما جاءت به من الأفكار الدقيقة ، وما احتوت عليه من العظة البالغة ، لنرى كيف حرص الرسول على ترادادها فى أبرز مواقف الدعوة ، وليكون لنا منه أسوة حسنة حين يستعرض الدعاة آيات هذه السورة شارحين مفسرين .

عقيدة البعث :

وأول ما يلحظه الدارس لسورة (قۤ والقرآن المجيد) أنها تعالج أخطر مشكلة دينية لاقت وتلقى معارضة الجاحدين فى كل زمان ومكان ممن طمس الله على بصائرهم فلم يستبينوا وجه الصواب فى حقيقة البعث الأخروى يوم يقوم الناس لرب العالمين ، بل جحدوه عن إصرار ، وحسبوا أن الحياة تنتهى إلى فناء دائم ، فنزلت الآيات المكية تؤيد بعث الناس بالحجة الدامغة فى يوم تشخص فيه الأبصار ، وجاءت سورة (قۤ) ناطقة بالبرهان الواضح فى هذه القضية الحاسمة لتكون حجة دامغة أمام المنكرين .

والحق أن عقيدة البعث الأخروى ذات نفع محتوم للإنسانية جمعاء، فهى التى تنبه الرقيب الدينى فى القلوب المؤمنة ، فتجعل صاحبها يفكر فى الشر قبل أن يقترفه ، ولك أن تتصور مؤمناً يثق بالرجعى إلى الله يوم ينفخ فى الصور ، فإذا الأموات أحياء ينسلون من أجداثهم سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون ، ثم نقرن هذا المؤمن الواثق من حساب ربه بجاحد فوضوى أو إباحى وجودى أو ملحد شيوعى ممن لايؤمنون بيوم الحساب ! لك أن تقرن المؤمن بالجاحد ، وتنظر بعد ذلك أيهما تثق به فى معاملاتك ؟ وعلى من تعتمد فى سرارك ؟ ومن تصدق فى استشاراتك الدقيقة فى أخص أمورك ؟ إنك تجد المؤمن بالبعث خائفاً وجلا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، فإذا اقترف إثماً أدركه الندم ، وركبته الحيرة ، وتصور موقف الحساب ، وانتصاب الميزان وعبور الصراط ، فرعى حق الله فى الأمانة والصدق والإخلاص ، أما الملحد فيأتى الذنب الفادح مجتهداً ألا يراه أحد من البشر ساعة الجريمة كيلا يشهد عليه شاهد فيؤاخذ بالعقاب الدنيوى وحده ، فإذا أتيحت له فرصة الإجرام بعيداً عن المسئولية أخذ يأتى الجريمة آمناً هادئاً غير خائف أدنى مغبة ، وأنى ، وقد نامت العيون ، وغابت الرقباء ؟ لأن جحود البعث قد منع من خاطره احتمال أى جزاء صارم بعد الممات ، ولن نقول إن جميع المؤمنين بعقيدة البعث أمناء شرفاء ، فلو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ، ولكننا نقول إنهم أقرب إلى الشرف ، وأخوف من المسئولية ، وأوقع فى الندم إذا اقترفوا المنكر ، أما غيرهم فيفرح بالجريمة إذا ارتكبها دون أن تقع عليه عين القانون ، ولك أن تتصور مجتمعاً ملحداً يعيش كل أعضائه دون اعتقاد جازم بيوم الحساب كيف يسعد ؟ !

الرد على المنكرين :

جاءت سورة (قَ) إذن لترد على من ينكرون البعث حيث يقول الله عز وجل : « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون هذا شيء عجيب . أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد » ، وهو إنكار فى صيغة الاستفهام يسوقه الجاحدون فى كل نقاش ، وكأن إعادة الأجسام بعد تفرقها فى باطن الأرض عمل مستحيل لا يقدر عليه قادر ! فمن أين يعثر المعيد — فى توهمهم — على ما تبدد من الأجسام وقد تحللت العناصر فى التراب والهواء ، ونبت بها الزرع وأكلتها الماشية والإنسان والهوام ؟ وهو سؤال جاءت الإجابة المباشرة عنه فى قول الله عز وجل : « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » ، وكأن الجاحدين لا يقنعون بهذا الإخبار الصادق من فاطر السموات والأرض ، فهم فى حاجة إلى دليل مشاهد لا إلى كلام يقال دون برهان ، فجاء الدليل العقلى الحاسم فى قول الله تبارك وتعالى :

« أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝ رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً ، كَذَلِكَ الْخُرُوجُ » .

فنظرة إلى السماء المرفوعة دون سقف ، والأرض المبسوطة تحمل الثمر من الزرع ، والماء المتدفق من علياته ليغيث الناس بالرى ، ولينبت الجنات والحدائق والمروج رزقاً للعباد : كل ذلك خوارق صعبة لا تنهض

بها غير قوة قادرة مقتدرة ؟ ومن يفعل ذلك مالكاً تلك القدرة الجبارة فليس يعجزه أن يبعث الناس ثانية بعد أن خلقهم أولا ، إذ أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ! ولذلك جاء قوله تعالى فى مختتم الآية : « كذلك الخروج » دليلا عقلياً ملزماً يصدع المعارض ويفحمه ، لأنه يرى الأرض الميتة بالجدب والإمحال قد صارت حية بالزرع والنماء ، فكذلك خروج الناس من الأجداث بعد الممات .

هذا دليل عقلى ينهض مقنعاً لمن أراد البرهان بعيداً عن الغرض اللجوج ، وقد تلاه دليل تاريخى فيما تقدم به سجل الزمن من أحداث ، إذ كذبت أقوام نوح وصالح وهود ولوط وتبع بمثل ما كذبت به كفار قريش ، فحق عليهم الوعيد ، فكأن الخلف الجاحد من قريش يتبع السلف الجاحد من السابقين دون استبصار ، وإذا كان المكذبون من السالفين قد قوبلوا بالخسف والرجم والاستئصال فذلك جزاء كل معاند ضلول ، ثم يأتى بعد الاستشهاد التاريخى هـذا الاستفهام المفحم الملزم فى قول الله : « أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد » ، وهو استفهام يعيد التدليل فى صورة إنشائية تجعل الجاحد عيياً عن الجواب .

الرد على المنكرين وجدانياً :

ولا يعتمد القرآن فى البرهان على العقل وحده ، بل يضم إليه ما يعرف بالتأثير الوجدانى ، ليكون الإنسان بعقله وشعوره مستجيباً إلى الحق الصريح متى ابتعد عن الغرض المضل ، ومن بواعث هذا التأثير الوجدانى أن يعلم الجاحد أن الله قد خلقه عالماً بما تسوله نفسه إليه ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، وأين ينجو الجاحد من سيطرة خالقه ، وعليه رقيب عتيد ، فما يلفظ من قول إلا سجل فى الصحيفة دون إمهال ،

ثم يتصاعد التأثير الوجدانى إلى ذروته حين تتحدث السورة عن الاحتضار ، إذ جاءت سكرة الموت بالحق ، ثم عن الانتقال إلى دنيا المؤاخذة والحساب حين ينفخ فى الصور ، يقول الحق تبارك وتعالى فى إيجاز معجز :

« وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۝ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۝ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ۝ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مَّنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝ الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۝ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ۝ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

لا أظن تأثيراً موقظاً للشعور أقوى مما تبعثه هذه الآيات الناطقة المصورة ، إذ تنقل المشاهد سريعة متوالية ، تثبت من سكرة الموت إلى النفخ فى الصور إلى موقف المؤاخذة ذات السؤال والجواب والإشهاد والتنصل والاختصام ، فالجزاء العادل الرادع ، وكل ذلك يحدث من الانفعال الحاد ما يستميل الشعور إلى النجاة استمالة ملزمة ، وإذا استجاب العقل للبرهان المنطقى وتأثر الوجدان بالعرض التصويرى ، فليس لعاقل أن ينكل عن داعى الحق إلا إذا ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله .

صور تان متقابلتـان :

ثم تتتابع الآيات المعجزة فى سورة (قٓ) فيقول الله عز وجل :

« يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ • وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ • هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ • مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ • ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ • لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » .

فالسؤال المقدم إلى جهنم ، وإجابتها بطلب المزيد ، ثم الانتقال إلى الجنة وقد أزلفت للمتقين غير بعيد ، مما يجعل الصورتين متقابلتين ، صورة المصير المفزع للجاحد ، وصورة المصير الضاحك للمؤمن ، موضع مقارنة نفسية لدى المتأمل ، وأى مشاهد يرى الصورتين ثم لا ينجو من الفزع إلى الأمن ، ومن النار إلى النعيم ؟ وإذا تحدثت سورة (قٓ) عن الجنة بإيجاز ، على حين أطنبت فى حديث العذاب ، فلأن الترهيب هنا أدعى للمقام من الترغيب ، وقد تكفلت سورة أخرى بالإسهاب فى حديث النعيم ، أما هذه السورة فقد اختصت بمواجهة منكرى البعث ، وقد كان استهزاؤهم الساخر بهذا اليوم مما يدفع إلى الإفاضة ، لأن المنكر الجاحد ليس بحاجة إلى أن تحدثه كثيراً عن نعيم لا يصدقه ، إنما حاجته الأولى أن تقرع صفاة قلبه بحديث مفزع عن نار تنتظره ، وموقف للحساب يخزيه ، ولعل مما يخلع فؤاده أن يسمع السؤال يقدم إلى جهنم : هل امتلأت ؟ فيأتى الرد : هل من مزيد ؟

دلائل القـدرة :

ويتجه الحديث إلى القدرة القادرة ، لعل شاكاً يشك ثانية فى البعث ، فهو فى حاجة إلى أن نذكره ثانية بمن خلق السموات والأرض فى ستة

أيام دون أن يمسه تعب أو لغوب ، فإذا لم يفد التذكير فعلى الرسول أن يسبح بحمد ربه ، وذكر التسبيح مراداً به الصلاة فى هذا الموقف ، كما ذهب إليه كثير من المفسرين ، مما يقدم العلاج النفسى للمؤمن فى أزماته ؛ لأن الصلاة فى صميمها انقطاع عن العالم البشرى بمآزقه المحرجة وقتاً يقصر أو يطول ، تتجدد فيه النفس حين تتصل بالسماء ، فتنسى جواذب الأرض ، وتأمل فى نصرة القوى الرحيم ، وإذا كانت السورة الكريمة فى لبابها الخالص خاصة بأدلة البعث الأخروى فقد عادت إليه فى ختامها لتعرض مشهداً تأثيرياً من مشاهد القيامة ، إذ يقول الله عز وجل :

« وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۝ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ۝ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ».

ذلك حشر علينا يسير ! هذا فصل الخطاب ، وقد نهض به أنصع الدليل ؟ ولن يكون الجحود إلا بغرض ضال وهوى عنيد !

وذلك ما هدفت إليه سورة (ق) ، فجاءت عظة بالغة ، يخطب بها رسول الله من فوق منبره مكرراً حتى حفظها الصحابة والصحابيات ! وأصدق ما نقوله عنها ما جاء بها من قول الله عز وجل :

« إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ».

الدين والوازع الخلقى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » . (صدق الله العظيم)

١ ــ رأى الماديين فى نشأة الخلق الإنسانى :

ينكر الماديون أن تكون هناك صلة ما بين الدين والخلق ، إذ يرون الوازع الخلقى قد تكوّن تلقائياً لدى الإنسان فى عصوره الأولى خضوعاً لما صادفه من صعاب ، فهو حين كان يأوى إلى الغابات ويتغذى بالثمار والفواكه ، لم تكن لديه فى رأيهم حاسة خلقية تدفعه إلى الخير وتثنيه عن الشر ، بل كان يندفع كالحيوان إلى حاجاته الجسمية تلقائياً دون نظر ، فهو فى هذا الدور يتصرف بمحض الغريزة ، وما زال كذلك حين اضطرته عوامل البرد فى الشتاء وما يسقط من الأمطار والثلوج إلى أن يترك الغابات إلى المغاور والكهوف لتحميه مما يسبب الهلاك ، وهو عندهم قد رأى زملاءه يموتون تحت عوامل الإفناء المروعة ، فرأى أن ينجو بنفسه ، ثم هو مضطر إلى اصطياد رزقه ، ولكن وحوش الأرض من آساد ونمور وذئاب وضباع تعترض طريقه ، ولابد من مقاومتها ، فهى تتسلح بالأنياب والمخالب ، ولابد من تعاون بنى الإنسان لدرء ما يصادفه من غزوات الوحوش ، وإذا تعاون مع غيره فلابد أن يعمل على إرضاء من ينضم إليهم ، وأن يعرف لهم بعض الحقوق ، كما عليهم أن يحترموا رغباته ، ومن هنا شرع المجتمع يضع قواعد للسلوك تحفظ حق الفرد وتمنعه أن يعتدى على سواه ، وكانت هذه القواعد

بدائية فى أولياتها ثم أخذت تتفرع وتتسع بتقدم الأيام حين نشأت الأسرة فالقبيلة فالدولة ، حتى أصبح لدينا قانون أخلاقى لا تجوز مخالفته !

والإنسان فى نظر هؤلاء الماديين لا يكاد يفترق عن النمل أو النحل حين يضطر إلى التعاون الجماعى سعياً وراء المنفعة ، فالتعاون لديه عمل غريزى أكدته الحاجة ، ودعت إليه الضرورة ، وكذلك نجد الوازع الخلقى لدى الإنسان قد نشأ متدرجاً بتأثير أحواله الاجتماعية ، وسيتدرج فى نهضته بتدرج أحواله حيث تأتى عصور قادمة ببعض القواعد الأخلاقية التى لا نلتزمها الآن .

٢ ــ الدين مصدر الخلق القويم :

وحين نترك هؤلاء إلى غيرهم من ذوى الرسالات السماوية فإننا نجدهم يرون الإنسان قد ولد مزوداً بالوازع الخلقى ، لأن الله عز وجل حين علّم آدم الأسماء قد أوضح له طريق الخير وطريق الشر ، وقد زوده بما ينفعه من الصالحات ، وهداه النجدين ، وقد قال الله عز وجل فى كتابه : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » . فالنفس البشرية قد ألهمت معرفة الفجور والتقوى إلهاماً كان المصدر الأول للوازع الخلقى فى هــذه النفس ، ومن هنــا يختلف الحيوان عن الإنسان ، لأن الحيوان يسير فى دنياه بمقتضى غريزته التى تدفعه إلى حفظ الكيان بالتغذية وبقاء النوع بالتناسل ، أما الإنسان فقد سماه بعقله حين عرف الخير والشر فطرياً بحكم تكوينه ، وبإحساسه حين رزق العاطفة الداعية إلى الرحمة والإحسان .

والمأساة الإنسانية الأولى على الأرض تظهر مكان الوازع الخلقى فى النفس ، وتدل على أن صوت الضمير يبعث تحذيره من دوافع الشر ، كما يرسل صيحات الندم والأسف لدى وقوع الكارثة ، فحين تنازع

قابيل و هابيل، إذ قدّما قربانين ، فتقبل الله أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، صاح قابيل لأقتلنك ، وكان هابيل عاقلا يهتدى بوازعه الخلقى ، فرد عليه فيما حكى الله عنه :

« لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ » .

وقائل هذا الكلام يعرف معنى الإثم ومعنى الظلم ، وهو بالتالى يعرف معنى العدل والطاعة ، وغريمه يعرف ذلك ، ولكن شراسته قد أسكتت صوت الوازع لديه ، يدل على ذلك ندمه المفرط حين اقترف جريمته ، ورأى أخاه جثة هامدة يعجز عن دفنها حتى يرشده الغراب ! فيصيح منفعلا :

« يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ » .

٣ ـ الدين عنصر أصيل :

وإذا كان أصحاب نظرية التطور قد رأوا فى الدين أنه مجرد إحساسات غامضة ، اتجه إليها الإنسان الأول حين رأى العواصف العاتية من بروق ورعود وسيول تكاد تأتى عليه ، فعرف أن هذه القوى آلهة تتحكم فيه ويتقدم إليها بالقرابين ، وأخذ يؤمن بالقوة الغيبية حين جهل التعليل العلمى لحوادث الطبيعة ، إذا كان أصحاب هذه النظرية يذهبون إلى ذلك ليجعلوا المصادفة العمياء وحدها هى التى أوجدت الكون ، وليطمئنوا إلى ذلك مكابرين ، فإن أهل الدراية من علماء الطبيعة أنفسهم قد اهتدوا إلى ما يناقض تخيلاتهم الموهومة ، ورأوا فى اللجوء إلى المصادفة العمياء

فى معرض التعليل العلمى ما يشبه المزاح المش ، إذ لا يعقل أن تنتظم أمور الكون فى دوراته الطبيعية على نحو لا يختلف ، وأن يتعاقب الليل والنهار والشمس والقمر منذ ملايين السنوات على سنن لا يشذ ، وأن تنشأ الحياة فى النبات والحيوان والإنسان مطردة على أحسن منهج ، ثم يكون ذلك كله وليد المصادفة العمياء ، فلابد أن يكون هناك صانع حكيم فطر الكون على أبدع نظام ، ولابد أن يكون الإنسان الأول قد زود بمعرفة الخير والشر إلهاماً من ربه الخالق .

وقد قاوم الباحث الألمانى الكبير الأستاذ (ماكس موللر) شبهات الماديين فى كتابه (الدين وترقيه) جازماً بأن الناس فى عهودهم القديمة كانوا أصحاب توحيد فى الدين ، وأن تعدد الآلهة لم ينشأ إلا بعد انتكاس الطبائع ، ولم يكن تأليهاً لمظاهر القوة فى الطبيعة بنوع عام ، وإذا كان الإنسان الأول قد عرف التوحيد فقد آمن بالعدل والإحسان وميز الخير والشر ، استجابة لدعوات الأنبياء ، وسيراً وراء النظرة الهادية ، وقد خلق الله الإنسان فى أحسن تقويم مظهراً ومخبراً وصورة وفكرة لولا ما اكتنفه من غشاوات التضليل ومتاهاتها المظلمات !

٤ ــ دحض الشبهات :

وحين ننادى بتبعية الوازع الخلقى للدين ، لابد أن نستعرض شبهات من يذهبون المذهب المادى فى نشأة الخلق ، وأن نكر عليها بما يدحض أدلتهم الواهية ، ليتضح الحق دون خفاء .

فأول شبهة لديهم هى أن الجماعات البدائية لا يوجد لديها وازع من خلق ، لأنهـا ــ وبخاصة فى القبائل المتوحشة ــ تترك من الواجبات الأساسية نحو الآباء والأمهات والأطفال ما يدعو إليه الخلق العادى فضلا عن الخلق المثالى ، ونرد على ذلك بأن فترات الضلال هى التى

تطمس هذا الوازع ، لذلك اقتضت حكمة الله أن يرسل الرسل فى ظلام هذه الفترات ليهدوا الإنسانية إلى طريق الخير ، وإذا كان كل رسول يكافح العتاة ممن خالفوا أمره فإنه ينتصر فى النهاية ، إذ يستطيع أن يخاطب العامة بما يكشف ضلال هذه الأغشية ، وإذ ذاك تنجلى الحقائق شيئاً فشيئاً على يده حتى يعود للوازع الخلقى حصانته المنيعة ، وإذا كنا نرى القطة ترتكس فى بعض أحيانها فتأكل أولادها ، مع أن غريزتها الأصلية تدعوها إلى الرعاية التامة بأفلاذ أكبادها ، فإن مثل هذه القطة لا تنهض دليلا على فقد الغريزة ، بل تدل على أنها استثناء شاذ من قاعدة مطردة ، وكذلك من يتنكر للوازع الخلقى من بعض الجماعات البدائية يمثل الشذوذ الإنسانى الذى لا يخرم القاعدة العامة ، بل يؤكدها أبلغ تأكيد ، فعلى الذين يضربون البدائيين مثلا لمذهبهم أن يبحثوا عن مثل آخر لو يستطيعون .

أما الشبهة الثانية فهى ما نجده من تناقض فى السلوك الأخلاقى لدى الناس ، إذ نجد بعض الأمم تعتقد الخير فى شىء ، على حين تعتقد أمة أخرى أنه شر كل الشر ؛ فالرق كان أمراً لا معابة فيه عند فريق عاقل متزن ، وهو الآن جريمة نكراء ، وقد كانت المرأة سلعة تباع وتشترى عند الإغريق — وهم أهل الحضارة الفكرية ، وأنصار الفلسفة العقلية — وهى اليوم شقيقة الرجل وصاحبة حق مثل حقه ، والبوذيون — وقد اشتهروا بالرحمة — يرون قتل الحيوان للضار ، كالثعبان والعقرب ، جريمة نكراء ، وقصارى أمرهم أن يتحاموا أمكنة كل شرس متوحش ، وقتل الضوارى عمل مشروع لا حرمة فيه ، والانتحار فى عصر الرومان أداة افتخار ودليل تضحية وشرف ، وهو فى الأديان بعامة جريمة لا تغتفر ، إذ لا يملك الروح غير فاطر السموات والأرض ، وحرمة مال

الغير لدى بعض الطوائف ليست كحرمة مال من ينتمون إلى مذهبهم الدينى ، ولكن المال اليوم ذو حرمة ، سواء كان مال عدو أو صديق!

هذا التناقض فى المذاهب الخلقية يوحى أنها لا تجد مصدرها فى الدين ، بل تتألف من عادات المجتمع ومثله الشخصية دون هيمنة سماوية!

والرد على هذه الشبهة سهل واضح ، لأن هذه الخلافات لا تتعدى الفروع العريضة ولا تتوغل إلى الأصول الثابتة فى أرض الأخلاق ، إذ لا يوجد خلاف بتاتاً بين جميع الأمم شرقاً وغرباً على الأسس الثابتة لقواعد الأخلاق ، كإقامة العدل والإحسان ، وإسعاف المحتاج ، وعلاج المريض ، وعقاب المجرم ، وجزاء المصلح ، وتعهد الضعفاء بالبر والكفالة ، وتدارك الطفولة بالتربية ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

وإذا كانت لدى بعض الأمم خلافات فى المذهب السياسى فليس ذلك بمانع أن تتفق جميعاً على منهج للإصلاح الخلقى العام ، وأول مصادره الكتب السماوية ، التى ترسم للبشرية طريقاً قويماً لا يميز عنصراً عن عنصر ، ولا يرفع قوماً عن أقوام ، بل يهتف بقول الله عز وجل :

« يـأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » .

وإذا وجدت حكومات عنصرية تنادى بالطبقية وتميز البيض عن السود ، فقد خالفت قواعد الخلق ، وشذت عن أوامر الدين ، فهى ذات انتكاس يتطلب الإنقاذ .

٥ ـ ارتكاز الخلق على الدين :

بقى أن نشير إلى الدلالة الهامة لارتكاز المبدأ الخلقى على الدين ، حين نقرر أن الدين يؤدى دوره الخلقى كاملا حين يكون مصدر ارتكاز لهذا الخلق ، فصاحب المعتقد الدينى يلتزم بالأخلاق الفاضلة استجابة لأوامر دينه ، فهو يخاف الله قبل أن يخاف القانون ، فإذا سرق أو قتل أو فجر عرف أن السماء رقيبة عليه وأنه لن ينجو من عقابها إلا بالتوبة النصوح ، فأخذ يعمل على الرجوع إلى ربه نادماً مستغفراً ، ومصراً على الإقلاع عن الذنب دون معاودة ، أما صاحب الخلق الذى لا يؤمن بدين فأكبر ما يخشاه أن يقع تحت سيطرة القانون فتؤاخذه الدولة بجرمه ، وإذا نجا من مسئولية القانون فقد انتهى كل أمر بالنسبة إليه ، وله أن يعد نفسه بريئاً إذ لا يؤاخذه أحد ، وفى ذلك حث على الجريمة ، إذ ما أكثر أن تمنع الاحتياطات الدقيقة ظهور الجرائم ، فينجو المجرم من العقاب ! ولصلاح المجتمع لا بد أن ترتبط الأخلاق بالدين ، وأن يعلم كل فرد أن عين الله ساهرة لا تنام .

إن صلة الدين بالوازع الخلقى لا تحتاج إلى إيضاح لدى من يؤمنون بالله ، وإذا احتاج غيرهم إلى مزيد من الإيضاح ففى ما تقدم ما يقنع ويفيد .

ابن سينا وخلود الروح

يحار الإنسان كل الحيرة حين يعرف أن مؤلفات الرئيس أبى على ابن سينا قد بلغت مائتين وستة وسبعين مؤلفاً ما بين كتاب ورسالة وقصة ، مع أنه صحب الحياة ثلاثاً وخمسين سنة فقط ، فكيف تسنى له أن يكتب فى أعقد المشكلات الفكرية ، والمسائل العلمية ، هذا الحشد الهائل من المؤلفات ؟

نحن نعلم أن الطبرى وابن الجوزى والسيوطى من مؤلفى العصور الماضية قد ترك الواحد منهم ما يبلغ هذا التراث ، ولكن الفرق واضح بين من يكتب فى الفلسفة والمنطق والطب ، ومن يكتب فى التفسير والتاريخ وعلوم اللسان مثل هؤلاء ، فابن سينا ينحت فى طريق صخرى كثرت التواءاته ، وقامت دونه الأشواك ؟ وأى علم أشد من الفلسفة تعقيداً وغموضاً ؟ أما الذين يكتبون عن التاريخ والتفسير فجهدهم الفكرى مهما بلغوا قمم الإبداع أقل عناء من جهد ابن سينا .

والمسألة بعد ليست مسألة كم وعدد فحسب ، بل مسألة جوهر وكيف ، وكتب ابن سينا دون نظر إلى الناحية العددية ذات جوهر نفيس ، إذ بها أصبح قمة من قمم الفكر الإنسانى بعامة والفكر الإسلامى بخاصة ، ومن الطبيعى أن يخالفه المخالفون فى كثير مما كتب ، فلكل مفكر ناقدوه الأصلاء ، وما كان لعالم أن يدعى الكمال فى كل ما يبدع ، وحسب ابن سينا أنه كان مصدر عطاء للفكر الإنسانى وأن مؤلفاته موضع نظر وتأمل وإفادة وانتقاء ، وأن اسمه يتألق بين كبار الأسماء .

وسنقتصر حديثنا الآن على نصيب النفس الإنسانية من إبداع الفيلسوف ، والنفس الإنسانية كانت — ولا تزال — الشغل الشاغل لكل مفكر يحاول أن يكشف عن سرها ما غمض ، فإذا اتجه ابن سينا إلى الحديث عنها ، ثم إذا استقر حديثه المتصل الملح على مرفأ يؤكد بقاءها الدائم ، وخلودها المستقر ، فإن من الواجب أن نقدم للقارئ خلاصة لبعض ما قال ، وأقول لبعض ما قال صادقاً ؛ لأن الفيلسوف الكبير لم يترك حديث النفس وخلودها فى سنة من سنوات حياته العلمية ، وكأنه كان يستشعر فى أعماقه ظمأ يتطلب الرى ، وكلما ازداد شراباً ازداد شوقاً وتطلباً . وقد تحدث عن النفس بلسان الفيلسوف وبلسان الشاعر وبلسان القاص ، واستيعاب هذه المناحى المتشعبة من أفانين القول مما يتطلب مجلداً برأسه ، وسبيلنا فى هذا البحث الموجز أن نختار لكل لون ما يشير إليه دون استقصاء .

وقبل أن نقرر ما اهتدى إليه ابن سينا فى خلود النفس ، نشير إلى أن أكثر الكاتبين يجعلونه فى أمر الروح تابعاً لأفلاطون ومتأثراً به وحده ، وقد نسوا أن الفيلسوف مؤمن يدين بالإسلام عن حمية واقتناع ، وأن مذهبه فى خلود الروح ينهض على أسس من اعتقاده الدينى ، وإن امتد الرجل الكبير باطلاعه إلى التراث الإنسانى المتواتر عن اليونان ، إذ ليس معنى دراسته لهذا التراث أنه وحده كان صاحب التأثير عليه فى إيمانه بخلود الروح ، وإذا كنا نعرف من حياة ابن سينا التى كتبها بقلمه أنه كان إذا قرأ كتاباً فلسفياً معقداً ولم يفتح الله عليه بشىء من مضمونه ، ترك الكتاب ، ولجأ إلى الوضوء ، واستقبل القبلة مصلياً فداعياً ربه أن يسهل عليه العسير ، إذ لا أستاذ له سوى نفسه ، إذا كان الله عز وجل وجهته حين ينبهم القول ويخفى الدليل ، فإن كتاب الله أول هاد له فى مسألة خلود الروح ، وأدلة القرآن على خلود الروح

أكثر من أن تحد ، وإذا كان الفيلسوف يقرأ سورة الواقعة كل ليلة ، فلا شك أنه كان يتأمل ختامها الصريح مستجيباً مطمئناً لقول الله عز وجل :

« فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِن أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَـذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ »[1] .

فالتأثير الإسلامى لدى الفيلسوف فى هذه المسألة بالذات مما يجب أن يكون موضع التأكيد، وإذا أغفله الغرباء فكيف نسكت عنه نحن ؟

مكث الفيلسوف ـ كما قلنا ـ طول عمره يتحدث عن خلود النفس ، وإذا كان لكل مفكر أن يعدل آراءه حين يرى ما يوجب التعديل دون أن يؤاخذه ناقد ما بعدم الاستقرار على رأى واحد ، فإن ابن سينا لم تزده الأيام إلا يقيناً بما ذهب إليه منذ عشق البحث الفكرى من الجزم بخلود النفس البشرية ، وليتنا كنا نعرف ترتيب كتبه زمنياً لنتابعها فى تسلسلها المطرد ، ولكن الاختلاف قائم فى أسبقية بعض الكتب عن سواها ، والأمر سهل فى مسألة النفس بالذات ، لأن اتفاق

---

(١) سورة الواقعة ، الآيات من ٨٣ إلى ٩٦

الكاتب فيها على رأى واحد من مبدإ أمره إلى خاتمة حياته ، مما يجعل الترتيب الزمنى ليس بالمحتوم ، وسبيلنا الآن أن نشير إلى بعض الأدلة التى اهتدى إليها الفيلسوف الكبير :

١ — يؤمن الفيلسوف بوحى البداهة الذى يصدر عفواً دون احتمال ، فيكون تعبيراً طبيعياً عما يعتقده الإنسان ، هذا الوحى البدهى كثيراً ما يكون فى مرتبة المسلمات ، إذ يصادف إجماعاً بحيث لا يعارضه إلا من يتعمد المعارضة لذاتها ، لا لأنه يلمس من بواعث قلقه ما يدعوه إلى المعارضة ، والمعارض حينئذ يصطدم بسامعيه لا محالة ، لأنه يفاجئهم بما لا تستجيب إليه أهواؤهم المعتدلة ، ومن وحى البداهة الذى يعتمد عليه ابن سينا فى مجال الدعوة إلى خلود الروح ، أن الإنسان يفصل بداهة بين جسمه وفكره ، فإذا قال : أنا فعلت كذا ، أراد أن تفكيره المتولد عن نفسه هو الذى فعل ، ولم يرد حينئذ أن رأسه أو وجهه أو يده أو رجله هى التى فعلت ، فالفعل قائم لا محالة فى ذهنه وفى أذهان الناس بين النفس والبدن ، هذا الفصل النظرى يؤكد أن الروح غير الجسم ، وأن الجسم إذا فنى أمامنا عياناً بأن أحرقت الجثة ، أو تلاشت فى تراب القبر ، فليس معنى ذلك أن الروح قد تبعته فى الفناء والتلاشى ، إذ هما شيئان منفصلان .

يقول ابن سينا فى رسالة عن معرفة النفس الناطقة : « إن الإنسان إذا كان منهمكاً فى أمر من الأمور فإنه يستحضر ذاته ، حتى إنه يقول : إنى فعلت كذا ، وفعلت كذا ، وفى مثل هذه الحالة يكون غافلا عن جميع أجزاء بدنه ، والمعلوم بالفعل غير ما هو مغفول عنه ، فذات الإنسان مغايرة للبدن لا محالة »[1] .

---

(١) معرفة النفس الناطقة لابن سينا ، ص ٩

ويرتب ابن سينا أحوال الإنسان فى اطراد عمره مع الحياة، فيجد أن أعضاءه الجسمية تضعف بمرور الزمن ؛ فالسمع قد يثقل ، والبصر قد يغيض نوره ، والنشاط الحركى قد يفتر ، وكل ذلك يبدأ عادة بعد الأربعين من العمر ، ولكن النضج العقلى لا ينقص ، بل يزيد اكتمالا ، ونحن نرى شيوخ العلماء وعباقرة الأدباء يبدعون فى سنّ الشيخوخة ما لم يستطيعوا أن يبدعوه فى سن الشباب ، لأن العمل العقلى وليد الروح ، أما النشاط الحركى فناشئ عن الجسم ، وهما منفصلان ، إذ هما شيئان لا شيء ، ولو كان كما يقول الماديون شيئاً واحداً لهبط الإنتاج العقلى بانحطاط القوى الحركية وتخاذل الأعضاء فى الكيان الإنسانى . أما ما يشاهده المتأمل من مظاهر النسيان لدى الشيوخ فليس وليداً لضعف الروح ، ولكنه من تأثير التفاعل العضوى ، فالذاكرة تحتل فراغاً عضوياً تهين أسبابه بتقدم الزمن ، ولو كان التذكر نشاطاً عضلياً ما تعرض المرء فى شيخوخته للنسيان .

يقول ابن سينا : « لا شك أن الجسم الحيوانى والآلات الحيوانية إذا استوفين سن النمو ، وسن الوقوف ، أخذن فى التنقص والذبول وضعف المنة وكلال القوة ، وذلك عند الإنافة على الأربعين سنة ، ولو كانت القوة الناطقة العاقلة قوة جسمانية آلية لكان لا يوجد أحد من الناس فى هذه السنين إلا وقد أخذت قوته هذه تنتقص ، ولكن الأمر فى أكثر الناس على اختلاف هذا ، بل العادة جرت فى الأكثر أنهم يستفيدون ذكاء فى القوة العاقلة وزيادة بصيرة ، فإذن ليس قوة القوة المنطقية بالجسم والآلة ، وإذن هى هى جوهر قائم بذاته[1] .

---

(١) رسالة القوى النفسية لابن سينا ، ص ٧١

ونحن نرى أمثال الجاحظ وأبي العلاء المعرى وأبي حيان التوحيدى في الفكر العربي قد واصلوا إبداعهم حتى تجاوزوا التسعين من الأعوام، ولو اطرد النشاط العقلي مع النشاط الجسمي في مجرى واحد ما انحطت قوى الشيخ وانقد فكره ؛ فالروح والجسم جوهران كل قائم بذاته ، ولا يتحتم أن تفنى الروح بفناء صاحبها المشهود .

يؤكد الفيلسوف انفصال الروح عن الجسم ، لا ليقول بخلود الروح فحسب ، بل ليدعو إلى العمل الصالح والتزام شرع الله كما جاء به الإسلام ، وإلى مصاحبته الأخلاق الحميدة ، لأن ذلك كله مما يقمع النفس الأمارة بالسوء ، ويرى الفيلسوف أن ممارسة الصالحات من الأعمال تجعل النفس مرآة صقيلة تنطبع عليها صور الأشياء الحميدة ، ومعنى ذلك أن يكون صاحبها في مستوى خلقي طاهر ينأى به عن السيئات ، فتستقيم سيرته على غير اعوجاج ، فيكسب الحياة الدنيا بالعمل الصالح ، ويكسب الآخرة كذلك حين تخلد روحه وتحاسب على ما قدمت من أعمال .

يقول ابن سينا : « وهذه النفس جوهر قائم بذاته ، غير منطبع في بدن الإنسان ، ولا في غيره من الأجسام ، بل هو مفارق للمواد والأجسام مجرد عنها ، وله علاقة ما ببدن الإنسان ما دام حياً » .

ثم يقول ، داعياً إلى التزام أمور الشرع :

« وسعادته بتكميل جوهره ، وذلك بتزكيته بالعلم بالله ، والعمل لله ، وتزكيته بالعمل لله هو تطهيره عن الأخلاق الرذيلة الردية ، وتقويمه عن الصفات الذميمة ، والعادات السيئة القبيحة عقلا وشرعاً ، وتحليته بالعادات الحسنة والأخلاق الحميدة والملكات الفاضلة المرضية عقلا وشرعاً » .

ثم قال : « وأما البرهان على إثبات جوهرية النفس الناطقة وقيامها بذاتها ، وتجردها عن الجسمية ، وعدم انطباعها فى الجسم وبقائها بعد فساد البدن ، وكيفية أحوالها بعد الموت ، أهى منعمة أو معذبة ، ففيه طول وبسط ولا نكشف ذلك إلا بعد مقدمات كثيرة ، وقد اتفق لى رسالة مختصرة فى بيان معرفة النفس وما يتعلق بها فى بداية أمرى منذ أربعين سنة على طريقة أهل الحكمة البحثية[١] .

ومعنى ذلك أن الرجل منذ كتب الرسالة فى سن مبكرة جداً ، لم يحل عن رأيه إذ وصل به إلى درجة الاعتقاد الجازم فلا مناص .

ومن أقوى ما اهتدى إليه ابن سينا من براهين خلود الروح ما أسماه أستاذنا الدكتور إبراهيم بيومى مدكور « برهان الاستمرار » وخلاصته أن أحاسيس الماضى تضطرد مع أحاسيس الحاضر واصلة إلى أحاسيس المستقبل وكأنها فيض يتدفق من منبع واحد إلى مصب واحد دون أن يعترضه ما يفصل شيئاً عن شىء ؛ فالإنسان بفكره ثابت لا ينقصه شىء طيلة حياته ، وقد يفقد عضواً من أعضائه ، كيده أو رجله ، فلا يؤثر ذلك شيئاً فى نقصان الفكر ، وقد تتغير خلاياه وتتبدل دون أن يتغير مجرى تفكيره بتغيرها ، ولو كان الجسم والنفس شيئاً واحداً لكان لتغير الجسم أثره فى تغير النفس ، بل لكان نقص الجسم مسبباً لنقص معلوم فى التفكير والإحساس ، وهذا ما لم يحدث ، لأننا نرى المقعد الذى بتر ساقاه محافظاً على تفكيره وإحساسه كما كان من قبل ، وربما نكون فى هذا العصر أكثر تقديراً لتبدل الخلايا الجسمية ممن كانوا فى زمن ابن سينا ، فنكون بذلك أقرب إلى الجزم منهم إذ أشهدنا اطراد

---

(١) رسالة النفس الناطقة ، وقد نشرتها مجلة الكتاب لأول مرة ، ص ٤١٩ من المجلد الحادى عشر ، وهى غير رسالة معرفة النفس الناطقة التى سبق الاقتباس منها .

الكشف العلمى ما لم يشهدوه ، وإلى ما تقدم يشير ابن سينا بقوله(١) :

« تأمل أيها العاقل فى أنك اليوم فى نفسك ، هو الذى كان موجوداً فى جميع عمرك ، حتى أنك تتذكر كثيراً مما جرى من أحوالك ، فأنت إذن ثابت مستمر لاشك فى ذلك ، وبدنك وأجزاؤه ليس ثابتاً مستمراً ، بل هو أبداً فى التحلل والانتقاص ... ولهذا لو حبس عن الإنسان الغذاء مدة قليلة نزل ، وانتقص قريب من ربع بدنه ، فتعلم نفسك أن فى مدة عشرين سنة لم تبق شىء من أجزاء بدنك ، وأنت تعلم بقاء ذاتك فى هذه المدة ، بل جميع عمرك ، فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة » .

أما علاقة الروح بالجسم فقد كانت موضع تصور عقلى لدى كبار القائلين بالثنائية من لدن أفلاطون حتى فلاسفة الروحية فى عصرنا الراهن ، وقد أشبع ابن سينا الحديث فى إيضاح هذه العلاقة وأتى بما لا يتعذر فهمه على منصف ينشد الحقيقة لذات الحقيقة حين جعل النفس متصلة بالجسد اتصالا وثيقاً ، لأنهما مصدر حياته ، ولا نفع له بدونهما ، كما أنه لا يمكن تصور النفس فى عالمنا المادى دون جسم ونقول فى عالمنا المادى ، لنخالف من يذهبون إلى إنكار وجودها بعد الموت ، وفى هؤلاء من يتشبث بأدلة يعتبرها عقلية ، وكونها عقلية لديه لا تجبرنا على أن ننزلها منزلة تنتقل بها من حيزها المعترض عليه ، ولا ينكر ابن سينا أثر النفس فى انقباض الجسم وانبساطه ، بل يؤكد العلاقة المتبادلة بين الجارين المصطحبين حين يقول :

« انظر أنك إذا استشعرت جانب الله وفكرت فى جبروته ، كيف يقشعر جلدك ، ويقف شعرك ، وهذه الانفعالات والملكات قد تكون

---

(١) الإشارات لابن سينا ، ص ١٢٢

أقوى وقد تكون أضعف ، ولولا هذه الهيئات ما كانت نفس بعض الناس بحسب العادة أسرع إلى التهتك أو الاستشاطة غضباً من نفس بعض» .

هذه بعض أدلة ابن سينا الفلسفية على خلود الروح ، نرسم بها صورة مصغرة لبناء ضخم عال الصرح ممتد الجنبات ، نقلته آلة التصوير على ورقة صغيرة لا لكى تظهره كما هو شامخاً باذخاً ممتد الجنبات على بساط الأرض ، مرتفع الأبراج فى أجواز الفضاء ، بل لكى يراه الناظر فيوحى له المشهد الصغير فى يده بحقيقة المبنى الكبير فى امتداده الفسيح وعلوه البعيد .

- ٢ -

لقد تمكنت فكرة الروح الخالدة من نفس ابن سينا بحيث يخيل إلىّ أنها كانت شغله الشاغل ، آية ذلك أنه لم يكتف بترداد الحديث عنها فى كتبه الفلسفية ، إذ انتقل بها إلى عالمى الشعر والقصة ، ولو كانت خطب الحكماء مما يسجل لحسبت أنه تناول حديث النفس فى خطبة ما . لقد كان ابن سينا يهفو إلى الشعر ناظماً ما يسنح له فى مقطوعات وقصائد وأراجيز ، وقد اشتهرت بين الأدباء قصيدة ابن سينا (العينية) وهى التى تتحدث عن هبوط الروح من المحل الأرفع فى عالم الغيب إلى الجسد الأرضى فى عالم الشهادة ، والقصيدة بمعانيها وأخيلتها وألفاظها لا تستغرب من ابن سينا ، أما المعانى فهى هى التى اعتقدها الفيلسوف وأكثر ترددها ، أما الأخيلة فقريبة المنال بحيث لا تستعصى على حكيم قوى التخيل ، وأما الألفاظ ففى بعضها جفاف يدل على معدن الفيلسوف ، لذلك تعجبت كثيراً أن يشك الدكتور أحمد أمين فى نسبتها للشيخ الرئيس فيقول[1] :

---

(١) مجلة الثقافة ، العدد (٦٩١) (٢٤/٣/١٩٥٢ م) .

« واشتهرت هذه العينية بأنها لابن سينا ، والناقد الأدبى يقطع بأنها ليست له ، لأنه إذا تذوق ما لابن سينا من شعر وأراجيز وتذوق هذه العينية يرى أنها أرقى بكثير من شعر ابن سينا ؛ فابن سيناغامض اللفظ فى شعره وفلسفته ، سمج التعبير » .

وقد حكم الدكتور أحمد أمين بأن الناقد الأدبى بجزم بأنها ليست له ، وأكثر مؤرخى الأدب نقاد ينسبونها لابن سينا مطمئنين ، فليت الرجل قال : إن الناقد يشك ، بدل قوله يقطع ، على أنى لا أرى مجالا للشك ، فإن القصيدة ليست من الروعة الخارقة بحيث يجب أن يقولها شاعر لا فيلسوف ، بل إن الشاعر يتأبى أن يقول مثلا :

حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها ... من ميم مركزها بذات الأجزع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت ... بين المعالم والطلول الخضع

أما قصة الروح فى عينية ابن سينا فقد ألهمها الشاعر الفيلسوف فى ساعة إشراق ، ساعة تنير فجأة فى نفس قائلها ، فتلهمه تصوير ما يختلج من معانى فى نمط مؤثر أخاذ ، إن أصحاب الصفاء الوجدانى يعرفون هذه الساعات جيداً ، وابن سينا يعرف الموضوع سلفاً ، إذ طالما ناقش فيه وجادل وخاصم ، وطالما سود من بياض الأوراق ، وملأ من أسماع التلاميذ ، فلم يبق إلا أن يختار صورة ترمز لهذه المعانى ، وأقرب ما يفد على الخاطر بإزاء الروح هو صورة « الورقاء » فلتأت هذه الشاردة لمن الملإ الأعلى ، وليفصح الرئيس عن تصوره فيقول مصوراً :

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تدلل وتمنع

أترى مقدار إعزاز الرئيس لهذه التى هبطت من أعلى مكان ، إنها ورقاء خفيفة رشيقة لم تقدم منكسرة ضارعة ، بل عزيزة متدللة متمنعة ،

ألم تك فى أعلى مكان من السماء ؟ ثم ألم تشبه بأجمل مثال للوداعة والإلف والحنان وهو الحمام ، أى هدية نفيسة تلك التى رفرفت فأحيت ، وهبت فأنعشت :

محجوبة عن كل مقلة ناظر وهى التى سفرت ولم تتبرقع

إن الروح معك تلازمك مغدّى ومراحاً ، ولكن حذار أن تحاول رؤيتها ، فليس إلى ذلك من سبيل ، أما لو طلبت آثارها فهى أوضح من أن تتستر بقناع ، ابحث عنها يا صاح بعقلك وحده فسوف يبلغك سماتها الدالة وأوصافها المعبرة ، أما أن تبحث عنها بعينك فلن ترى شيئاً.

وصلت على كره إليك وربما كرهت فراقك وهى ذات توجع
أنقت وما أنست فلما واصلت ألفت مجاورة الخراب البلقع

أجل هبطت الورقاء كارهة مكرهة ، ثم رأت أنه لا مفر من الاصطحاب والتلازم ، فخضعت لمشيئة خالقها ، ورأت أن ترضى بمكانها الجديد على أن تجعله نزلا عامراً بالفضائل ، مضيئاً بالمحامد ، فما زالت به علاجاً ومثابرة حتى أصبح وفق ما تشتهى ، فارتضته وألفته ، لقد كان جماداً قبل أن تحل فيه ، فغدا بها مفكراً حساساً مشرئباً للمثل الأعلى ، فقويت وشيجتها به ، وألفت مجاورته ، إذ لم يعد خراباً بلقعاً ، مثل ما كان .

إن الفيلسوف يرى أن من سمات الروح أن تسمو بصاحبها ليكون كفئاً لها ، فإذا ما عجزت عن أن ترتفع به ، وكان من التأبى والامتناع بحيث استعصى على كل علاج ، فهو غير جدير بها ، وسيظل خراباً بلقعاً كعهده قبل أن تشرق فى جوانبه ، لأن الروح فى مذهب الفيلسوف لا ينبغى أن تألف مجاورة الخراب البلقع راضية هانئة إلا إذا ارتفعت به ، فإذا تعذر عليها ذلك فهو الخراب الدائم وليس له معها وفاق .

يقول الدكتور زكى نجيب محمود فى التعليق على هذين البيتين :
« ولعلك تلاحظ أن فيلسوفنا قد عبر هنا عن العلاقة بينهما بلفظ المجاورة ، قاصداً متعمداً ، لأنه أراد لك أن تعلم أنها ليست من الجسد بمثابة الإبصار من العين مثلا ، يكادان يكونان شيئاً واحداً ، ولكنهما منه كالملاح مع السفينة ، يديرها ويدبر أمرها ، ثم هو بعد يستطيع أن يستقل بوجوده بعيداً عنها ، فهى علاقة تجاور لا علاقة دمج وإدغام »[1] .

وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ومنازلا بفراقهـــا لم تقنـع

هذا البيت يريح القارئ جداً ، لأنه فى حياته لايتذكر عهد الورقاء بالمكان الأرفع : أيكون وحده هو الذى ابتلى بالنسيان ، لشدّ ما خشيت ذلك حين قرأت عينية ابن سينا لأول مرة ، غير أنى بمعاودة القراءة وقفت عند هـذا البيت ، فعرفت أن لى زملاء كثيرين نسـوا عهودهم السالفة بالحمى الأرفع ، ولم يتذكروا منازلهم الأولى ، وأنه إذا كان ذلك فالله غافر راحم ، وقد يكون من أصحاب الشفافية من لا يزالون يذكرون ، فهم على الأرض وفى السماء معاً .

حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها من ميم مركزها بذات الأجزع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت بين المعالم والطلول الخضـــع

هنا يأتى الخطر المحيق ، لقد اتصلت الروح بالجسد ، وعلقت بها ثاء الثقيل ، لقـد تكبلت بأغلال المـادة ، فليس لها أن تنطق ، فللمادة شهوتها وأنانيتها وطمعها وحسدها ، لم تعدمترفعة عن المآرب كما كانت من قبل ، إنها الآن ذات ضرورات ملزمة من حيث طلبها للطعام والشراب والملبس والمسكن والجاه ، هى محبوسة فى كبولها الدنيوية ، وسير هقها الجسد بما يتطلب من إشباع ، وستظل تمتطيه حتى يجهد ويكل فيعود

---

(١) الرسالة : العدد (٩٣) مجلد سنة ١٩٣٥ م .

كالطلل الدارس ، وسيدب فيه الفناء عضواً عضواً ، وهى ترى تخاذله وتداعبه فتذكر العهد الماضى وتأسى على العهد الحاضر .

تبكى إذا ذكرت عهوداً بالحمى بمدامع تهمى ولما تقلع
وتظل ساجعة على الدمن التى درست بتكرار الرياح الأربع
إذ عاقها الشرك الكثيف وصدها قفص عن الأوج الفسيح المربع

وما دام الجسم يسير نحو نهايته متخاذلا متحللا ، فلابد أن تأتى هذه النهاية ذات يوم ، على أن هذه الروح ذات وفاء وإخلاص ، فكما جاءت مرغمة ستطير مرغمة ، لقد عاشرت صاحبها زماناً طال أو قصر ، فقضت معه شتى اللبانات ، وأشبعت مختلف الرغائب ، وتساقيا معاً كؤوساً دهاقاً من أفاويق الخير والشر ، فطبيعى أن تأسى على فراقه إذا خلّفته تصديقاً لقول ابن سينا الآنف .

وصلت على كره إليك وربما كرهت فراقك وهى ذات توجع

هذا المد والجزر ، هذا الأخذ والرد ، هذا الدفع والجذب ، مما يثبت ثنائية الروح والجسم ، ومما يؤكد عقيدة ابن سينا التى دافع عنها مخلصاً ، وكان متفائلا كل التفاؤل بنهايتها ، إذ أنها حين تطير فيما بعد سترجع إلى موطنها الأول ، وستتذكر كل ما نسيته أيام الحياة بعد أن ينكشف عنها الغطاء ، وذاك ما عناه ابن سينا بقوله :

حتى إذا قرب المسير إلى الحمى ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
وغدت مفارقة لكل مخلف عنها حليف الترب غير مشيع
هجعت فقد كشف الغطاء فأدركت ما ليس يدرك بالعيون الهجع

والذين تعبوا فى تحصيل (سائل ابن سينا الفلسفية ليدركوا خلاصة رأيه فى خلود النفس ، لا إخالهم يتعبون فى استكناه أسرار (العينية)

لأن الشعر قد رقرق من صلابتها فتراءت ذات رونق ، كما أوضح بالتمثيل ما قرّب البعيد وأدناه .

وإذا كان الشعر أبعد ذكراً من التأليف العلمى وأكثر تداولا بين الناس ، فإن آلاف الدارسين قد عرفوا رأى ابن سينا فى خلود الروح عن طريق هذه القصيدة أكثر مما عرفوه من كتبه المنهجية ، بل فى الدارسين من اكتفى بالقصيدة عن سواها من آثاره ، وقد رزقت من خصّها بمزيد من التحليل الكاشف مستبطناً سرائرها استبطاناً يدل على عمق ونفاذ ، كما رزقت من عارضها من كبار الشعراء ، ومن أشهرهم شاعر العصر أحمد شوقى ، حيث عاش فى جو الرئيس ، فنقل أصداءه كما تسمعها ، واستطاع أن يستعين بريشة المصور ليبرز فكرة هبوط النفس ثم ارتقائها حين شبهها بالشمس مشرقاً ومغرباً ، فقال أمير الشعراء[1] :

يا نفس مثل الشمس أنت أشعة ... فى عامر وأشعة فى بلقع
فإذا طوى الله النهار تراجعت ... شتى الأشعة فالتقت فى المرجع
لما نعيت إلى المنازل غودرت ... دكاً ومثلك فى المنازل مانعى
آذنتها بنوى فقالت ليت لم ... تصل الحبال وليتها لم تقطع
ورداء جثمان لبست مرقم ... بيد الشباب على المشيب مرقع
أسئمت من ديباجه فنزعته ... والخز أكفان إذا لم ينزع
ضرعت بأدمعها إليك وما درت ... أن السفينة أقلعت فى الأدمع

وجاء صاحب صدى الأيام فجعل الروح كالسحاب الهامر من السماء ، سقط من الأعلى فارتمى به البحر أبعد مرتمى بين الضفاف ، ثم اشتعل الهجير فأخذ يرفع الماء بخاراً فيتصاعد إلى السماء ثانية من الأرض ليعود كما بدأ ، وكذلك الروح ، يقول الشاعر[2] :

---

(١) الشوقيات ، جزء ٢ .
(٢) صدى الأيام ، ص ١٤٣ .

انظـــر إلى سحب السماء فإنهـــا ... من أفقك الأعلى بأوضح موضع
تسرى فتلهبها الرياح بسوطها ... فتخر باكيـة بأهـــتن مـدمـــع
وتفيض أنهاراً تدفـق صـدرها ... تحت الحيـا بالعارض المتقشع
فإذا غلى حرُّ الهجـير تبخرت ... وسمت إلى الأعلى كأن لم تهمع
فكذلك الروح ارتمـت من حالق ... حيناً وطارت مثل برق مسرع

وكذا يسبق صاحب الشفاء فيجعل الروح ورقاء تهبط من المحـل الأرفـع ، ويثنى صـاحب الشوقيات فيجعل الروح أشعة شمس تتفرق وتلتقى ، ويثلث صاحب صدى الأيام فيجعل الروح مطراً انهمر ثم سال بحراً ثم ارتفع بخاراً ، والصورة متعددة والفكرة واحدة .

ونترك الشعر إلى القصة ، والحق أن ابن سينا قد وفق إلى تصوير قصـة الروح الخالد نثراً بمـا لم يوفق فيـه شعراً ، أو قل على وجه الدقة بأعظم مما وفق فيه شعراً ؛ لأن الرجل قد أصاب فى كلا الاتجاهين ، وكانت إصابته فى الشعر جيدة ، وإصـابته فى النثر ممتـازة ممتازة ، كان رمز الطائر لايبرح مخيلته فى تصوير الروح ، فاتخذ الورقاء رمزاً لهـا فى القصيدة ، وهو هنا يتخذ للروح طائراً لم يعينه بذاته ، وإنما هو طائر بين الطيور ، قد يكون بلبلا ، وقد يكون عصفوراً ، وقد يكون شيئاً غير هذا وذاك .

رأى ابن سينا جماعة من الطيور أغراها الصيادون بالحب ، فاستجابت لهم وسقطت تأكل الحب ، فوضعت عليها الشباك ، ومكثت فى الأسر ، وكان ابن سينا — كما تخيل نفسه — طائراً معها ، فماذا وجد ؟ وجد أن الأسر قد اكتنف الطير ، وأنها شغلت عنه بما تأكل ، ونسيت أمسها الطليق فى فضاء الحرية مشغولة بيومها الحاضر فى شباك المادة .

هكذا يتحدث ابن سينا دائماً عن عهد الروح بالملإ الأعلى ، قبل أن تهبط إلى الجسم ، وقبل الخضوع لضروريات المادة ! !

ظلت الطيور سجينة مشغولة لا تقدر ما هى فيه من أسر ، بل كادت تطمئن إلى ما هى فيه ، منهمكة فى لذائذ الشراب والطعام ، ولكن المعجزة قد حدثت حين مدّ ابن سينا (الطائر أيضاً) بصره ذات يوم فوجد جماعة من الطيور قد خرجت ، وطارت إلى الفضاء الأوسع ، ولكن أرجلها لا تزال عالقة ببعض الحبال ، لم تستطع الخلاص نهائياً من قيد الأسر ، وهذه الحبال لا تقدر أن تعوقها عن الحركة ، ولكنها فى الوقت ذاته لا تزال متصلة بأرجلها ، ولابد من الجهاد للخلاص منها .

وكأنى بابن سينا يرمز بذلك إلى أن الإنسان لا يستطع التغلب على أهوائه جميعها إلا بمشقة وطول زمن ، فهو ينجو منها شيئاً فشيئاً ، بل إنه ينجو من الكثير ، ولا يكاد يتخلص من الجميع إلا بصعوبة مفرطة ، وقد جاهدت جماعة الطير هذه ، ومعها ابن سينا ، كى تخلص من بقايا القيود فى الأرجل ، حتى تم لها ما أرادت بفرط مجاهدة ، وعظيم مكابدة .

نظر ابن سينا إلى جماعة الطيور التى خرجت من الشباك مجاهدة ، فذكر حريته السالفة ، وحث رفاقه من الطيور على طلبها ، فترددت وناقشت ، ثم استجابت للعمل على الخلاص بعد إرشاد وتوجيه ومكابدة .

هكذا يصر الرئيس الشيخ على تجسيم المسئولية وفداحة الأعباء التى تعترض الإنسان حين يكافح ليصفو من أوضار أهوائه ، وينهض سالماً من وساوس النفس ومغريات المادة ، ولقد تحقق الكثير للجماعة فجاهدت وطارت ، ولكن أرجلها لا تزال عالقة ببعض الحبال ، ولابد من جهاد آخر ، ومهما يكن من شىء لقد صدقت جماعة الطير عزمها ، وارتفعت إلى السماء ، فأخذت تجتاز الأودية بين معشب ومخصب ، وناضر وقاحل ، ودافق وناضب ، حتى بلغت ما سماه الشيخ الرئيس بجبل الملك ووراءه عدد من القمم الشواهق لا بد من اجتيازها .

هنا رمز آخر للجهاد فى الخلاص من سائر الأوضار ، فهمت جماعة من الطيور بالتقاعس بعد أن أجهدها طول المسير ، وكابدت هول الرحلة على أصعب وجوههما ، ولكن جماعة أخرى قد ارتفعت لترى على البعد من وراء القمم خضر الجنان ، وزهر الرياض ، وأعظم مشاهد النعيم فى فردوس الجنان ، فقالت لرفاقها : هيا هيا . وتحمس الجميع ، فأخذ الطير يجتاز القمم واحدة واحدة ، وله أمل كبير أن يصل إلى النهاية المرموقة ، حتى بلغها ، وهناك رأى الطير ما لاعين رأت ، وسمع ما لا أذن سمعت : لقد بلغ حجرة الملك الأعظم ، وشاهد من جلاله وجماله وعظمته وكرمه ولطفه وحدبه ما خلب العقول وملك الأفئدة ، ورأت الطير نفوسها تنعم فى الملإ الأعلى فى دنيا الخلود .

فى هذا الحيز الضيق حاولت أن ألخص قصة الطير التى كتبها ابن سينا ليؤكد ما قاله فى قصيدته العينية بطريقة أخرى ، وليضيف إليها معانى المجاهدة والمكابدة ، وما أظننا ننتظر من فيلسوف مثله أكثر مما فعل ، لقد عبر عن فكرة خلود الروح بأقصى ما يمكن أن ينتظر من مثله .

على أن قصة الطير التى أبدعها الشيخ الرئيس كانت موضع استلهام من أتوا بعده ، فأبوحامد الغزالى وضع قصة مماثلة ، إذ جعل الطيور تجتمع لتختار ملكاً تحس من أعماقها بشوق إليه ، وتتخيله بالجزيرة البعيدة ، فتنهض طائرة إليه ، وتلاقى من أهوال الرحلة بعض ما كابدته رحلة الطير عند ابن سينا ، وكلما قطعت مرحلة فى الطريق زاد بها الوجد وتضاعف الحنين ، حتى بلغت مأربها بعد عناء .

وجاء فريد الدين العطار فأبدع فى قصة (منطق الطير) إبداعاً باهراً ، وقد افتن خياله افتناناً كبيراً حين قسم الطريق إلى أودية :

وادى الطلب ، ووادى العشق ، ووادى المعرفة ، ووادى الاستغناء ، ووادى الحيرة ، ووادى الفقر والغنى ، وختم القصة الطريفة بقوله :

« لقد عطرت يا عطار ، آفاق العالم ، وهجت العشاق فى كل مكان تارة تنفث العشق المطلق ، وتارة تغنى أغانى الحب لمن عشق ، ففى شعرك كنز العاشقين ، وزينة لا تفنى للوالهين ، قد أحاط بك منطق الطير كما يحيط بالشمس ضوء الشمس » .

ومحادثات البلبل والطاووس والببغاء والهدهد من أجمل ما يتحدر من مخيلة مفكر عاشق شاعر ، ولولا ابن سينا ما اهتدى العطار إلى التحليق فى هذه الآفاق الفساح .

نقول بعد ذلك كله : إن ابن سينا قد خدم قضية (خلود الروح) بما أيدها فى عالم الفلسفة والشعر والقصة ، وكان فى هذه العوالم كلها سابقاً غير متخلف ، ومجتهداً غير مقلد ، وموقناً غير مرتاب .

رحمه الله .

المرأة المسلمة فى المجتمع الغربى

ظهرت بحوث فى المجتمع الغربى تتحدث عن موقف المرأة المسلمة فى مجتمع أوربا وأمريكا ، لأن الباحثين الاجتماعيين من أبناء القارتين قد توقعوا شيئاً ، وأخلفتهم الظنون ، لقد توقعوا أن يروا المرأة المسلمة التى تعيش فى أوربا وأمريكا تسارع إلى اعتناق المبادئ الغربية ، ولعلها تكون داعية متحمسة لما ترى من أحوال المرأة الأوربية فتنهض فى قومها منادية بالمحاكاة التامة لزميلتها الأوربية ، توقعوا ذلك واعتقدوه ، وعملوا على سرعة تنفيذه ، فكتبوا الكتب الكثيرة التى تتحدث عن رقى المرأة الغربية بما اندمجت فيه من مظاهر التمدن ، ووزعوا هذه الكتب على الأندية الشرقية فى الغرب التى تجمع عائلات الدول الإسلامية ، ليكون مايقرأ السيدات والآنسات منبهاً يقظاً إلى سرعة الاندماج فى المجتمع الأوربى وإلى سرعة المناداة بمحاكاة السيدة الغربية فيما تأخذ وفيما تدع من أسباب الحياة ، ولكن الأيام والسنون تتعاقب ، ولا يجد هؤلاء المتشوقون إلى سرعة الالتحام والاندماج بارقة أمل توحى بتحقيق الرجاء ، بل وجدوا فى الأكثر الأغلب من المرأة المسلمة عزوفاً عن التبذل الأوربى ، والإسفاف الحضارى ، وشدة معارضة لمن يحاول أن يفسح أمامها طريق التبذل وسبيل الانزلاق ، أقول فى الأعم الأغلب ، إذ لا نعدم فرادى من ضعاف النفوس قد جذبتهن البوارق ، فشغفن بالتقليد حيناً من الدهر ، حتى إذا جبهتهن عواقب التبذل عرفن الحق حقاً ، فصرفن عما قابلن من مغريات .

لذلك نجد البحوث الأوربية تنحو منحى تشخيص هذه الظاهرة ،

وتطب – فيما تزعم – لعلاجها ، وحين نقرأ ما كتب فى هذا المجال نجد عجيباً من الخلط المتعمد وغير المتعمد ، يحاول به هؤلاء المشخصون أن يهتدوا إلى أسباب هذه العزلة التى يضيقون بها ذرعاً ، ويحاولون أن يبرزوا أثر الدين فى هذا الإحجام ، وهم فى الحديث عن الدين يعتقدون أن المسيحية والإسلام شىء واحد ، فيذكرون من الآراء المسيحية ما يلصقونه بالإسلام قصداً دون جهل ، وأقول دون جهل لأن هؤلاء الباحثين قد درسوا القرآن والحديث لا محالة ، وفيهم متخصصون نشطون لهذه الدراسات ، ولكنهم يأخذون من النصوص ما يستطيعون تحريفه عن عمد ، ليجعلوا من التشابه بين التعاليم الدينية ما يبرر الحكم الواحد على الأديان جميعاً ، وليس فى ذلك من الأمانة العلمية ما يحمل القارئ المتيقظ على أن يثق فيما يقول هؤلاء المغرضون ، بل إن فيه ما يدفعه إلى الريبة فيما يصدقون فيه من القول ، قياساً على ما يكذبون فيه عامدين مغرضين .

لقد ذكر هؤلاء المحللون أن الدين خصيم المرأة ، لأنه جعلها الأصل الأصيل فى الشقاء حين أغرت آدم عليه السلام بالأكل من الشجرة ، وألحت عليه إلحاحاً متواصلا ، فاندفع تحت تأثيرها إلى الأكل من هذه الفاكهة المحرمة ، حتى استحق جزاء السماء ، فطرد من الجنة !

والإسلام لا يعرف إطلاقاً أن حواء قد دفعت آدم وقادته إلى الهاوية ، ولكن كتاب الله عز وجل ينطق صراحة بأن الشيطان قد أغرى الاثنين معاً ، أغرى آدم وحواء ، ودلاهما بغرور حتى ذاقا ثمرة الشجرة ، فنصيب آدم من الخطيئة قدر نصيب حواء سواء بسواء !

فكيف تصدق المرأة المسلمة أنها فى رأى الإسلام باب الشر ، وأس البلاء ، مع أن القرآن لايفرق بينهما فى هذا الموضوع وبين آدم ،

ونصوص الكتاب الكريم فى هذه المسألة متعددة مشتهرة ، يقول الله عز وجل فى سورة الأعراف :

« وَيَا آدَمَ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ • فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ • وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ • فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ • قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ • قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ • قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ » الآيات من ١٩ إلى ٢٥

هذا إلى أن المرأة المسلمة قد درست تعاليم دينها ، وعرفت أن الإسلام قد رفعها إلى منزلة الرجل ، فجعلهما شريكين فى الحياة ، وإذا كانت الكنيسة — فيما سبق عصر النهضة — قد حرمت تعليم المرأة وعدتها رجساً من الرجس ، فإن الإسلام قد أوجب تثقيف المرأة ، وجعل من أمهات المؤمنين معلمات للرجال والنساء معاً ، كما حفل التاريخ الإسلامى على مدّ عصوره بسير النابهات من المسلمات ممن تعمقن فى العلوم الشرعية والعربية وكتبن القصائد والرسائل والمقالات ، وكان الإسلام دافعاً إلى

ارتقائهن الفكرى . فالقول بأن الدين مدعاة التأخير العقلى والنفسى للمرأة إذا انطبق على دين ما فإنه لايتصل للإسلام بسبب .

أما مشاركة المرأة للرجل فيما لا تصلح له من الأعمال القاسية ، فقد جاء تطبيقه العملى فى أوربا رادعاً للمرأة المسلمة أن تتجه إليه ، وقد شاهدت المرأة المسلمة فى الغرب عشرات المصانع تعج بالرجال والنساء فى مستوى واحد ، فوجدت المرأة الأوربية تظل سحابة يومها أمام التنور المحرق ، وتحمل من الحديد والنحاس وسائر الأثقال على كتفها مثلما يحمل الرجل ، فتتعرض للذبول فى وقت سريع بحجة موهومة هى المساواة بينها وبين قرينها فى ميدان الكسب والارتزاق ، ثم تكون الكارثة مضاعفة حين ينتهى العمل وتذهب إلى المنزل لتقوم بعبء الغسل والطهو وتربية الطفل والسهر على راحته مريضاً وصحيحاً ، على حين ينتهى الرجل من عمله ليخلد إلى الراحة نائماً فى المنزل أو ذاهباً إلى الأندية والمجتمعات ، ليجد المسكينة قد عملت على تهيئة ما يحتاج المنزل من غذاء وشراب ، ومن نظافة وتدبير ، فلا يأتى المساء إلا وقد أصبحت من الكلال والتعب فى أزمة قابضة تتطلب العلاج !

فأين هى المساواة المزعومة ، وقد حاربت طبيعتها حين حملت الأثقال ونضحت بالعرق الجاهد كما يعرق الرجل ، وأين هى المساواة حين وقفت وحدها فى المنزل تدبر شئونه ، وترعى حاجات الأولاد ، وتدبر النفقات ، وتحتال على الرزق الميسر بما يشغل البال ويصدع الرأس كل صباح ومساء !

لقد ضاقت المرأة بما عده المغرضون من مكاسبها المشرفة التى اغتصبتها اغتصاباً ، وتألفت فى أوربا وأمريكا جمعيات تدعو إلى عودة المرأة إلى المنزل لتقوم بواجبها الأصلى فى رعاية شئونه ، وتربية أولادها بعين الرحمة ، بدل أن يترك الأطفال لحاضنات لا يشعرن بإحساس الأم ،

بل يقمن بأدوارهن الشكلية ليأخذن الأجر المعلوم ! وهـذا الأجر مقتطع لامحالة من كسب المرأة ، فكأنها تعمل فى المصنع لتضيع نصف الأجر فى تربية الأطفال ، وتضيع كل الهناءة فيما لاطاقة لها باحتماله من صنوف المعاناة !

يقول الأستاذ الكبير محمد فريد وجدى — رحمه الله — فى تشخيص موقف المرأة الأوربية فى مجتمعها المجحف ما نصه عن كتـاب (المرأة المسلمة) :

« إن من أقبح مظاهر أمر المرأة فى الأفراد والأمم ترك حبلها على غاربها ، وقذفها بذلك الجسم اللين ، وهذه العواطف الرقيقة ، والفؤاد المملوء بالرحمة ، والمهجة المتشبعة بالشفقة ، إلى أن تزاحم الرجال فى معترك الحياة ، كتفاً لكتف ، لسد رمقها ، فتقضى طول نهارها وجزءا من ليلها ، بين لهيب المعامل ودخانها ، أو على قارعة الطريق ، بين هيجاء تلك المدينة المفزعة ، ولو تسنى لك يوماً من الأيام أن تزور معامل أوربا وأمريكا ، مما جمع إلى فخامة المبنى وضخامته سعة لا يكاد يحيط بها البصر ، رأيت فى داخلها أمراً عجيباً ، رأيت جماعات من ذلك الجنس الرقيق مكلفات بأشق الأعمال ، وأقسى المحاولات العضلية ، واقفات أمام التنانير المسجورة ، يعانين أوصاب الحياة ، ومرارة العيش ، تقرأ على وجوههن التى لفحتها النيران المستعرة هذه الجملة (هذا منتهى أسر الرجل للمرأة) ، ومحررو المرأة عندنا بدلا من أن يعدوا هذا مرضاً اجتماعياً كما يعده علماء العصر الحاضر ، ويضعوا كل همهم فى حياطة بلادنا منه مثلما يفعله حكماء أوربا وأمريكا ، نراهم يودون أن يفتحوا بيننا ذلك الباب الهائل لظنهم أننا سائرون خلف أوربا قدماً بقدم » .

إذا كان هؤلاء الكتاب الاجتماعيون قد توهموا بادئ ذى بدء أن الاتصال بالمرأة الأوربية سيدفع المرأة المسلمة سريعاً إلى محاكاتها ، والعمل على تقليدها فى الشرق ، فإن النتيجة جاءت عكسية تماماً لما يتوقعون ، لأن اتصال المرأة المسلمة بالأوربية أوقفها على مشكلاتها المستعصية ، فقد شوهد أن الأوربية المسترجلة لم تعد تفتن الرجل فى شىء ، إذ أصبحت بعيدة عن اهتمامه ، وقد أتاح له الاختلاط بها فى المتجر والمصنع والملهى والمرقص ودور الخيالة أن يطفىء شوقه إليها ، وأن يعتبرها شيئاً كمالياً ، بعد أن كان يتحرق إلى لقائها ، لأن كل ممنوع مرغوب ، وكل معروض مبتذل مهان ، كما أتاح الاتصال المباشر بالأوربية أن تستمع المسلمة إلى شكواها الدائمة من الإرهاق وعدم الإنصاف ، إذ كانت تظن أن الكسب المادى يجعلها محترمة فى عين الرجل ، فإنه وجد فيها منافساً يزاحمه فى العمل ، ويسد عليه باب الكسب ، ويخفض من أجره اليومى ، وكأنه علم أن هذه المزاحمة لم تكن من الرغد بحيث يحرص على أن تكون زوجته أو أخته أو ابنته بين هؤلاء الساعيات الجاهدات المجهدات ، هذا إلى ما يبعثه الاستقلال المادى لدى الطرفين من تربص دقيق لأقل بادرة تحين ، فالمرأة المتسامحة الغافرة التى تبتسم لأخطاء زوجها وتريه سماحة المحب الودود ، لم تعد ذات وجود فى المجتمع الغربى ، إذ يقوم فى ظنها أنها تكسب كما يكسب ، وأنها إذا فقدته فستجد سواه ! كما يقوم فى ظنه أحياناً أن سواها أفضل منها حين ينظر إلى بعض زميلاته فى المصنع أو المتجر أو السوق أو الملهى ، فيجدهن أنضر شباباً ، وأوفر جاذبية ، وهو مخدوع فى ذلك لا محالة ، لأن كل شباب إلى كهولة وكل جاذبية إلى انطفاء ، وقد كانت قرينته على حظ وافر مما يريد قبل أن تبتذل فى المتجر ، ولكن الإرهاق الكادح قد أخمد بريقها ، كما سيخمد بريق هذه التى خدعته بأنوثتها الحالية حين

تمضى الأيام فتريق شبابها وصحتها فى جهد الحديد والنحاس والنار ، أمام دخان المواقد وتحت ضجيج الآلات ! فكيف ترى المرأة المسلمة ذلك كله ثم تحاول أن تحاكى المرأة الأوربية ، إلا أن تكون قد وضعت على عينها غشاوة لا ينفذ منها الضياء .

لا ننكر أن بعض الشرقيات ـ مسلمات وغير مسلمات ـ قد انجذبن إلى تقليد الغربيات ، ولكننا لا ننكر مع ذلك ضيقهن المتبرم بما جذبن إليه ، وتحسرهن على أيام الهناءة السعيدة حين كن مكتفيات بأعمال المنزل ، وقد كان الواقع الاقتصادى فى أكثر البلاد الإسلامية مشجعاً على عمل المرأة ، لأن النظرة الأولى كانت تخلع البريق الخادع على مايجره العمل من كسب زائف ، ولكن النظرة المجربة الدقيقة قد أكدت أن ما يخسره المنزل بهذا النزوح الفاشل عن ميدانه يكافئ ما تجىء به الزوجة من مكسب مادى فى العمل ، مع ما يتبع ذلك من تدمير الصحة ، وتشريد الأطفال ، وفقد السعادة المرتجاة !

هـل نقول بعد ذلك : إن المرأة المسلمة فى المجتمع الأوربى قد لمست بيدها الحساسة ، ورأت بعينها الواقعية ، ما دفعها إلى التمسك بتعاليم الإسلام ؟ ذلك سؤال يجيب عنه الواقع المرير الذى أوضحناه فى هذا المقال .

من روائع السيرة النبوية :

الرسول يبكى ولده ابراهيم

حظيت السيرة النبوية بأوفى نصيب من التسجيل التاريخى والتحليل الأدبى فى القديم والحديث ، لأن مواقف رسول الله كانت من الروعة البالغة بحيث جذبت إليها أقلام المفكرين عن طواعية دافعة ، إذ شاقهم أن يغوصوا على اللآلئ المكنونة فى سيرة هذا النبى العظيم ، ولم يكن تعدد الكاتبين ، وتنوع الدارسين مدعاة سأم للقارئ المستوعب ، لأن لكل كاتب جدير بهذا الوصف مرآته الذاتية التى تريه من الملامح الخاصة ما يغيب عن سواه ، لذلك تجد الموقف التاريخى الواحد لا يفقد جدته عند الكاتب الأصيل ، إذ يلهمه من العواطف الذاتية ما يجعل قارئه يشهد الجديد الطريف ، إذ يقرأ الحدث القديم .

ولعل هذا العصر كان من أحفل العصور وأشدها اهتماماً بتاريخ الرسول ، لأن سيرته الطاهرة لم تنحصر فى نطاق المتخصصين من أساتذة التاريخ ، بل جذبت إليها كبار الأدباء من ذوى التصوير الناطق . والتحليل المتعمق ، والتعبير الشفاف ، ونريد اليوم أن نعرض لموقف مؤثر من مواقف صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ، لنرى كيف ظهر فى مرايا الكاتبين من أدباء هذا العصر ، ويضيق المجال عن تتبع هؤلاء ، فيحتم علينا أن نقصر الحديث عن الرواد منهم ، وفى طليعتهم : عباس محمود العقاد ، وطه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، وأحمد حسن الزيات !

أما الموقف الذى نعنيه فموقف الصابر المحتسب محمد بن عبد الله حين فقد ابنه الوحيد إبراهيم ، وهو موقف شديد اللوعة جذب قطرات الدمع من عين الرسول القدوة ، فبكى لبكائه من شهده من صحابته ، وسجل الحدث الرائع فى كتب السيرة على توالى الأجيال فجعل العيون القارئة تشارك العيون السالفة بكاءها الدامع ، إذ بلغ الموقف المؤثر من الروعة الآسية أقصى ما يبلغ موقف لهيف .

ونبدأ بالعقاد عن عمد مقصود إذ أنه المحلل الفاحص الذى يتغلغل فى أعماق الموقف التاريخى مسلطاً مجهره الدقيق على الخوافى الكوامن من ذراته الضئيلة ، حتى يأتلق للعين ، ساطع الملامح ، مؤتلق السمات .

(عباس محمود العقاد)

يقول الأستاذ توفيق الحكيم عن كتاب عبقرية محمد : « لقد أدركت من الفصل الأول أن لدى العقاد ما يقول ، وأن الكلام الذى عنده يرغمنا على أن نصغى إليه ، وأن كل ما عرف من قبل عن النبى محمد لن يغنينا عما عند العقاد ، لأن العقاد قد درس وفكر ، واستنتج لنفسه ، ثم صنع للنبى صلى الله عليه وسلم صورة قلمية لا يمكن أن يُرى نظيرها على هذا التمام فى صفحات مثل صفحات عبقرية محمد » .

وهذا حق ، لأن العقاد قد استبطن السيرة النبوية فشاهد فى مطاويها الغائبة ما جلاه لأول مرة ، وكأنه يكتب عن حدث جديد ! لقد كان إبراهيم قرة عين والده ، وقد سعد بمشرقه ، ورأى ملامحه فى وجهه فازداد به تعلقاً ، وقضى ستة عشر شهراً لا يرى عليه أثر لمرض ثم دهمته العلة ، ولم يطل به المرض ، فسرعان ما شاهده أبوه فى حجر أمه يحتضر ! وقد احتضر من قبل ولداه القاسم والطاهر صغيرين ، وماتت جميع بناته غير فاطمة ، ورأى الرسول ما نزل بوحيده من

الخطب فذرفت عيناه باكياً ! وأحس أن أصحابه يتعجبون لبكائه ، فقال : تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول غير ما يرضى الله ! وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون .

هذا لباب الموقف ملخصاً من كتب التاريخ ! فماذا قال عنه العقاد ؟

إن الكاتب الكبير قد تغلغل إلى أدق الخلجات الهامسة ، حين نظر بعين الصقر إلى الحدث النفسى فى أبعاده المترامية فجلاه أحسن جلاء ، إذ قال :

« مات الطفل ولم يبلغ السنتين ، مصاب صغير إن كانت المصائب تقاس بسنوات المفقودين ، ولكن المصائب فى الأعزاء إنما تُقاس بمبلغ عطفنا عليهم ، والصغير أحوج إلى العطف من الكبير المستقل بشأنه ، وإنما تقاس بمبلغ تعويلهم علينا ، وتعويل الصغير على وليه أكبر من تعويل الكبير ، وإنما تقاس بمبلغ الأمل فيهم ، والأمل يطول فى بداءة الطريق ، وقد يقصر فى منتصف الطريق .

إنما تقاس آلام المفقودين بأعمار الفاقدين ، وأى مصاب أفدح من مُصاب الستين وما بعدها فى الأمل الوحيد ، الواصل بينها وبين الزمان ماضيه وآتيه .

ما تخيلت محمداً أدنى إلى القلوب الإنسانية فى موقف من موقفه على قبر الوليد الصغير ، ذارف العين ، مكظوم الوجد ، ضارعاً إلى الله .

نفس قد نفثت الرجاء فى نفوس الألوف بعد الألوف ، وهى فى هذا الموقف قد انقطع لها رجاء عزيز ، رجاء — وا أسفاه — لا يحييه كل ما ينفثه المصلح من رجاء .

وكأنى بمحمد يوم ذاك ، كان أقرب إلى نفوس الخالفين من بعده مما كان مع الجالسين حوله ، ومع أقرب الناس إليه ، كان أقرب

الناس إليه زوجاته أمهات المؤمنين ، وكن يحببنه غاية ما يحب النساء الأزواج ، ولكن حبهن إياه لم يكن فى هـذا الموقف من المقـربات العاطفات ، لأنه حب أثار غيرتهن من أم الوليد المـأمول ، فاحتجب من عطفهن بمقدار تلك الغيرة ، وبمقدار ذلك الحب ، ولا لوم عليهن فيما طـبع عليه الإنسان ، وفيما لا يقصدنه ولا يقدرن عليه .

وكان أقرب الناس إليه أصحابه الخاشعون بين يديه ، وكان إكبارهم لسيد الأنبياء ينسيهم أنه أب من الآباء ، بل إنه أب أرحم من سائر الآباء .

ظنوا أن النبى لا يحزن ، كما ظن قوم أن الشجاع لا يخاف ، ولا يحب الحياة ، وأن الكريم لا يعرف قيمة المـال ، لكن القلب الذى لا يعرف قيمة المـال لا فضل له فى الكرم ، والقلب الذى لا يخاف لا فضل له فى الشجاعة ، والقلب الذى لا يحزن لا فضل له فى الصبر ، إنمـا الفضل فى الحزن والغلبة عليه ، وفى الخوف والسمو عليه ، وفى معرفة المـال والإيثار عليه » .

هذا بعض ما قال العقاد فى موقف الرسول من رحيل إبراهيم ! وهو على إيجازه يغنى غن إسهاب مطيل .

(الدكتور طه حسين)

إذا كان العقاد قد قال عن رحيل إبراهيم ما لا يخطر فى بال أحد ، فإن الدكتور طه حسين على النقيض ، إذ قال فى هذا الموقف ما يمكن أن يخطر فى نفوس الكثيرين ، ولكنه سـاقه مساقاً بارعاً ، إذ التزم الأسلوب القصصى فيما كتبه فى مؤلفه الشهير (على هامش السيرة) . والدكتور قاص بارع حقاً ، يسرد الأحداث ، ويصور الشخصيات فى تسلسل وانسجام ، وله خياله المصور ، يرسم به ما يريد أن يعبر عنه من العواطف والانفعالات ، وهو كما قال الأستاذ أحمد الشايب قد

انتقل بخياله إلى أناس فى صدر الإسلام ، يحس بإحساسهم ، ويأكل مما يأكلون ، ويشرب مما يشربون ! وبذلك استطاع أن يقص الأحداث بجوهرها ، فنقل إلينا الماضى أو نقلنا إليه بحيلة لطيفة ، فإذا أردنا أن نعرف كيف صور رحيل إبراهيم فإننا نجده قد اصطنع الخيال ليربط حادثاً بحادث ! فقد تخيل من يسمى بحنظلة الخزاعى ، فرسمه شيخاً مهيباً له مكانة أثيرة لدى الناس فى الفسطاط ، وقد قدم إلى قرية من قرى الريف فوجد كبيرها مرزوءاً فى ولده ، يعزّى عنه فلا يتعزّى ، فأسرع إلى مواساته إذ قص عليه مصاب الرسول فى ولده إبراهيم ! هما إذن مشهدان ، لا مشهد ، مشهد متخيل جعل إطاراً لمشهد حقيقى ، وبهما اكتمل الفن القصصى لدى الراوى المبين .

يقول الدكتور عن المشهد الأول متحدثاً بلسان حنظلة الخزاعى :

« لقد ذهبت إلى القرية أتعهد بعض أعمالى ، فما أبلغها وما أستقر فيها حتى أعرف أن عظيماً من عظماء النصارى قد رزئ فى صبى له ، فأرى من الخير والبر أن أسعى إليه معزياً فأفعل ، ويلقانى الرجل حفياً بى ، وقد ملك الجزع كل أمره ، وأخرجه عن طوره ، وكنت أعرفه جلداً صبوراً وقوراً ، ولكن هذا الصبى كان وحيده ، وكان قرّة عين له حين تولى الشباب وأدركته الشيخوخة ، فلما نزل به الخطب لم يثبت له ، ولم يستطع عليه صبراً ، وقد عجز من يحيطون به من القسيسين والرهبان عن تسليته ، ويأخذنى الرفق به والإشفاق عليه ، فأتحدث إليه فى لغته القبطية ، مواسياً مسلياً ، وأقول له فيما أقول ، لو عرفت أن أحاديث نبينا تعزيك أو تسليك لقصصت عليك طرفاً منها ، فقد رزئ نبينا فى صبى وحيد له ، كما رزئت فى صبيك هذا الوحيد ، فتلقى الرزء كريماً يملأ قلوبنا نحن المسلمين إكباراً له ، وإعجاباً به ، ورحمة للصبية من أبنائنا ، فى احتفاظ بالرجولة ، وثبات على المروءة ، واصطناع

للوقار ، واعتراف بحق الله، فيما يمنّ به علينا من المال والولد ، يأخذ كما أعطاه ، دون أن يكون لنا أن نضيق بذلك أو نثور عليه ، وإنما هى نعمة أهديت إلينا ثم أخذت منا ، وقد ابتلينا بإهدائها إلينا كما ابتلينا بأخذها منا » .

قال الرجل : فحدثنى بحديثك ، فإن ما تقوله يبعث فى نفسى شيئاً من راحة وأمن ودعة !

هنا انتهى المشهد الأول الذى جعله الدكتور إطاراً بارعاً للمشهد الثانى ، مشهد رسول الله حين وقع الخطب ، فحزن الفؤاد ودمعت العين ، ولم يقل نبى الله غير ما يرضى الله !

قال الدكتور على لسان حنظلة : إن نبينا قد رزق فى آخر أيامه صبياً ابتهج لولده ابتهاجاً عظيماً ، وسر به سروراً لا يقدر ، ولكن نبينا كان يحسن لقاء النعمة كما كان يحسن لقاء المحنة ، كان لا يخرجه الابتهاج عن طوره ، وكان البطر والأشر أبعد الأشياء عنه ، وكان إذا رضى لم يستأثر بلذة الرضا ، وإنما يشرك فيها الناس ، فلم يكد يرزق هذا الصبى حتى أعلن ذلك للناس مغتبطاً، ثم تصدق على الفقراء ووسع على من ضيقت عليهم الحياة ، وكان رفيقاً بابنه هذا ، يسعى إليه عند مرضعه إذا قال الناس ، فيأخذه ويقبّله ، ويقول له : ما شاء الله أن يقول من الألفاظ الحلوة التى تصوّر أجمل تصوير حنان الآباء ورحمتهم لأبنائهم ، وقد كانت نعمة الله على نبينا لا تحصى ، وكان منها امتحان الله له فى أحب الأشياء لديه . وآثر الناس عنده ، فما يبلغ ابنه ستة عشر شهراً أو ثمانية عشر شهراً حتى تسعى إليه العلة ، ويمضى النبى مع صفى من أصفيائه يقال له : عبد الرحمن بن عوف ليعوده ، فيبلغه وهو يجود بنفسه ، وينظر الأب إلى صبيه الوحيد الذى جاءه

حين تولى عنه الشباب ، وحين أقبلت عليه الشيخوخة ، وحين استيأس من الولد ، ينظر الأب إلى ابنه هذا أسفاً محزوناً ، ولكنه ينظر إليه مع ذلك راضياً مطمئناً ، مذعناً لقضاء الله ، وهذه عينه تدمع ، وهـذا صفيه ينكر منه ذلك، ويقول له : أتبكى وقد نهيت الناس عن البكاء ؟ فيجيبه : إنمـا هذا رحم، وإن من لا يَـرحم لا يُـرحم، إنما ننهى الناس عن النياحة ، وأن يندب الرجل بمـا ليس فيه ، ثم قال : لولا أنه وعد جامع ، وسبيل مثتاه ، وأن آخرنا لاحق بأولنا ، لوجدنا عليه وجـداً غير هذا ، وإنا عليه لمحزونون ، تدمع العين ،ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب » .

هذا لباب ما ذكر الدكتور طه حسين فى رحيل إبراهيم ! وفى مجال الموازنة بينه وبين ما تقـدم من كلام الأسـتاذ العقاد ، نرى أن حديث العقاد يخاطب العقل أولا والوجدان ثانياً ، وحديث الدكتور طه يخاطب الوجدان أولا والعقل ثانياً ! وكل قارئ فى حاجة إلى إقناع العقل وإمتاع الوجدان ، ولست ترى منطقياً متحجراً ، ولا عاطفياً ذائباً ، إذ لا بد من قدر مشترك بينهما فى الكيـان الإنسـانى ، والذين يعكفون على طعام واحد يرون الدنيا بعين واحدة ! وكما يحتاج الإنسان إلى أستاذ حاسم يوجه ويسدد ، فهو فى حاجة إلى صديق مخلص يمتـع ويؤنس !

(أحمـد حسن الزيات)

أصيب الأستاذ أحمد حسن الزيات فى ولده الصغير (رجاء) فبكاه بمقال حار سال دموعاً وتقاطر دماً على صفحات مجلة (الرسالة) ، ثم شاء أن يخفف عن برحائه مرة ثانية فاهتدى إلى حديث إبراهيم بن محمد، حيث وجد فى مصاب الرسول أسوة شافية لجراحه ، فكتب بالعدد

الممتاز من مجلة (الرسالة) مقالا حاراً تحت عنوان (محمد الوالد) يحس قارئه أن مأساة الزيات فى ولده قد رفرفت فى خياله حين تحدث عن إبراهيم عليه السلام ، وقد ختم مقاله بقوله مناجياً رسول الله :

« تعزيت يا رسول الله ، لأن الألم سبيل من سبل دعوتك ، والعزاء أصل من أصول دينك ، والأرض وما عليها أهون من دمعك والسماء وما فيها ثواب لصبرك ، ولكن ماذا يصنع البائس المحزون إذا فقد الرجاء وليس له فى يومه صبر ، ولا فى غده عزاء .

والبائس المحزون فى هذا المجال هو الأستاذ الزيات ، وأشهد أن حزنه البالغ كان من أسباب توفيقه فيما كتب عن محمد الوالد ، إذ كان مقاله تحفة رائعة من البيان المصور ، أقول هذا وأنا أعرف أن أعداء البلاغة العربية يضيقون بالبيان المنمق الأنيق ، ويعدونه مصدر افتعال وتكلف ، وهم بعد أنأى عنه طريقاً ، وأجفاهم عن تفهمه واستشفافه ، ولو كتبوا جملة واحدة منه لطاروا بهما فرحاً ، ولكنه العى والقصور ثم التهجم والغرور .

وإذا كان العقاد محللا ، وطه قاصاً ، فالزيات رسّام مصوّر حين وصف المسرح الهادئ لبيت النبوة ، فقال :

« بين ظلال النخل والكرم ، وفى بيت محمد (صلى الله عليه وسلم) المصرئ على العالية من ضواحى المدينة ، أتم الله نعمته على رسوله ، فوهب له على الكبر إبراهيم ، يومئذ تنفس الصبح بأنفاس الفردوس ، وضاحكت الشمس خمائل يثرب من خلال الأجنحة المنيرة ، ومست يد الربيع المخصبة دوحة النبوة ، وغرقت نفوس المؤمنين فى مثل صفاء الخلد ، وأقبل المهاجرون والأنصار على المسجد المستبشر ، يهنئون النبى بالخليفة الوليد ، والأمل الجديد ، والعوض المبارك ، ونهض

الرسول الوالد إلى بيت مارية القبطية ، ليرى نعمة ربه ، وبضعة كبده ، فوجد فى طلعة إبراهيم الأنس الذى يعوزه ، والرضا الذى يرجوه ، والخلف الذى يتمثله ، ففاضت غبطته لله حمداً ، وعلى المؤمنين بركة وفى الفقراء صدقة ، رفع أمه إلى مقام أزواجه ، ونفح مرضعته بسبع من المعزى سمان يحلبن عليها وعليه ، ثم عق له بكبشين أملحين ، وتصدق بزنة شعره فضة ، وتعود كل صباح أن يزور أم ولده ، فيحمله عنها ليضمه ويشمه ، ويتذوق طعم السعادة الأرضية من أريجه ، ويطالع نفسه العائدة فى نفسه ، ثم يدخل به على الأمهات اللائى ولدن جميع المسلمين ولم يلدن ، فيباهى بحسنه ويغتبط بنموه » .

وهذا التصوير الجيد تعقبه الحكمة الرائعة ، حكمة ابتلاء الله لأنبيائه ورسله ، وهم موضع أمانته ، ومبلغوا رسالته ، وقد أحسن الزيات رسمها فى دقة بليغة حين قال ممهداً لحادث الفقد المحزن وأثره فى نفس الرسول :

« ولكن أنبياء الله موضع بلائه وسر حكمته ، دعوتهم الحق ، والحق ثقيل ، وعدتهم الصبر ، والصبر كليل ، وبرهانهم الألم والألم قاتل ، غرباء فى الأرض لأنهم من السماء ، وأغراض لسهام القدر لأنهم ضحايا ، وأمثلة لبؤس العيش لأنهم عبر ، هذا إبراهيم حبة قلب أبيه ، وسواد عين أمه ، مسبوتاً على فراش المرض تحت النخيل ، تذوى نضارته على وهج الحمى ، وتذوب حشاشته على عرك الموت ، وأمه وخالته قائمتان على سريره ، تشهدان منظراً أى منظر ، وهذا أبو إبراهيم يضعضعه النبأ المروع ، فيتحامل على عبد الرحمن بن عوف ، ويمشى ثقيل الخطى ، لهيف الفؤاد ، إلى الصغير المحتضر ، لو كان لمتاع العيش غناء لتقلب فيه المؤمن ، ولو كان لقانون الموت استثناء لأفلت منه

المصلح ، ولو كان فى قلب الثاكل المحزون شبهه لجلبتها محنة الله لرسوله ؛ أخذ إبراهيم من حجر أمه فوضعه فى حجره ، ثم نظر من خلال الدمع إلى قسماته المشرقة تغشاها ظلال الموت ، وقال بصوت متهدج ، وفؤاد متأجج ، واستسلام مطمئن : « إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئاً » !

يا لله ، إن النبى الذى ولد فى مهد اليتم ، ودرج فى حجر العدم ، وتقسمت عمره عوادى الخطوب ، فكابد أذى قريش ، وحقد المنافقين ، وكيد اليهود ، وعالج مكاره الدعوة من القلة والذلة والهزيمة والفتنة ، قد احتمل كل ذلك بصبر المجاهد ، ويقين المؤمن ، وعزم الرسول ، ويصيبه الله فى إبراهيم ، فيرفض عنه الصبر ، ويتملكه الجزع ، ويقف من الثكل الأليم موقف كل والد ، يرى جزءه الجديد يبلى ، ورجاءه الناشئ يخيب ، ثم يقول : « إن العين لتدمع ، وإن القلب ليجزع ، وإنا بعدك يا إبراهيم لمحزونون » .

هذا أيضاً بعض ما قال الزيات ، والمقال بتمامه فى الجزء الأول من وحى الرسالة ، وما هو ببعيد .

(محمد حسين هيكل)

من مزايا أسلوب الدكتور هيكل رحمه الله التدفق والانسيال فى غير كدورة ولا غبش ، فهو لا يكتب إلا حين يجيش خاطره بأمواج كثيرة يرسلها إلى القارئ فى تحدر واندفاع ! وحين كتب (حياة محمد) لم يفارقه هذا الأسلوب الفياض المتدفع ، ولا يرجع ذلك إلى قدرته الأسلوبية وحدها ، بل يرجع إلى صدق حميته وعمق يقينه ! وقد رأينا أناساً يشيحون عن كتابه الرائع لبعض ملاحظات لا يخلو من أمثالها كتاب يؤلفه إنسان ! وقد نسوا أن الكاتب الكبير جعل حياة

الرسول مجالا لأقلام حذته ، وتأثرت به ، ولولاه ما فكرت فى اتجاهه الرشيد ، بل نسوا أنه بكتابه الرائع عن رسول الله قد جذب عشاقاً لسيرته الطاهرة كانوا يصدون عنها من قبل ، إذ لم تعرض فى مثل بيانه المؤثر ومنطقه المبين .

يقول هيكل عن إبراهيم وموقعه من نفس أبيه :

« لم يكن تعلق محمد بإبراهيم لغاية فى نفسه لها اتصال برسالته أو بمن يخلفه ، فقد كان عليه السلام فى إيمانه بالله وبرسالته لا يفكر فى ولده ولا فيمن يرثه ، بل كان يقول : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة ، إنما هى العاطفة الإنسانية فى أسمى معانيها ، العاطفة الإنسانية التى بلغت من السمو فى نفس محمد ما لم تبلغه فى نفس أحد غيره ، العاطفة الإنسانية التى جعلت العربى يرى فيمن يخلفه من الذكران صورة من صور الخلود ، هذه العاطفة هى التى جعلت محمداً يخلع على إبراهيم كل هذا الحب ، ويرمقه من العطف بما لا عطف بعده ، وقد زاد هذه العاطفة رقة وقوة فى نفسه أنه فقد ولديه (القاسم والطاهر) وهما ما يزالان طفلين فى حجر أمهما خديجة ، وأنه قد فقد بناته بعد خديجة واحدة بعد الأخرى بعد أن كبرن وصرن أزواجاً وأمهات ، فلم تبق له منهن غير فاطمة ، هؤلاء الأبناء والبنات الذين تساقطوا من حوله فدفنهم بيده تحت صفائح الثرى ، تركوا فى نفسه قرحة ألم ، اندملت بمولد إبراهيم ، وأثمرت مكانها رجاء وأملاً ، وكان حلا له أن يمتلئ بهذا الأمل غبطة واستبشاراً » .

وبعد أن يفيض فى وصف الاحتضار ومشهد الوداع ومسيرة الدفن يقول الدكتور هيكل :

« ووافق موت إبراهيم كسوف الشمس ، فرأى المسلمون فى

ذلك معجزة ، وقالوا : إنها انكسفت لموته ، وسمعهم النبي ، أترى فرط حبه لإبراهيم وجزعه لموته قد جعله يتعزّى بسماع مثل هذه الكلمة أو يسكت على الأقل عنها ، أو يعذر الناس إذ يراهم مأخوذين بما يحسبونه المعجزة ، كلا ! فمثل هذا الموقف إن لاق بالذين يستغلون فى الناس جهالتهم ، أو لاق بالذين يخرجهم الحزن عن رشادهم ، فهو لا يليق بالنزيه الحكيم ، فما بالك بالرسول العظيم ، لذلك نظر محمد إلى الذين يذكرون أن الشمس انكسفت لموت إبراهيم فخطبهم قائلا : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا حياته ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة » . فأية عظمة أكبر من ألا ينسى الرسول رسالته فى أشد المواقف التى تملأ النفس بالفجيعة والهول ! » .

رحم الله الدكتور هيكل ، فقد ترك بكتابه مجداً لا يبيد .

(شعراء العصر)

ذكرنا أقباساً من بيان الكبار من الكتاب فى موت إبراهيم ، ولم أجد شاعراً معاصراً جعل من هذا الموقف المؤثر مستراداً لخاطره ، لأن أكثر شعرائنا يقفون عند الأحداث الرنانة كالهجرة والمولد وبدر ، ولا أنكر أن الشاعر الكبير أحمد محرم قد نظم سيرة الرسول فى ديوان رائع ، ولكن أين من شفع جهد الشاعر الكبير رحمه الله بجهود تزيد عليه زيادة فنية تستجيب لعامل التطور الزمنى ، وتقدم مواقف السيرة فى أفقها الأرفع بعيداً عن الرصف الحجرى ، والاندفاع الخطابى ... أين نجد من فعل ذلك ، وفى كل بلد إسلامى أسماء ترن ، وأبيات تصلصل دون غناء كبير .

المناسبة بين الآيات القرآنية

بذل مفسرو القرآن الكريم على اختلاف العصور جهداً مشكوراً فى فهم آيات الكتاب المبين ، وتدبر أسلوبه المعجز ، وقد أفرد الدارسون من هؤلاء كتباً خاصة بشرح الأسرار البيانية للإعجاز القرآنى فى تسلسل معانيه وإحكام مبانيه ، حتى رأينا فى عصرنا الراهن نفراً من كرام الباحثين يتجهون إلى إظهار الوحدة الموضوعية فى السورة الواحدة مهما امتدت آياتها ، كسورة البقرة وسورة آل عمران ، حيث يبذلون جهداً مشكوراً فى اكتشاف الترابط العضوى بين آيات السورة وفق تسلسلها المطرد ، ولهم فى ذلك اجتهادات ذكية تشكر بواعثها العلمية الأمينة ، وإن لحقها فى بعض الأحيان اعتساف متكلف ، ما كان أحراهم بالابتعاد عنه ، كما رأينا فى الجهة المقابلة فريقاً من الدارسين لا يرى وجوب الوحدة الموضوعية فى السورة الطويلة ، ولا يريد أن يجعل من مقاييس الأدب النقدى فى عصرنا هذا ميزاناً للبيان القرآنى ، وله حجته الواضحة ، لأن هذه المقاييس ليست من الثبات بحيث يطمئن إليها الدارسون فى كل عصر ، فلو أن العصور القادمة أحدثت من المقاييس الجديدة فى الأسلوب الأدبى ما يخالف هذه المقاييس ، لاضطر الباحثون إلى تأويل جديد للتسلسل الأسلوبى فى القرآن ، وفى ذلك من الحرج ما يدعو إلى أن يكون الذكر الحكيم بمنأى عن الموازين المتناقضة ما دام إعجازه الباهر ليس فى حاجة إلى أدلة جديدة بعد أن أصبح موضع اتفاق لدى المنصفين .

دراسات سابقة :

ونحن نعرف أن ترتيب الآيات فى السورة الواحدة ، والبحث عن علاقة كل آية بسابقتها ، وارتباطها الفكرى بها ، قد وجد حظوة كبيرة لدى كثير من المفسرين من أمثال البقاعى والنيسابورى والرازى وغيرهم ، كما وجد فى الوقت نفسه معارضة من فريق آخر ، لأن بعض الآيات قد تخفى مناسبتها الدقيقة على الدارس ، فيلجأ إلى تمحل لا يتفق مع النظرة الطبيعية للسياق ، لذلك روى الجلال السيوطى فى الإتقان عن عز الدين بن عبد السلام رحمه الله قوله : « واعلم أن المناسبة علم حسن ، ولكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد يرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يتم فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلا عن أحسنه ، فإن القرآن نزل فى نيف وعشرين سنة ، فى أحكام مختلفة ، وما كان ذلك لا يتأتى ربطه ببعض »[1] وهذا كلام صريح من سلطان العلماء العز بن عبد السلام ينطق بأن الربط يصح إذا كان طبيعياً ، أما إذا جاء وليد تكلف وتعمل فهو مرفوض، مرفوض فى كلام البشر ، فما ظنك بكلام الله ، وهو البيان المعجز الذى لا تتطاول إليه الرقاب إلا وهى مشوقة مستلهمة .

وسأحاول أن أضرب مثلا لتكلف الربط فى موضع دقيق ، لنعرف إن كتاب الله عز وجل يستغنى بروعته الباهرة عن مقاييس مؤقتة تخطئ وتصيب .

من أمثلة الربط المتكلف :

نقرأ جميعاً سورة القيامة فى الجزء التاسع والعشرين من كتاب الله فنجدها تبتدئ بقول الله عز وجل :

---

(١) الإتقان ، ج ١ للجلال السيوطى .

« لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۞ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۞ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۞ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ » .

وهـذا ابتداء صريح فى تأكيد حقيقة البعث الأخروى التى يحاول إنكارها جاهداً من تسول له نفسه الفجور كيلا يحاسب على ما اقترف من موبقات .

« بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۞ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ » .

والجواب معـــروف يتحقق حين يبرق البصر ، ويخسف القمر ، ويجمع بين الشمس والقمر ، فيقول المنكر حينئذ : أين المفر ؟ولامفر من الله، حين ينبأ الإنسان بما قدم وأخر ، وله من نفسه شاهد على أعماله، إذ تنطق جوارحه بها فلا يفيده الاعتذار .

« بَل الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۞ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ » .

هذه الآيات المتسلسلة المطردة فى الحديث عن البعث الأخروى وما يتبعه من حيرة وسؤال وحساب ، تنتهى بحديث آخر يبتدئ بقول الله عز وجل :

« لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » .

والحديث منفصل غير متصـــل كما يرى الدارس ، وهو ما كان موضع تكلف لدى بعض من يرون وجوب الربط ، وسنعرض لرأيهم فيما بعد ، ثم تمضى السورة الكريمة فى وصف الناس يوم الحساب ، عائدة إلى ما ابتدأت به ، فتتحدث عن الوجوه الناضرة التى تنظر إلى ربها فرحة مستبشرة ، وعن الوجـوه الباسرة التى تتوقع العقاب منتظرة

أن يحدث بها فاقرة ، ويلتفت الحديث إلى مقدمات الحياة الأخرى ، من فراق للروح حين تبلغ التراقى ويسأل : من راق ؟ ويلتف الساق بالساق ! ثم تمضى السورة الكريمة فى وصف أحوال المكذبين بالبعث التاركين للصلاة والصوم ، ناسين قدرة الله عز وجل على الإيجاد بعد العدم ، ودليلها واضح فى الإنسان نفسه :

« أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّنْ مَّنِيٍّ يُمْنَى ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ۝ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ۝ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى » .

موضع التكلف :

ولا يظهر موضع التكلف فى ربط هذه الآيات إلا إذا عرفنا مناسبة نزول قوله تعالى : « لا تحرك به لسانك » حيث ننقل عن الإمام ابن كثير ما ملخصه : « هذا تعليم الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم فى كيفية تلقى الوحى ، فإنه كان يبادر إلى أخذه ، ويسابق الملك فى قراءته ، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك أن يستمع له ، ولا يخاف نسيانه ، إذ تكفل الله أن يجمعه فى صدره ، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذى ألقاه إليه ، وأن يبينه ويوضحه ويفسره ، ولهذا قال « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » . وهذا كله بعيد عن يوم القيامة ، وهو موافق لما جاء فى سورة الأعلى من قول الله عز وجل : « سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله ، إنه يعلم الجهر وما يخفى »[1] .

فإذا عرفنا هذه المناسبة التى ألمع إليها ابن كثير فلنستمع إلى ما روى عن الإمام القفال فى إيضاح ارتباط هذه الآيات بما قبلها وفقاً لما يراه :

---

(١) سورة الأعلى ، الآيتان ٦ و ٧

« قال الشيخ عبد القادر المغربى فى تفسير جزء تبارك[1] : ذهب القفال إلى أن الكلام فى الآية « لا تحرك به لسانك لتعجل به » متصل بالحديث المسوق فى الآيات قبلها ، وأن الخطاب فيها لذلك الجاحد الذى يفجر أمامه ، وإذا خوفه مخوف بيوم القيامة أجاب مستهزئاً : أيان يوم القيامة ؟ حتى إذا جاء ذلك اليوم لم يجد مفراً ، إلا إلى الله ، ونُبِّئَ بما قدم وأخر ، وقد علم من آيات أخرى أن الإنسان يعطى يوم القيامة صحيفة عمله ، ويقال له « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً »[2] . فإذا أخذ فى قراءتها تلجلج وتكلف الإسراع فى القراءة لينجو من هذا الموقف المخزى ، فيقال له : لا تحرك به لسانك مريداً التفضى والتخلص منه بهذه العجلة ، فإنه يجب عليك بحكم الوعد والحكمة أن نجمع عملك ونقرأه عليك ، فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالإقرار ، ثم إن علينا بيانه ، أى بيان أمره وشرح مراتب عقوبته » .

هذا ما ربط به الإمام القفال الآية الكريمة بما قبلها ، وفيه تكلف لا مبرر له ، لأن قول الله : « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » لا يمكن أن تتجه إلى صحيفة عمل المرء دون أن تسبق الإشارة إليها ، والإحالة على آية كريمة من سورة أخرى افتعال يرفضه الذوق البيانى فى أفصح كتاب عربى ، ونحن نقول لمن يعشقون هذا الضرب من التكلف ، إن كل كلام فى أى لغة من اللغات يجد له من يستطيع تحويره عن وجهته متى تكلف الافتعال ، واعتصم بنوع من الذكاء والحق الذى لامرية فيه أننا لا نعدل عن القريب إلا إذا تعذر رجوع الضمير إليه وقامت قرينة تدل على الإشارة إلى البعيد ، وهنا لا يتعذر فهم الكلام على نهجه الطبيعى ، كما لم تقم قرينة دالة على الإحالة إلى آية كريمة فى سورة أخرى ، ففيم العناء ؟

---

(١) تفسير جزء تبارك للشيخ المغربى ، ص ١٠٩ ، طبعة دار الشعب .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ١٤

ترجيح العلامة المغربي :

ذهب الشيخ عبد القادر المغربي إلى تأييد ما نقلناه عن الإمام ابن كثير متابعاً جمهرة المفسرين في ذلك ، ولكنه اضطر إلى تعليل لا يستقيم ، إذ قال في تفسير جزء تبارك[1] ما نصه : « كان صلى الله عليه وسلم يحرك لسانه تعجيلا إلى الاستظهار والحفظ ، فأوحى إليه ربه « لا تحرك به لسانك » ، ولقنه إياها جبريل غضة طرية ، في غضون تلقينه الآيات التي حرك بها لسانه ، ليكون ذلك أدعى إلى رسوخ آية النهي وتأدبه بها » .

وإلى هنا والكلام طبيعي لا اعتراض عليه ، ولكن الشطط كل الشطط فيما تلا ذلك حيث يقول الشيخ : « ومثلوا ذلك بالمعلم يلقي على تلاميذه مسائل في العلم ، والتلميذ يكتبها في صحيفة له ، ثم عثر على هذه الصحيفة بعد ذلك ، فوجد في غضون مسائلها العلمية هذه الجملة (لا تلتفت يميناً أو شمالا) ، فيتعجب من وجود هذه الجملة محشورة بين مسألتين من مسائل العلم ، غريبتين عنهما ، حتى إذا عرف السبب وأن التلميذ كان في أثناء الإلقاء يتلفت يميناً وشمالا فنهاه أستاذه بهذا القول المثبت في الصحيفة — بطل العجب » .

وأنا أقول مندهشاً : أليس هذا هو الشطط بعينه ! إن كل كلمة في القرآن ، قد قدرها الله بمعناها الدقيق ، وقدر مكانها الطبيعي الذي لا تتجاوزه بحال ، فكيف يقرن قوله عز وجل : « لا تحرك به لسانك » بجملة كتبها تلميذ مخطىء وتبينها الأستاذ فعرف موضع نشازها في السياق ! أهذا تعليل أم اعتساف ؟

إننا نرحب بكل محاولة جادة تشير إلى الربط البياني في الكتاب المعجز بحيث يكون الارتباط سافر الوجه ؟ أما أن ننشط في غلو يشين ولا يزين ، فهذا ما يجب أن يتنزه عنه الدارسين .

---

(١) تفسير جزء تبارك ، ص ١٠٩

من نماذج الصداقة النبيلة

حديث الصداقة يمس أرق الأوتار فى القلوب ، ولكل إنسان هشاشة إليه وارتياح ، إذ أن الصداقة تجربة عامة باشرها كل فرد ولو فى بعض فترات حياته ، ومن كتبوا الصحائف فى نبذ الصداقات وإيثار الوحدة لابد أنهم جربوا صداقات مجدبة غير خصيبة ، فأنحوا باللائمة على الصداقة والأصدقاء ، ولكن ذلك لا يمنع أن تكون الصداقات حاجة ضرورية لدى الناس ، فهى مدعاة أنس ، وباب مسرة وارتياح ، وكم من رجل كدره الهم ، وعبست فى وجهه الحياة ، حتى صارت أضيق من حلقة الخاتم فى عينه ، ثم سعد بمؤانسة صديق عاقل ، فشكا إليه شكاية المتأوه الملتاع ، فوجد عنده من مجاذبات الأنس وملاطفة القول ما أعاده إلى صفوه ، وأسعده بتنفيس مريح ، وبأمل منعش ، فعاد من مجلسه هادئ النفس ، شديد الاحتمال .

إن حديث الصداقة يمس أرق الأوتار فى القلوب دون ريب ، وهو حديث مؤنس ناضر ، إذا صدر عن قلب كبير ، وعقل نافذ ، وصاحب حديثنا الآن أبو سليمان المنطقى العالم المتدبر الفيلسوف ، وهو واحد الآحاد فى مجال التحليل العقلى ، والنظر الفلسفى بين معاصريه ، شهد له بذلك أولو البصر والحكم ، من كبار المتضلعين ، وهى شهادة متعددة المصدر ، مختلفة الأشخاص ، فليست إذن مجاملة فردية ، وجهها صديق لصديق ، وما بين أيدينا الآن ، من آثاره الحكيمة ، وآرائه الجدلية المثبوتة بنوع خاص فى أكثر كتب أبى حيان التوحيدى ، مما يشهد بعمق الرجل ، وبعد غوره ، وغوصه الملح على أدق المعانى ،

وتفسيره المتنوع لأعقد الظواهر ، وفى رجال الفكر من عرفهم الناس عن طريق تلاميذهم ، لا عمّا بقى من مؤلفاتهم ، فاحتلوا بذلك منزلة ذوى التأليف الذائع ، والتصنيف المتشعب .

فأبو الفلاسفة سقراط ، لم تعرف أفكاره الخلقية ، ومراميه الفلسفية ، إلا من كتب تلميذه أفلاطون ، والنظّام الباحث النظار المتكلم لم تتعارف آراؤه إلا عن طريق تلميذه الجاحظ ، وكذلك أبو سليمان المنطقى قد متعه الله بأبى حيان ، ولأبى حيان ولع شديد بتسجيل الحوار العلمى ، وتدوين النقاش الفكرى ، وقد رأى فى أبى سليمان قمة لاتتطاول فحاول الصعود إلى أوجه ، وجعل يدون آراءه حتى فاضت بها مؤلفاته. ومنها الدقيق الجليل الذى لايفهم إلا بعد عسر ومشقة ، ككتابى (المقايسات) و (الهوامل)، ومنها السهل الدمث الذى يقرب من متصفحه ككتابى (الإمتاع والمؤانسة) ، و (رسالة الصداقة والصديق) .

ومن حسن حظ القارئ مع أبى سليمان أنه تحدث عن الصداقة عملياً وفكرياً ، تحدث عن الصداقة عملياً حين تحدث عن تجربته الخاصة فيها ، مع قاض فاضل من قضاة مصره ، فشرح كيف تتحد المشارب ، وتتفق الميول بين الصديقين ، شرحاً لايتأتى إلا من باقعة مقتدر ، ذى أحاسيس تدق ثم ترق ، ونحن نقرأ حديث أبى سليمان المنطقى عن صاحبه فنجده ذا ترجمة أمينة عن أحاسيس مألوفة ، وتجارب موصوفة ، فنسعد سعادة تامة إذ نرى خواطرنا الذاتية الحبيسة مسجلة بقلم فيلسوف حساس شاركنا التجربة ، وقاسمنا الشعور ، ثم استطاع أن يفصح عن خاطره بما لانستطيع أن نقول :

هذا بعض حديث أبى سليمان العملى عن الصداقة ، أما حديثه النظرى فما أكثر ما تردد فى كتب أبى حيان ، وهو حديث عميق ذو دقّة ،

ولابد من الإلمام بذرو منه بعد أن نتحدث عن تجربته العملية الرائعة ، مع قاضى مصره ، لنرى كيف تتجاذب الأرواح وتتعانق القلوب .

قال أبو حيّان التوحيدى لأستاذه أبى سليمان[1] (بتصرف لايطفىء بريق الأصل) :

— إنى أرى بينك وبين ابن سيّار القاضى ممازجة نفسية ، وصداقة عقلية ، ومساعدة طبيعية ، ومواتاة خلقية ، فمن أين هذا ؟ وكيف ؟

— يابنىّ ، اختلطت ثقتى به بثقته بى ، فاستفدنا طمأنينة وسكوناً لايرثان على الدهر ، ولايحولان بالقهر ، ومع ذلك فبيننا بالطالع مشاكلة عجيبة ، حتى أننا نلتقى كثيراً فى الإرادات والاختيارات والشهوات والطلبات ، وربما تزاورنا فيحدثنى بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل ، فأجدها شبيهة بأمور حدثت لى فى ذلك الأوان ، حتى كأنها قسائم بينى وبينه ، أو كأنى هو فيها ، أو هو أنا ، وربما حدثته برؤيا فيحدثنى بأختها ، فنراها فى ذلك الوقت أو قبله بقليل أو بعده بقليل .

— كيف يصح هذا ؟ وأنت مطالبك فى الفلسفة ، وصورك مأخوذة من الحكمة ، وجعبتك مجموعة من الحقائق ، وخوضك فى الغوامض والدقائق ، وذلك رجل فى عداد القضاة ، وجلّة الحكام وأصحاب القلانس ، ومخاضه الظاهر الذى عليه الجمهور ، ومأخذه مما عليه السواد الأعظم .

— هذا هو الذى انفردنا عنه ، بعد أن ازدوجنا عليه ، والأصل أبداً مخالف للفرع ، لاخلاف الضّد للضّد ، ولكن خلاف الشكل للشكل .

---

(١) الصداقة والصديق (ص ٢) بتحقيق الدكتور الكيلانى .

- هذا والله طريف ، ومما يزيد فى طرافته ، أنك من سجستان وهو من الصيمرة .
- الأمكنة فى الفلك[1] أشد تضاماً من الخاتم فى إصبعك ، وليس لها هناك هذا البعد الذى تجده فى المسافة الأرضية من بلد إلى بلد ، بفراسخ تقطع ، وجبال تعلى ، وبحار تخترق .
- وهل تجد عليه فى شىء ، أو يجد عليك فى شىء ؟
- وجدى به فى الأول قد حجبنى عن موجدتى عليه فى الثانى ، على أنه يكتفى فيما خالف هواى باللمحة الضئيلة ، وأكتفى أنا أيضاً منه فى مثل ذلك بالإشارة القليلة ، وربما تعاتبنا على حال تعرض عن طريق الكناية كأننا نتحدث عن قوم آخرين ، ويكون لنا فى ذلك مقنع ، وإليه مفزع ، وقلّ ما نجتمع إلا ويحدثنى عنى بأسرار ما سافرت من ضميرى إلى شفتى ، ولاندّت من صدرى إلى لفظى ، وذلك للصفاء الذى نتساهمه ، والوفاء الذى نتقاسمه ، والباطن الذى نتفق عليه ، والظاهر الذى نرجع إليه ، والأصل الذى رسوخنا فيه ، والفرع الذى تشبثنا به ، والله ما يسرنى بصداقته حمر النعم ، وإذا كنت أعشق الحياة لأنى بها أحيا ، كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة ، وجنى لى ثمرتها ، وجلب إلى روحها ، وخلط بى طيبها وحلاوتها .

هذا تصوير دقيق لتجربة إنسانية عاشها عالم فيلسوف ، فرصد ملامحها الظاهرة ، ونوازعها الخافية ، فى إيجاز لامح ، ومنطق دالّ ، وحوار يغنى عن التفسير والتعقيب .

---

(١) يؤمن أبو سليمان بآراء فى الفلك اقتبسها من الفلسفة اليونانية ، وهى باطلة لا تصور المعتقد الإسلامى الصحيح .

فإذا تركنا هذه التجربة العملية ، على نفاسة ما تحتويه من رصيد ثمين ، إلى آراء أبى سليمان النظرية فى الصداقة والأصدقاء ، فإننا نجد هذه الآراء الفكرية هى التى ساعدت على نجاح تجربته العملية ، حيث كان يجلّ الصداقة فكرياً ويعرف لها ثقلها الراجح فى ميزان الحياة ، حتى إذا أسعفته الأيام بمن يأنس بمؤاخاته ، ويستروح بمصافاته ، مدّ عليه أسبغ الظلال من مودته ، فعاشا معاً فى نسيم يتراوح باللطف ، وتحت غصون تتساقط بأشهى الثمار .

والحق أن أبا حيّان كان التلميذ الحصيف الذى استطاع أن يمتاح من بئر أبى سليمان أعذب النمير ، وأصفى الزلال ، وكأنى به وقد لمس جلال الصداقة بين الرجلين ، فلم يَنِ فى اهبتال الفرصة ، فأخذ يستدرج أستاذه إلى أحاديث خلقية ، تفسر خوافى الصداقة ، ومناحى المودة ، فكان بأسئلته المتشعبة ، كمن يلقى الشبكة فى محيط زاخر يعج بالمستطاب من مشتهيات الصيد ، وأبو حيان كان على غزارة أدبه وعظيم فضله ، ممن فشلوا فى مضمار الصداقة والأصدقاء ، إذ لم تسمح له الأيام بمودة تفيّأ منها أرطب الظلال ، لذلك أرى أن أسئلته الملفقة لأبى سليمان ، تعبر عن شوق ظامئ إلى صداقة تسعف ، ومودة تسعد ، فهى صراخ نفس تتعذب بأوصابها فى نار العزلة والإيحاش . وإننا لننقل طرفاً من أسئلة التلميذ ، وأجوبة الأستاذ ، تتناثر فى صفحات متباعدة من مؤلفات التوحيدى ، ولكننا نقارب منها ما يوضح فكرة الأستاذ ، ويجعل الثمرة دانية القطوف للقراء ، على أن نسلسل ذلك فى حوار متتابع ، وإن لم يكن كذلك فيما تفرق من آثار أبى حيّان ، فلا علينا إذا جمعنا حبات العقد المتناثرة فى سلك منتظم ، فذلك أتم لجماله وأبهى لمرآه .

سأل أبو حيان : هل يلاث ما بين الصديقين ، وهل يفضيان إلى هجر ؟ وهل يفزعان إلى عتب ؟ .

فرد عليه أبو سليمان يقول :

ما دامت الصداقة قاصرة عن درجتها القاصية ، فقد يعرض هذا كله بينهما ، لكنهما يرجعان فيه إلى أس المودة ، وإلى شرائط المروءة ، وإلى مالا يهتك بحق الفتوة ، أما الهجر فإن حدث كان جميلا غير دائم ولا مستمر لحوافز الشوق إلى المعهود ، ومحركات النفس إلى التلاقى ، وأما العتب فربما أصلح وردّ الفائت وشعب الصدع ولمّ الشعث ، والإكثار منه ربما عرض بالحقد ، وأحدث نوعاً من النبو ، وقد قيل : وما صافيت من لا تعاتبه ، وربما كان العود إلى الصفاء بعد هذا الكدر فوق ما عهداه فى الأول[1] .

قال أبو حيّان : سمع ابن عطاء رجلا يقول : أنا فى طلب صديق منذ ثلاثين عاماً فلم أجده ، فقال له : لعلك فى طلب صديق تأخذ منه شيئاً ، ولو طلبت صديقاً تعطيه شيئاً لوجدت ، فما رأيك فى هذا القول ؟

فقال أبو سليمان متعجلا :

هذا كلام ظالم ، الصديق لا يراد ليأخذ منه شىء أو ليعطى شيئاً ، ولكن ليسكن إليه ، ويعتمد عليه ، ويستأنس به ، ويستفاد منه ، ويستشار فى الملمّ ، وينهض فى المهمّ ، ويتزين به إذا حضر ، ويتشوق إليه إذا سفر ، والأخذ والعطاء فى عرض ذلك جاريان على مذهب الجود والكرم ، بلا حسد وبلا نكد ولا صدد ولا حدد ، ولا كلوح ، ولا تعريض بنكير ، ولا فجاءة بتغيير[2] .

فسأل أبو حيان : فما الفرق ما بين الصداقة والعلاقة إذن ؟

---

(١) الصداقة والصديق ، ص ١٠١

(٢) الصداقة والصديق ، ص ٥٤

فرد الأستاذ يقول : الصداقة أذهب فى مسالك العقل ، وأدخل فى باب المروءة ، وأبعد من نوازى الشهوة ، وأنزه عن آثار الطبيعة ، وأشبه بذوى الشيب والكهولة ، وأرمى إلى حدود الرشاد ، وآخذ بأهداب السداد ، وأبعد عن عوارض الغرارة والحداثة ، أما العلاقة فهى من قبيل العشق والمحبة والكلف والتهيّم والهوى والصبابة والتدانف والتشاجى ، وهذه كلها أمراض أو كالأمراض بشركة النفس الضعيفة ، والطبيعة القوية ، وليس للعقل فيها ظل ، ولا شخص ، ولهذا تسرع هذه الأعراض إلى الشباب وتنال منهم وتملكهم ، وتحول بينهم وبين أنوار العقول ، وآراء النفوس ، وفضائل الأخلاق ، وفوائد التجارب ، ولهذا وأشباهه يحتاجون إلى الزواجر ، والمواعظ ، ليفيئوا إلى مافقدوه من اعتدال المزاج والطريق الوسط (١) .

قال أبو حيّان : فهل لك أن تفسر لى قول أرسطو : صديقك هو أنت إلا أنه بالشخص غيرك .

فقال الأستاذ : هذا رجل دقيق الكلام بعيد المرام ، صحيح المعانى ، وقد أشار بكلمته هذه إلى آخر درجات الموافقة التى يتصادق المتصادقان بها ، ألا ترى أن لهذه الموافقة ، أولا منه يبتدئانها ، كذلك لها آخر ينتهيان إليه ، وأول هذه الموافقة توحّد وآخرها وحدة ، وكما أن الإنسان واحد بما هو إنسان ، كذلك يصير بصديقه واحداً بما هو صديق ، لأن العادتين تصيران عادة واحدة ، والإرادتين تكونان إرادة واحدة (٢) .

قال أبو حيّان : ذلك بعيد .

فاحتد أبو سليمان يقول : ليس هذا ببعد هذا إلا لأنكم لم تروا

---

(١) الصداقة والصديق ، ص ١٠٣

(٢) الصداقة والصديق ، ص ٥٥ و ٥٦

صديقاً لصديق ، ولا كنتم أصدقاء على التحقيق ، بل أنتم معارف يجمعكم الجنس ، وينظمكم النوع ، ويؤلفكم بعد ذلك البلد أو الجوار أو النسب ، ثم أنتم فى ذلك الذى اجتمعتم عليه ، على غاية الافتراق للحسد الذى يدب بينكم ، والتنافس الذى يقطع علائقكم ، فلو ثبتم على الصراط المستقيم ، وعلقتم حبل العقل المتين ، واعتصمتم بالعروة الوثقى من الهدى والدين ، كنتم كنفس واحدة فى كل حال ، ذلت أو صعبت تجمعت أو تشعبت ، تعرفت أو تنكرت[1] .

وهكذا استمر الأستاذ يتدفق ويفيض فى تفصيل شاف وتحليل دقيق .

لقد فطن أبو سليمان إلى لباب الصداقة حين سعد بمودة القاضى ابن سيار ، فوقع الطير على شكله ، وانجذب الشبيه إلى الشبيه ، وقد أوحت له هذه الصداقة من لطائف الخواطر ، ورفيق المشاعر ، ما كاد يصبح به شاعراً يحلّق ، لامنطقياً يغوص ، وإذا كان الخلق النبيل معتصمه فيما يرتبط به من العلائق والوشائج ، فإننا لنعدّهُ ، بما انغمس فى التجربة ، وبما كتب عنها أو تحدث — من الآراء ، أستاذ خلق وباحث اجتماع .

---

(١) المصدر السابق .

المناسبة بين السور القرآنية

وعدت القراء فى مقال سابق أن أتحدث عن المناسبة بين السور القرآنية ، إذ أن كثيراً من المفسرين قد أجهدوا أنفسهم فيما لا طائل وراءه من تكلف الاحتمالات البعيدة ، ذلك أنهم حصروا وجه الربط فى الآية الأخيرة من السورة السابقة والآية الأولى من السورة اللاحقة ، وهو نظر جزئى يحتاج إلى امتداد فسيح ، لأن الربط الحقيقى بين السور المتجاورة يمتد إلى الموضوع الشامل فى السورتين كلتيهما ولا يقف عند آيتين اثنتين تذكر إحداهما خاتمة وتذكر الثانية بدءًا ، ولا ننكر أن تكون الخاتمة فى بعض الأحيان وثيقة الصلة بالآية الأولى التالية فى سورة لاحقة ، ولكننا ننكر أن يتكلف المتكلفون وجهاً للارتباط بين الآيتين لاتوحى به الدلائل الواضحة ، وندعو إلى امتداد النظرة بين السورتين كلتيهما ، لأن موضوع السورة الأولى قد يكون السر فى مجاورة السورة التالية ذات الموضوع المقابل ، وسنضرب المثل لما نعنيه بسورتين كريمتين هما سورتا الدهر والمرسلات ، وهما متجاورتان فى كتاب الله وبينهما من الترابط ما يمثل الوجهة المنطلقة التى نجعلهاموضع الاستشهاد ، وهى وجهة الموضوع العام .

بين الترهيب والترغيب :

إن النفس البشرية تحتاج إلى ترغيب يدفعها إلى الأمل ، ويجعلها مستبشرة قريرة العين ، هادئة البال إذا اتبعت أوامر الله عز وجل ، واجتنبت نواهيه ، كما تحتاج هذه النفس المتطلعة إلى جواذب الحياة المغرية لترهيب يخوفها المعصية ، ويجعلها ذات شعور حاد بقوة المسئولية

وخطر التبعة إذا اقترفت الآثام ولم تلتزم حدود الله فيما أمر ونهى ، لذلك كانت آيات الترهيب والترغيب ذات تجاور طبيعى فى السورة الواحدة من كتاب الله ، وهو ما أشار إليه المفسرون فى وضوح لايحتاج إلى المزيد ، ولاتكاد تذكر الجنة حتى تلحق بذكر النار ليقف القارئ على وجهى الثواب والعقاب معاً ، هذا التجاور الملحوظ فى السورة الواحدة ، يلاحظ أيضاً فى السورتين المتجاورتين ، وهو موضع المناسبة بينهما ، وهى مناسبة ممتدة لاتقف فى حدود الآيتين المعهودتين ، بل تشمل موضوعى السورتين معاً .

سورتا الدهر والمرسلات :

فإذا تأمل القارئ الدارس سورة (الدهر) وجدها تكاد تكون خالصة للبشارة والأمل إلا فى نص صغير يرهب ويوعد فى مجال المقابلة الطارئة ، كما أن سورة (المرسلات) تليها متحدثة عن الزجر والتهديد إلا فى نص صغير يبشر ويرحب فى مجال المقابلة الطارئة أيضاً ، ومعنى ذلك أن قارئ كتاب الله إذا انشرح صدره للطاعة فإنه مع سورة (الدهر) فى روضة معطار ، تجد فيها ما تشتهيه النفس وتلذ العين ، فيقبل على قراءتها بعيداً عن جو الإنذار والتخويف ، كما أن قارئ القرآن إذا تورط فى المعصية فإنه مع سورة (المرسلات) فى جو رهيب ينذره بالويل الراصد ، ويريه مصيره فى اللهب المستعر ، والجحيم المشتعل ، وهكذا يكون تجاور السورتين مرتبطاً أوضح الارتباط حين يفصل المصيرين المتقابلين تفصيلا يبلغ مبلغه النافذ فى الإقناع والتأثير ، وسنستعرض هنا عناصر السورتين الكريمتين ليرى الدارس كيف كان تجاورهما منطقياً فى بابه ، وكيف كانت المقابلة بين مشهدين متناقضين ذات عبرة بالغة وحسم دقيق .

سـورة الدهـر

تبتدئ سورة الدهر بالحديث عن الإنسان قبل الخلقة حين لم يكن شيئاً مذكوراً ، ثم تتحدث عن نشأته من نطفة أمشاج ليكون فى أحسن تقويم ممتعاً بالسمع والبصر ، وتذكر نعمة الله عليه ، إذ يسر للعاقل السبيل ، إما شاكر قد انتفع بسنا الفهم ، أو كافر تنكب الطريق ، وتشير السورة إشارة خاطفة إلى أغلال الكافرين تلميحاً إلى الجهة المقابلة فى سرعة طائرة لتنتقل سريعاً إلى نعيم الأبرار إذ يشربون من كأس صافية مزجت بالكافور .

« عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً » .

هؤلاء الذين كانوا يوفون بالنذر ويخافون عقبى الغدر ، ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، فكانت النتيجة لهذه الطاعة المؤمنة الواثقة أن وقاهم الله شر العذاب .

« وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً * وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَايَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَازَمْهَرِيراً » .

أى لايرون شمساً ذات حرارة شديدة ولا زمهريراً قاسى البرودة ، أما الشمس الطبيعية فذات دفء وجمال ، وهى بنورها المتلالئ من أدوات البهجة فى جنة الله ، وأما ظلال الشجر الوارف فممتدة دانية .

« وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً * وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً * عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنْثُوراً *

وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ، عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ، ويأتى عقب ذلك قول الله : « إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَشْكُوراً » .

فأى وصف لمشاهد النعيم فى جنة الله يفوق هذا الوصف الرائع فى تعدد مناظره وتسلسل معانيه ، وفى قوة صياغته ، وجمال تصويره ، وتكرار بعض ألفاظه لإيحائها البالغ ، ووميضها الخالب ، وقد يشهد الدارس امتداداً معقولا فى الآيات ، لأن مناظر النعيم ترحب بهذا الامتداد المؤنس ، فهى تراه كشريط يمر هادئاً متمهلا ليرى الناظر ألوانه البهيجة فى إمعان ، أما خواتيم الآيات وقد اختيرت لها الراء المنصوبة الممتدة فذات إيقاع مطرد ، فإذا انتقل الحديث بعد ذلك إلى مخاطبة الرسول مبتدئاً بقول الله : (إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا) نرى الإيقاع يتوالى فى وجوه السابق ممتداً مطرداً ، وقد جاءت اللام المنصوبة مكان الراء السابقة لتشير إلى اختلاف الغرض بين معان ومعان ، ثم إذا انتهت السورة الكريمة بقوله عز وجل : (يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليما) كان هذا الختام تمهيداً طبيعياً لسورة المرسلات .

سورة المرسلات

هنا جو مختلف عن جو السورة السابقة ! جو يقف من جوها موقف النقيض من النقيض ! فبعد الهدوء الممتد الوائق تبتدئ السورة بهذا التصوير الرنان :

« وَالْمُرْسِلَاتِ عُرْفاً . فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً . وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً . فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً . فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً . عُذْراً أَوْ نُذْراً » .

ولا يكاد القارئ يأخذ أنفاسه حتى يجد نفسه أمام مشهد أقسى وأعنف من مشاهد الآخرة المذهلة .

« إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ . فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ . وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ . وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ . وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ . لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » .

ويتوالى تكرار الآية « ويل يومئذ للمكذبين » كلما جاء معنى جديد من معانى التهديد ليحدث أثره الهائل فى نفوس جاحدة لا ترجو لله وقاراً وتأتى الآيات قصيرة الكلمات ذات رنين فى الفاصلة ، فليس بها امتداد كامتداد آيات النعيم فى السورة السابقة ، ليكون رنينها المتصل كمطارق قاسية تصدع رءوس من ارتكبوا الموبقات حين يسمعون مثل قول الله عز وجل :

« وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ . انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ . لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ . إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ . كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ

لِلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ * فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » .

وكما جاءت الإشارة السريعة فى سورة الدهر إلى العذاب فى قول الله تعالى :

« إِنَّا نَخَافُ مِن رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً * فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً » .

لتزيد سعادة المتقين حين يعرفون أنهم نجو بإيمانهم من عذاب يوم عبوس قمطرير ، فكذلك جاءت الإشارة إلى نعيم المؤمنين فى سورة المرسلات وسط الحديث المتصل عن أهوال الكافرين لتزداد حسرة المذنبين حين يسمعون قول الله :

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فى ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ، وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » .

وتنتقل الآيات سريعاً إلى حديث العذاب ، فيقول الحق تبارك وتعالى لهؤلاء العصاة .

« كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ » .

مشاهد المستقبل

والروعة كل الروعة فى السورتين معاً تجىء فى عرض مشاهد المستقبل ، وكأنها قد وقعت بالفعل ، لأن الجنة والنار حقيقتان ماثلتان ، فإن احتجبتا عن أهل الدنيا فستنكشفان يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وتكرار هذه المشاهد فى كتاب الله مما يزيد المؤمنين إيماناً ، كما أنه يطير بنفس الكافر شعاعاً فيجعله من القلق والحيرة على مثل موج البحر يحاول الثبات فلا يستطيع ، وهكذا ضاق المشركون بكتاب الله ، فتواصوا بالإعراض عنه ، وكأنهم قد استشعروا منافذ تأثيره الحاد ، فخافوا على أنفسهم وعلى من يلوذ بهم أن ينجذبوا إلى الوحى مصدقين لو أطالوا الاستماع ، ولكنهم صاحوا منفعلين : « لا تسمعوا لهذا القرآن » .

القرآن اساس الثقافة

جاء فى تقرير الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامى (الدورة السادسة عشرة) فى ٢ من ذى القعدة سنة ١٣٩٤ هـ ، ما نصه :

سادس عشر : لاحظ المجلس فى دورته السابقة ظواهر تناقص الاهتمام بتدريس القرآن الكريم ، وتحفيظه للطلاب فى بعض الدول الإسلامية ، والتى تمثل صوراً من رواسب السياسات التعليمية الاستعمارية ، وقد تقرر توجيه دعوة إلى الحكومات الإسلامية لنبذ هذه السياسة التعليمية الموروثة ، ووضع برامج ومناهج تعليمية بجميع مراحل التعليم الابتدائى والثانوى والعالى بحيث تشمل تحفيظ القرآن من البداية وتعليم العقيدة ، وقدراً كافياً من الشريعة ، إلى جانب التربية الأخلاقية ، وقد قامت الأمانة العامة بتبليغ هذا النداء إلى الجهات المختصة ، وما زالت توالى متابعتها للموضوع مع الجهات المعنية » .

هذا بعض ماجاء فى تقرير الأمانة العامة هذا العام ، وهو التفات طيب إلى ناحية جوهرية من أهم نواحى التربية الإسلامية ، وما لاحظه التقرير من تناقص الاهتمام بتدريس القرآن الكريم وتحفيظه للناشئة أمر لا شك فيه ولا يتطلب مراء من لجوج يغيب رأسه فى الرمل كالنعامة دون جدوى ، متعامياً عن حقيقة ما يجابه الأمة الإسلامية من خطر ماحق إذا دام هذا التناقص المشين . .

وإذا كنا نرى انتشار التفاهة الخلقية ووهن الرابطة الإسلامية ، وركاكة التعبير الأدبى ، وضحولة الثقافة العلمية الحقة لدى الجيل الحاضر إذا قيس بالجيل السابق ، فإن هذا كله وما يندرج تحته من النوائب الفادحة يعود إلى أن هذا الجيل المعاصر قد كاد يفقد صلته الوثيقة بتحفيظ القرآن فى ربوع كثيرة من بقاع الإسلام .

وقد نشأت شخصياً فى جيل كان الاهتمام فيه بتحفيظ القرآن الكريم أضعاف أضعاف ما أشاهده اليوم ، على رغم ما اعتزم عليه المخلصون من الجدية المخلصة فى بعث هذا العمل الجاد ، إذ كانت المكاتب التعليمية متعددة فى جميع القرى المصرية — على سبيل المثال — لتحفيظ القرآن ، وكان التلميذ لا يذهب إلى المدارس الابتدائية وهى (الإعدادية الآن) إلا إذا تعلم القراءة والكتابة وحفظ بعض السور القرآنية ، ليساعد ذلك على القبول بهذه المدارس ، أما المدارس الإلزامية وهى (الابتدائية الآن) فكان تحفيظ القرآن الكريم مادة أساسية ذات حصص مثمرة فى كل صف من الصفوف ، وهذه المدارس كانت تؤهل للالتحاق بالمعاهد الأزهرية ويدور المعلمين والمعلمات حينئذ ، ومعنى هذا أن كل طالب مصرى مسلم كان يبدأ بالقرآن الكريم فى مقتبل حياته ، وكانت جزالته الرصينة تبعث على نمط من القول يشرئب إلى نماذجه الرائعة فى مستقبل حياته ، كما كانت معانيه الخلقية تترك صداها الحى فى نفسه ، فينشأ على ثقافة حية هادفة وجدت بذرتها الأولى من كتاب الله الكريم ، وما زالت تدفع بصاحبها إلى الجد والتحصيل حتى يكون شيئاً ذا بال ، ولك أن تقارن بين المتخرج من الجامعات اليوم والمتخرج فيما قبل اليوم من طلاب الجيل السابق ، حيث كان طالب الأمس على ثقافة عربية تعصمه من اللحن ، وتحفظه من الركاكة ، بفضل ماوعى من بيان القرآن ، أما طالب اليوم فيحمل الليسانس والبكالوريوس ولايكاد ينطق جملة صحيحة .. هذا من ناحية التعبير اللفظى وحده ، أما الالتزام الخلقى بآداب الإسلام فإن الحديث عنه يطول ، ولتفصيله مجال غير هذا المجال ...

هذا أثر واحد من آثار الالتزام بتحفيظ آيات القرآن الكريم ، إذ يورث قارئه ثقافة قرآنية ترتفع بمستواه على نحو كريم ، ولست أريد هنا بثقافة القرآن ما يلم به الدارس المتخصص من مؤلفات علمية تدور

حول كتاب الله من التفسير ومعرفة أسباب النزول وتعدد القراءات ، ثم ما يتفرع عن ذلك من مسائل الفقه والتشريع والحديث ، وأوجه البلاغة فى الإعجاز وإعراب الدقائق فى النحو ، واستنباط الكليات فى الأصول ، فتلك ثقافة متخصصة لها رجالها العاملون ، وكلياتها الجادة : وهى بإذن الله مستمرة باقية ، على ما قد يوجه إليها من اقتراحات ترأب الصدع ، وتجبر الكسر ، وهى بعد ذلك غير ما أعنيه الآن من ثقافة القرآن ، إذ أنى أريد فى نطاق هذا المقال أن أتحدث عن أناس كثيرين أعرفهم حق المعرفة لم يأخذوا أنفسهم بدراسة دينية فى معهد ، أو يقرأوا كتباً علمية على أستاذ ، بل كان جهدهم الثقافى وحده هو حفظ القرآن فى دور الطفولة والمراهقة بمكاتب الريف ، دون أن يجدوا الأسباب لفهم أسراره وشرح معانيه ، وإنما كان مقرئ القرية هو المعلم وحده : وهو كما تعرف لا يستطيع شرحاً لما دق أو إيضاحاً لما غمض ، وأنى ! وهو حافظ مرتل ، لا دارس متأمل .

هؤلاء أعنيهم اليوم بالحديث ، فقد اتضح لى بمعاشرتهم الطويلة ، ومشافهتهم مباشرة ، أن مجرد حفظهم للقرآن — حتى بدون الشرح والتفهيم — قد جعلهم على نصيب طيب من الثقافة الإسلامية ، دفعهم تلقائياً إلى قراءة ما يقدرون على فهمه من كتب التفسير والحديث . فاستطاعوا بذلك أن يردوا مناهل الحق بأنفسهم ، وأن يقفوا فى بعض الأحيان على ما قد يفوت أبناء المدارس من المتعلمين .

إن المسلم منهم يحفظ كتاب الله من ألفه إلى يائه ، حفظاً يستشعر به شموخاً فى نفسه ، ونوراً فى قلبه ، وانشراحاً فى صدره ، إذ يلم بداهة بقصص القرآن المتكررة فى كتاب الله ، ويعرف أصولا عن العبادات والمعاملات فى الإسلام ، كما تمده آيات الأخلاق القرآنية بنمط حى من السلوك الإنسانى الهادف ، فيتطلع فى شوق إلى إدراك ما يهدف إليه

النص الكريم ، ويعمل تلقائياً على الاتصال برجال العلم من أئمة المساجد ووعاظها ومدرسى التربية الدينية فى مدينته ، أو قريته ، حين يشعر فى أعماقه أنه قريب من هؤلاء ، إذ يحفظ القرآن كما يحفظون ، ولئن فاته استيضاح أكثر معانيه ، فهو بسبيله إلى أن يستوضح ويستكشف .

ولن يقول أحد أن أسلوب القرآن ببيانه العالى يقف ارتفاعه البيانى حائلا دون أن يمد هذه العقول الواهنة ببعض الشعاع ، إذ أن من آثار رحمة الله على قارىء القرآن الكريم ، أياً كان مستواه الذهنى ، أن يمده بنور من هدايته ، فهو يجد لقلبه منه شفاءه ، ويحس من إيحائه الصادق معانى إن ضاق بها تعبيره اللفظى فإنها تملأ كيانه الإنسانى ، وتورثه طمأنينة نفسية إذا كان ممن يتجهون بأعمالهم إلى الخير ، كما تعذب ضميره إذا كان ممن سقطوا فى بوائق الشر ، كما أن حفظ هذا الكتاب الخالد يمده بثقة غالية ، إذ هو عند نفسه ممن يحفظون كلام الله ! وهى مرتبة تشعر بالسعادة دون ريب ، كما أنها تفتح باب الأمل فى عفو الله .

نعهد من معارفنا فى الريف المصرى أناساً يحفظون الكتاب الكريم ، ولم تهيىء لهم ظروفهم أن يلتحقوا بمدرسة تعليمية ، ولكنهم لائتناسهم بكتاب الله ، وشعورهم بما يكون من ثروة روحية وعلمية لاتقف عند حد ، يحرصون على مجالسة أهل العلم من مدرسين ودارسين ، ويحاولون من لدن أنفسهم قراءة كتب السيرة النبوية والتفسير والحديث ، وقد يفهم القارئ سطوراً وتغمض عليه سطور ، ولكنه فرح بما فهم ، مشوق إلى استجلاء ما لم يفهم ، ثم يدفعه طموحه إلى الاشتراك فى المجلات الدينية ، والحرص على سماع الأحاديث الإذاعية ، وله ارتقاب لجوج لكل منفذ من منافذ العلم ، وتمر الأيام فإذا الحافظ دارس قارئ ، وإذا الدارس القارىء عالم مستنير ، وكل ذلك بفضل ما حفظ من الصغر من آيات الذكر الحكيم .

هذا كلام نقوله بعد أن أكدته التجربة العامية بأناس نعرفهم بأسمائهم وأعيانهم حق المعرفة ، ولكنك قد تعلن عن هؤلاء فى غبطة سعيدة ، فتسمع معترضاً لجوجاً يتكلف الغيرة وبعد النظر فيقول : إن هؤلاء الذين يعتمدون على أنفسهم بعد أن حفظوا كتاب الله يتعرضون لكثير من الخطإ ، إذ ربما يفهمون غير ما يقرأون مما هو مدون مكتوب ، وقد غاب عنهم توعية الأستاذ ؟ ونحن نقول فى جد : إن التعرض للخطإ فى الفهم ليس مقصوراً عليهم ، فالعلماء الكبار يخطئون ويصيبون ، ولئن كان أولئك أقرب للخطإ من هؤلاء ، فإن الخطأ طريق الصواب لا محالة ، ثم إننا فى عصر ألفت فيه الكتب الدينية ذات الأسلوب السلس ، والتبسيط الميسر ، وكتب التلاميذ المدرسية فى الحديث والأخلاق والسيرة ونصوص القرآن ذائعة مكدسة فى كل منزل ، وهى بمستواها التربوى تصلح غذاء لمن حفظ القرآن ولم يواصل التعليم ، فإذا ضم إليها نظيرها من الكتب السهلة فى الآداب والأخلاق والشريعة والاعتقاد ، فكلها مما يجعل حافظ القرآن الكريم ذا سبق بصير .

وقد مضى وقت كانت فيه كتب التفسير القرآنى بوجه خاص وكتب الثقافة الدينية بوجه عام أقرب ما تكون إلى الأحاجى والألغاز ، فهناك متن غامض وراء شرح يقف عند حدود اللفظ ومن بعدهما حاشية تعترض على الشرح ، ثم تقرير يحاول الترجيح بين اعتراض واعتراض ! وجوهر الموضوع غائم مضب لا يلوح لمستفيد ، ولكن تقدم التأليف واستناده إلى الأصول التربوية الهادفة قد ساعد على تيسير القراءة دون جهد وإملال ، وأظن من يحفظون كتاب الله جميعاً لا يعجزون عن قراءة المصحف المفسر الذى كتبه أستاذنا العلامة محمد فريد وجدى رحمه الله ، حيث نأى بتفسيره الدمث على كل مصطلح علمى ، أو خلاف جدلى ، وكان من رحمة الله أن ينشر هذا التفسير الحميد على نطاق

واسع بحيث تطبع منه دار الشعب قرابة أربعين ألف نسخة فى كل عام، فإذا اتجه حافظ القرآن إلى مثل هذا التفسير المبارك فلن يعوقه عائق ما عن إدراك ما يشير إليه كتاب الله ، وسيكون هذا التفسير الناصع الهادف دافعاً قارئه إلى قراءة غيره ، مترقياً إلى بحوث أعسر منحى ، ثم تتوالى القراءة فإذا الحافظ دارس وإذا الدارس عالم وكل ذلك بفضل من كتاب الله .

إن ثقافة القرآن فى هذا المجال ذات نفع مؤكد ، وكسب مضمون، ونحن نؤكد ذلك آسفين لما نلمسه من انصراف أكثر الناشئين فى هذا الزمن عن حفظ القرآن وتجويده ، على نحو ما كنا نعهد فى أيام طفولتنا من قبل ، وتلك معضلة يجب أن تتوجه القلوب المخلصة ، والعقول البصيرة إلى حلها حلا لا يتحيف القرآن ولا ينتقص مما يحتاج تدريسه من وقت ، مهما أتخم الجدول المدرسى بشتى الفروع ! لقد كانت دور المعلمين والمعلمات منذ عشرين عاماً تصطفى أبناءها من حملة القرآن الكريم فى المدرسة الإلزامية ، فكان الطالب يقضى خمس سنوات فى هذه الدور ثم ينتهى مدرساً كفئاً لمهنته ، وله علمه وذوقه وأسلوبه ومستواه ، أما الآن فنجد هذه الدور تختار طلابها من حملة الإعدادية الذين لا يحفظون غير آيات يسيرة ، فيقضون خمس سنوات ثم يخرجون كما نرى الآن دون جدوى ! ! فإذا بحث المسئولون عن انخفاض المستوى التعليمى لدور المعلمين والمعلمات فعليهم أن يتذكروا أن القرآن قد ضاع لدى الطلاب ، فهم بعده تائهون .

إن الثقافة القرآنية وحدها بعيدة الأثر عن كل مقارنة وترجيح، إذ تقدم عطاء للعامة يرضى مشاعرهم ، ويرتفع بمستواهم ، ويسمو بأخلاقهم ، أما عطاؤها الدائم للمتخصصين فلا ينكره أعتى الجاحدين .. ألا هل بلغت ! ! . .

اين انتم من كتاب الله

(عبث بغيض)

« لَقَدْ كَانَ فى قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

يفاجأ من يقرأ صحف اليوم — وما أكثرها فى شتى بقاع الإسلام — بما لا يتصوره ذو الفكر المتأمل ، بل بما لا يمكن أن يقع فى تصوره ، مهما نزح به الخيال وشطت بأهوائه الأوهام ، هذا إذا كان ممن يعتصمون بالمنطق الراشد والفكر المحايد ، أما الذين يميلون مع الغرض فلن يجدوا مفاجأة فى الشذوذ الناشز ، والجموح المريض .

ومن هذه المفاجآت المنكرة ماجاء منذ حين بجريدة « الأهرام » تحت عنوان (التمسك بالأرض) حيث ظهرت قصيدة (لأمل دنقل) تتحدث عن عصيان ابن نوح عليه السلام لأبيه ومخالفته أن يركب معه السفينة حين دعاه ، وتعد ذلك وطنية ممتازة لفدائى غيور أبى أن يترك أرضه وظل متمسكاً بها حتى بذل روحه فداءها . ولا أحب أن أنقل شيئاً منها ، فهى من العامية المصرية التى لا يهش لقراءتها أكثر المثقفين فى مصر والتى لايفهم مضمونها الكامل غير المصريين من أبناء الضاد .

وقد تصدرت القصيدة مقدمة متهافتة كتبها الدكتور لويس عوض ، تبارك هذا الاتجاه ، وترى أن استغلال قصة نوح وابنه على هذا النحو (الأدبى !) يضيف مفهوماً جديداً للوطنية ويذهب بالقصة إلى ما ينبغى

أن تدل عليه من إشارات يجب أن تتطور على مر الزمان لتنقل من مغزى إلى آخر ، وما أريد مرة ثانية أن أنقل من كلام الدكتور لويس عوض ، بعد أن أوجزت مضمونه ، لأن الكاتب يسطر حروفاً عربية تتجاور فى غضب وتكاد تنكر نفسها ، إذ لا تطرد على نحو ما يكتبه الأدباء ممن يشهد لهم الدكتور لويس عوض نفسه بالإجادة ، كطه حسين وعباس العقاد .

وقائل هذا العبث الكريه يتوهم أن القصة المذكورة فى القرآن الكريم (باعتبارها حقيقة واقعة لأناس عرفوا بأشخاصهم فى الحياة) يجوز أن تستغل فى الفن الشعرى والروائى ، كما تستغل الأسطورة الخرافيـة فى آداب اليونان والرومان حيث يتناولها الروائيون على مر الزمن ليصلوا منها إلى مفاهيم مختلفة لا تزال تتبدل على أيدى الكاتبين ، ونضرب المثل لذلك (بأوليس) البطل اليونانى الخرافى ، حيث صورته (الإلياذة) مغامراً مندفعاً ثائراً يتقدم إلى خصومه صاخباً مجلجلا فى تحد وكبرياء ، وجاءت (الأوديسا) لتجعل من هذا المندفع المغامر رجلا ماكراً متئداً ينصب أحابيل المكيدة من وراء ستار دون أن يتقدم الصفوف . وأتى (سوفكليس) بعد (هوميروس) ليجعـل (أوليس) شريراً لئيماً خبيثاً لا يتريث لحظـة فى ارتكاب الفظـائع الداميـة ، فهو صنم الشر المتجسد للعيان ! فيا بعد ما بينه وبين بطل الإلياذة ! ثم تمضى الأيام فيجىء دانتى ومن تلاه من قصاصى عصور النهضة ليجعلوا من (أوليس) نماذج متباينة لا تلتقى فى طريق ، فهم يجعلون منه ومن أمثاله مشاجب يعلقون عليها مايرون من النزعات والأهواء ولا عليهم أن ينتقلوا بالبطل من الجنة إلى النار أو من الأرض إلى السماء ، لأنه — فى صميمه الواقعى — وهم لاحقيقة ، وتاريخه أسطورى تلقفه (هوميروس) أمشاجاً متناقضة

متضاربة مما سمعه من العجائز والرعاة ، وجاء بعد (هوميروس) من خالف وجهته فى تقديره .

وإذا جاز ذلك فى شخص خرافى ، فكيف — بالله — يجوز أن نأتى إلى قصة حقيقية ، ذكرها القرآن — ودعك مما سبق القرآن من صحف سماوية تناولها التحريف — عن نبى من أنبياء الله الصالحين ، لتكون بحقائقها الثابتة عبرة لأولى الألباب ، إذ ليست مما يفترى من الخرافات ، ويفتعل من الأساطير .

كيف يجوز أن نأتى إلى تاريخ ثابت حكاه القرآن الكريم واقعاً ملموساً مميز المعالم ، ملموس السمات ، ثم نجعله كأسطورة تتبدل وتتغير ، بحيث يكون الكافر العاصى بطلا مدافعاً والنبى الداعية هارباً فاراً ! ثم نجد من ينشر هذا الهراء فى صحيفة يومية يقرأها آلاف المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، كما نجد من يتطوع فى سرعة مبتهجة لتقديم هذا العبث المنكر وتزكيته وتقريظه ، تقديماً يوحى للأغرار من ناقصى الثقافة بمحاكاة هذا الهراء السفيه ! إلا أن يكون هذا الهراء مقصوداً لذاته ، حيث يفعل بحقائق القرآن ما يفعل بأساطير هوميروس ومن حاذاه .

إن نوحاً لم يكن مستعمراً بغيضاً حيث يقف ولده أمامه متحدياً ومدافعاً عن الوطن ! بل كان نبياً كريماً أتى قومه برسالة السماء ليمثل الحقيقة الساطعة حين يهتف بإنقاذ المستضعفين ، ورعاية مكانهم فى الحياة ! وهى المساواة التى يتشدق الأغرار بها على أنها ثمرة الثورة الفرنسية ، وليست من تعاليم السماء ، وأهداف الرسل والأنبياء ، فيقول نوح عليه السلام فيما حكى الله عنه :

« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى ، وَآتَانِى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ، أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ،

وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ ، وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ » .

يقول ذلك ليرد على قولهم فيما حكاه الله عنهم :

« مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا ، وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » .

وكان نوح نبياً مرشداً حين أراد أن يفتح العقول على التفكير المثمر ، والتدليل المقنع ، فيقول فيما حكى الله عنه :

« فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ، وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ ، وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ، مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ، أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ، وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ، وَاللهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ، وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ، وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً » .

وقد دعا ابنه وامرأته فيمن دعا من الجاحدين ، فخالفته زوجته ، ووشت به ، وائتمرت مع المؤتمرين على حربه . كما عقه ولده ونشز عليه وأصر على مخالفته ، وقد أدركه حنان الأبوة فكرر دعوته إليه راجياً أن يمن الله عليه بالإيمان فلا يهلك مع المغرقين ، ولكن الولد الأرعن قد اشتط وتحدى ، ثم هطل ماء السماء ، وتفجرت ينابيع الأرض ، فالتقى الماء على أمر قد قدر ، وأخذت سفينة نوح تجرى بمن حملت من

المؤمنين فى موج كالجبال ، فجاشت عوامل الحنان مرة ثانية فى قلب الأب الشفيق وصاح بابنه :

« يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ، قَالَ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ » .

ليت شعرى ، أين الوطنية القومية ؟ وأين التمسك بالأرض فى عناد ولد عاق نشز عن دعوة العقل والمساواة والكرامة ، حتى يكون مثلا للنضال القيمى ، والجهاد الوطنى ، وحتى يبدل كلام الله ، فيحرف عن وجهته ، ويقول القائل : إنه رمز الفداء والاستبسال ! وهل هان كتاب الله عز وجل على المسلمين حتى يروا من يجعل حقائقه كالأساطير ذاهباً فى تفسيرها من النقيض إلى النقيض ؟

على أن الأمر لم يقف عند نوح عليه السلام ، ولعلها خطة مدبرة لتشويه قصص الأنبياء والمرسلين ، فقد رأينا من هؤلاء من يتعرض إلى قصة آدم وحواء ليجعل من عصيانهما الله حين أكلا من الشجرة المحرمة نزوعاً إلى المعرفة الكاملة والاستطلاع المتيقظ الحريص ، فهما بهذا العصيان قد أدركا كل سر ، وحطما كل حجاً يقوم حائلا دون اكتناه المجهول ، وكان الكاتب مخادعاً ، حين ترك النص القرآنى ، وأخذ ينقل من نصوص التوراة ، ومصدر الخداع المكشوف أن الكاتب مؤمن بدين الإسلام واسمه محمود ، وقد قرأ القصة فى القرآن الكريم وعرف ما أحاط بها من اليقين الذى لا يتطرق إليه الشك ولو أسلم وجهه للحق لعرف أن القرآن مهيمن على التوراة ، وما دام القرآن لم يذكر ما يدل على أن الشجرة شجرة المعرفة فليس له أن يتمسك بما

تقوله التوراة المحرفة ، ولكنه يتجاهل ذلك ليوهم الناس أن آدم كان محجوباً عن المعرفة ، وكأن الله عز وجل شاء له أن ينعم بجهله فى الجنة لا بعلمه مع أنه علم الأسماء كلها وأجاب عما جهلته الملائكة ، ومن يفضل الملائكة بعلمه لن يكون محجوباً عن الإدراك .

هذا ما عرفه الكاتب من القرآن وآثر تجاهله ليجعل آدم ظامئاً إلى خير حجب عنه ونور بعد عن عينه ! وحين يتطلب هذا النور لا يجد لائماً يلوم ! فأى هراء هـذا ! إن القرآن قـد جعـل الشجرة موضعاً للاختبار ، وحين أكل منها آدم كان خاضعاً لوسوسة الشيطان حين أوهمه أنها شجرة الخلد ، وأنه سيظل ناعماً ممتعاً حين أكل منها ، وهذا ما حكاه الله فى قوله :

« فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ، فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّـةِ ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى » .

نحن نعلم أن قصاصاً فرنسياً قد اقتنع برواية التوراة حين كتب قصة آدم فى ثوب خيالى فضفاض ، ليس به من الحقيقة شىء ، إذ جعله مظلوماً مضطهداً لاعاصياً تاب الله عليه ، ولكن الكاتب الفرنسى مادى لايؤمن بإله ، وله أن يعبث بقصص الأنبياء ، إذ يعدها من أساطير الأولين ، فليس بعد الكفر ذنب ، ولكن ما لنا نجد الكاتب العربى المسلم ينقل عن التوراة المحرّفة ، ويترك القرآن الصحيح ، ثم يجعل ما فى التوراة حقاً واقعاً ، وهو يعلم أن التوراة تخضع لهيمنة الكتاب الكريم ! وإذا قالت التوراة أن آدم كان يبحث عن المعرفة ، وقال

القرآن أن آدم قد خضع لوسوسة الشيطان حين صور له أن الشجرة المحرمة هي شجرة الخلد ؛ فأيهما أجدر بالاتباع ؟ ثم هل يعقل أن ينهى الله آدم عن المعرفة وقد كرمه واصطفاه وعلمه الأسماء التي تجهلها الملائكة ! مع أن معرفته كانت مصدر امتياز وإكبار ! وبهما سجد له الملائكة أجمعون .

ثم يقول الكاتب : (هذا آدم الذى أخرج من الجنة بالخطيئة كاد أن يدخل فى زمرة الآلهة بالخطيئة ، ومن الناس من يعيش على الأرض الملعونة وهو سعيد ناعم كأنه فى الجنة لأنه يعيش على هامش تلك الحياة النباتية التى لا تنفعل ولا تتأثر ولا تدرك إلا ما يحيط بها ، فهو فى نعيم ، ولكنه بعيد عن نعيم المعرفة) .

هذا كلام غارق فى الضلال ، فآدم قد تاب الله عليه حين ندم واعترف بجرمه ، فاجتباه الله واصطفاه ، وبهذه التوبة النادمة سيدخل جنة الله ، لا بالخطيئة التى ارتكبها ، ولا أدرى ما يقصد الكاتب بقوله (زمرة الآلهة) فأهون ما نقوله أنه بهذا الجمع المنكر يقلد قوماً لسنا منهم ، وما نريد أن نلج إلى السرائر ولكننا ندعو إلى الاحتراس البصير ، ثم ما هذه الخطيئة التى تكون هى السبب الأوحد للمعرفة ! أفلا يوجد عالم عارف غير مخطئ ! ليقرأ الكاتب صحف المصلحين ، فيعرف الخبر اليقين ..

يا قوم .. إن كتاب الله لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ، فلا تحيدوا عن منطقه السديد ..

الرجوع الى السياق

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً . وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً . وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً . فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً . فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً » . (صدق الله العظيم)

مراعاة السياق العام للنص الأدبى بعامة مما يدل على اتجاه المعانى ، ويبدد الظلمة عن وجه الكلام حين تلتبس الآراء ، والنص القرآنى أرقى النصوص الأدبية فى تراثنا الفكرى ، فهو بإعجازه الخارق فوق كل كلام ، ولابد من مراعاة السياق عند تناول معانيه المختلفة ، وبخاصة حين نقف موقف الترجيح بين أقوال شتى ، ذكرها المفسرون ، إذ نرى كتب التفسير تزدحم أحياناً بشتى الأقوال المختلفة فى تفسير معنى واحد ، ويظل الخالفون ينقلون عن السالفين هذه الأقوال المختلفة وكأنها جميعها من حيث السداد فى مستوى واحد ، مع أن مراعاة التسلسل فى سياق النص تجعلنا نملك أداة الترجيح مؤيدة بالدليل المطمئن ، كما تجعلنا فى حل من أن نهمل المرجوحات حين نتركها فى مصادرها القديمة دون بعث جديد ، وإذا اضطررنا إلى الإلمام بها فعلى وجه يثبت ضعفها المرجوح ، وقد مضى العهد الذى يكون التغيير فيه مجموعة أقوال تتفق وتختلف ، وأصبح ميزان العصر الحاضر لا يرضى بغير المؤكد الصائب ، فإذا تنازل عن المؤكد مضطراً إلى الراجح فقد وصل إلى نهاية الشوط دون خطوة نحو المرجوح الضعيف .

ونحاول الآن أن نضرب مثالا لما نريده من التحديد الحاسم فى ضوء السياق العام للنص القرآنى بقول الله عز وجل فى مفتتح سورة النازعات :

« وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذَنْ كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » .

فقد تعددت آراء المفسرين فى توضيح معانى كلمات النازعات والناشطات والسابحات والسابقات والمدبرات ، على وجوه شتى ، وفى هذه الآراء ما امتد حتى تجاوز عدة صفحات أكثرها نُقول عن العلماء دون ترجيح ، ومحاولة تلخيص ما قيل جميعه مشقة لا يحتملها المقال ، ولكننا نقتصر على ما ذكر الإمام الزمخشرى فى الكشاف ، إذ جاء موجزاً دقيقاً بالنسبة لسواه ، كما أن تفسير الكشاف ذو شهرة بمنحاه البلاغى ، فكان المنتظر منه أن يصوب ويصحح فى ضوء السياق العام ، ولكنه اقتصر على قوله : « أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التى تنزع الأرواح من الأجساد وبالطوائف التى تنشطها ، أى تخرجها من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها ، وبالطوائف التى تسبح فى مضيها ، أى تسرع فتسبق إلى ما أمروا به ، فتدبر أمراً من أمور العباد ، بما يصلحهم فى دينهم أو دنياهم ، كما رسم لهم (غرقاً) أى إغراقاً فى النزع ، أى تنزعها من أقاصى الأجساد من أناملها أو أظافرها ، أو أقسم بخيل الغزاة التى تنزع فى أعنتها نزعاً تغرق فيه الأعنة ، لطول أعناقها لأنها عراب ، والتى تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب ، من قولك : ثورنا شط إذا خرج من بلد إلى بلد ، والتى تسبح فى جريها ، فتسبق الغاية ، فتدبر أمر الغلبة والظفر ، وإسناد التدبير إليها لأنها من أسبابه ، أو أقسم بالنجوم التى تنزع من المشرق إلى المغرب ، وإغراقها فى النزع

أن تقطع الفلك كله حتى تنحط فى أقصى الغرب ، والتى تخرج من برج إلى برج ، والتى تسبح فى الفلك من السيارة فتسبق فتدبر أمراً من علم الحساب ، وقيل : النازعات أيدى الغزاة أو أنفسهم تنزع القسى بإغراق الهام والتى تنشط الأوهاق والمقسم عليه محذوف وتقديره لتبعثن لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة » .

هذا ما قاله الكشاف نصاً لا تبديل فيه ، وقد ذكر غيره فى هذا النطاق أكثر مما ذكر من أقوال عليه فى تخريجها ، والاحتيال على تأويلها بما يبعد المجال عن السياق العام ، وقد فات هؤلاء الأفاضل أن يراعوا السورة بأكملها . وأن يقفوا طويلا عند جوها النفسى ومحيطها المعنوى ، لتكون هذه الآيات الكريمة فى مفتتح سورة النازعات إطاراً عاماً لما يأتى من معانى السورة ، إذ هى منها بمثابة المقدمة الموحية المشيرة إلى ما يتبعها من عرض يشمل الفكرة والصورة والمقدمات ، وهى فى المنهج البيانى ذات اتصال وثيق بما يليها على وجه يجب ألا نبعد به فى التأويل عن إيحائها الصريح .

إننا نقرأ ما يلى هذه الآيات ، فنجده يتحدث عن يوم القيامة بأهواله الراعبة ، ورهبه المثير تلمس ذلك فى قول الله عز وجل : « يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ، قلوب يومئذ واجفة ، أبصارها خاشعة ، يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة . أئذا كنا عظاماً نخرة قالوا تلك إذن كرة خاسرة فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة » .

فالحديث إذن عما يلى الموت من بعث أخروى حين ترجف الأرض والجبال بعد أن ينفخ فى الصور ، وحين يحدث هذا الزلزال المروع هلعاً فى أثبت القلوب ، فهى ترجف مرتعشة وفى أهدأ الأبصار تنظر ذليلة خاشعة ، ثم يتساءل أصحابها فى وجل : « أئنا لمردودون فى الحافرة » ،

أن تقطع الفلك كله حتى تنحط فى أقصى الغرب ، والتى تخرج من برج إلى برج ، والتى تسبح فى الفلك من السيارة فتسبق فتدبر أمراً من علم الحساب ، وقيل : النازعات أيدى الغزاة أو أنفسهم تنزع القسى بإغراق الهام والتى تنشط الأوهاق والمقسم عليه محذوف وتقديره لتبعثن لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة » .

هذا ما قاله الكشاف نصاً لا تبديل فيه ، وقد ذكر غيره فى هذا النطاق أكثر مما ذكر من أقوال عليه فى تخريجها ، والاحتيال على تأويلها بما يبعد المجال عن السياق العام ، وقد فات هؤلاء الأفاضل أن يراعوا السورة بأكملها . وأن يقفوا طويلا عند جوها النفسى ومحيطها المعنوى ، لتكون هذه الآيات الكريمة فى مفتتح سورة النازعات إطاراً عاماً لما يأتى من معانى السورة ، إذ هى منها بمثابة المقدمة الموحية المشيرة إلى ما يتبعها من عرض يشمل الفكرة والصورة والمقدمات ، وهى فى المنهج البيانى ذات اتصال وثيق بما يليها على وجه يجب ألا نبعد به فى التأويل عن إيحائها الصريح .

إننا نقرأ ما يلى هذه الآيات ، فنجده يتحدث عن يوم القيامة بأهواله الراعبة ، ورهبه المثير تلمس ذلك فى قول الله عز وجل : « يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ، قلوب يومئذ واجفة ، أبصارها خاشعة ، يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة . أئذا كنا عظاماً نخرة قالوا تلك إذن كرة خاسرة فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة » .

فالحديث إذن عما يلى الموت من بعث أخروى حين ترجف الأرض والجبال بعد أن ينفخ فى الصور ، وحين يحدث هذا الزلزال المروع هلعاً فى أثبت القلوب ، فهى ترجف مرتعشة وفى أهدأ الأبصار تنظر ذليلة خاشعة ، ثم يتساءل أصحابها فى وجل : « أئنا لمردودون فى الحافرة » ،

أى سنعود إلى الحياة السابقة من جديد؟ ثم يفيقون من الذهول فيقولون: تلك إذن كرة خاسرة » لم يحسبوا حسابها ، إذ كان النفخ فى الصورة نذيراً بهذا الهول « فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة » .

إن ارتباط هذه المعانى بما قبلها يحتم أن يكون المعنى الأول هو المختار وحده ، وهو أن المراد بالنازعات طوائف الملائكة التى تنزع الأرواح من الأجساد ناشطة فى إخراجها من البدن — سابحة سابقة إلى أمر ربها القدير ، حيث يظل الجسد فى لحده الساكن حتى ترجف الراجفة فتتبعها الرادفة ، أما أن يكون معنى النازعات هو الخيل أو النجوم أو السهام ، فهذا ما يجعل انفصالا واضحاً بين المعانى لا أظن أن السياق القرآنى يتجه إليه ، وما دام الرسول صلى الله عليه وسلم لم يوضح المراد من النص فى أثر ثابت صحيح فنحن فى حل من أن نحدد المعنى فى ضوء السياق ، أو على الأقل نحن فى حل من أن نجهر بترجيحه وتوهين ما عداه ، فإذا أمضينا فى تلاوة سورة النازعات فإننا نجدها لا تبتعد عن الجو الراعب المؤثر ، إذ تتحدث مباشرة عن فرعون المتغطرس المتأله حين خالف موسى بآياته الواضحة ومعجزاته الشاهدة ، ثم اندفع به الغلو المقيت إلى أن يتجاوز دوره البشرى المحدود فيدعى الألوهية صائحاً فى غرور : « أنا ربكم الأعلى » وتكون عاقبته الداهية أن يأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، والأخذ الراعب والنكال المهلك كلاهما فيما ينسجم مع الجو العام للسورة الكريمة ، إذ تصوره هذه الآيات شريراً غليظاً متحجر القلب يتجاوز طوره فى غطرسة على من يحشرهم من طائعيه ، ثم يتعاظم حتى لا يرى رباً فوقه ، فتكون العاقبة أن يأخذه الله بالنكال « إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » .

وتنتقل السورة من التأثير الوجدانى بالمنظر الراعب ، والعاقبة الفاجعة ، إلى الإقناع العقلى المؤيد بالبرهان المكين ، حين تستدل

ببعض مظاهر الكون المشهودة دون لبس أو خفاء ، لتدل على عظمة الإله الحقيق القادر على البعث والإحياء بعد الموت والإفناء ، فهذه السماء الناهضة أقوى خلقاً من إيجاد البشر ، « أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها » ، «لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس» . هذه السماء قد رفع القادر سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، وهذه الأرض فى الجهة المقابلة بسطها الله ودحاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها ، متاعاً لكم ولأنعامكم . هذه المشيئة القادرة وتلك القوة المسيطرة من الهين عليها أن تبعث الناس بعد الموت حين ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ، ففيم الاعتراض دون دليل ؟ وعلام الإنكار دون برهان ! !

إن هذه الأدلة من مشاهد الطبيعة : من سماء وأرض وماء ومرعى وجبال ، ترتبط ارتباطاً متلاحماً بالمعنى العام للسورة ، لأنها تقدم البراهين الناطقة بالبعث يوم ترجف الراجفة ، لذلك نرى الآيات المتعاقبة تعطف على هذا المعنى ، إذ تعود إلى ذكر القيامة من جديد ، عارضة من الصور الطريفة ما يمثل فريق التقاة والعصاة ، والمؤمنين والكافرين ، والكافرين ، يقول الله تعالى :

« فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ۝ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ۝ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ۝ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۝ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى » .

وهذه المعانى المتسلسلة من مبتدإ السورة إلى مختتمها توحى بأن النازعات وما بعدها هم طوائف الملائكة التى تنزع الأرواح وتنشطها سابحة بها إلى ملئها الأخروى ، أما أن يكون معنى النازعات : خيل

الغزاة أو النجوم الدائرة من فلك إلى فلك ، فهذان المعنيان لا يرتبطان بالسياق فى شىء ، لأن الجو كله جو القيامة والآخرة وأخذ العصاة بأشد ما يرهبون ، فأين مكان الخيول والنجوم ؟

وسيراً مع النص القرآنى إلى نهايته ، فإننا نجد بعد ذلك قول الله :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا • فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا • إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا • إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا • كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » .

لقد ابتدأت السورة بالرحلة الأولى إلى الآخرة حين تنزع الملائكة أرواح المحتضرين ، وتتابعت الآيات تتحدث عما يلى ذلك ، ففيم الشطط والابتعاد .

لقد كان الشهيد الداعية الأستاذ سيد قطب أوضح من تحدث عن السياق الأدبى فى ظلال القرآن ، وكان ما قرره فى هذا النطاق مناراً ساطعاً رفعه بين الناس ليشير إلى اتجاه جديد . وقد تحدث فيما تحدث عنه — فى تفسير النازعات — عن الجو العام للسورة بنبضه الدافق ، ولمسه القوى ، واستشفافه البصير ، فكان مما قال[1] : « وفى الطريق إلى إشعار القلب البشرى حقيقة الآخرة الهائلة الضخمة العظيمة الكبيرة يوقع السياق إيقاعات منوعة ، على أوتار القلب ، ويلمسه لمسات شتى حول تلك الحقيقة الكبرى ، وهى إيقاعات ولمسات تمت إليها بصلة ، فتلك الحقيقة تمهد لها فى الحس ، وتهيئه لاستقبالها فى يقظة وفى حساسية يمهد لها بمطلع غامض ولكنه ينير لغموضه شيئاً من الحدس والرهبة والتوجس يسوقه فى إيقاع موسيقى راجف لاهث ، كأنما

(١) فى ظلال القرآن ، المجلد السادس ، ص ٣٨١١ ، طبعة دار الشرق ببيروت .

تنقطع به الأنفاس من الذعر والارتجاف والمفاجأة والانبهار : والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً » .

هذا الحديث عن المطلع رائع حقاً ، ولكن الشهيد رضى الله عنه ، ذكر بعد ذلك الآراء المختلفة فى حقيقة النازعات والناشطات والسابحات والسابقات ، فقال : إنها الملائكة أو النجوم دون أن يرجح معنى على معنى ، بل عقب ذلك الاختلاف بقوله : « وأياً ما كانت مدلولاتها فنحن نحس من الحياة فى الجو القرآنى أن إيرادها على هذا النحو ينشىء أولا وقبل كل شىء هزة فى الحس ، وتوجساً فى الشعور وتوقراً وتوقعاً لشىء يهول ويروع ، ومن ثم فهى تشارك فى المطلع مشاركة قوية فى إعداد الحس لتلقى ما يردع ويهول من أمر الراجفة والرادفة والطامة الكبرى فى النهاية »[1] .

وما قاله الشهيد رحمه الله حق ، وفرق ما بيننا أنه لم يرجح مدلولا على مدلول ، وإن أهمل بعض المعانى التى ذكرها الزمخشرى ، مثل خيل الغزاة ، وفى رأيي أنه فى سلامة تصوره ، وسداد تفكيره ، كأن أولى المفسرين المعاصرين بالترجيح والاختيار ، أأقول إن المعنيين كليهما قد تساويا لديه ؟ لا أظن ذلك لأن المقدمة البديعة التى نقلتها عنه فى هذا المقال تؤكد ما ذهبت إليه من تفسير أعرضه ولا أفرضه ، وحسبي ذاك . ولى عودة قريبة إلى حديث يتصل بالظلال .

---

(١) فى ظلال القرآن ، المجلد السادس ، ص ٣٨١٢ ، طبعة دار الشرق ببيروت .

• المؤلف فى سطور •

أ . د . محمد رجب البيومى

عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة .

- نال جوائز مجمع اللغة العربية المتعددة فى الشعر والمسرحية والدراسات الأدبية .
- له أكثر من ثلاثين كتاباً فى الإسلاميات والأدب والنقد والتاريخ والبلاغة .
- يصدر سلسلته التاريخية عن النهضة الإسلامية المعاصرة فى أجزاء متوالية ينشرها مجمع البحوث الإسلامية .
- له أربعة دواوين شعرية هى : صدى الأيام ، وحنين الليالى ، وحصاد الدمع ، ومن نبع القرآن .
- نشرت له مقالات وبحوث كثيرة فى الرسالة والثقافة والكتاب والهلال والأديب وغيرها من مجلات العالم العربى .
- أسهم فى الكتابة للأطفال بقصص كثيرة تعددت طبعاتها .

فهرس الكتاب

الموضـــوع	صفحة
مقـدمة	٣
يحاربون الشريعة الإسلامية	٥
الصوت والصـدى	١١
وشهد شـاهد	١٧
الخلافة الراشـدة	٢٣
الحق الإلهى	٢٩
ما هكذا قال العقاد	٣٥
حول سورة الكهف	٥١
مراء لا جـدل	٥٨
الإمام الشافعى بين مفسرين	٦٥
تدوين التاريخ الإسلامى	٧٣
عتاب لا مؤاخـذة	٨١
الفضائل الخلقية فى الإسلام	٨٨
رأى فى تفسير آية كريمة	٩٣
من الابتهالات الدينية...	١٠٠
ابن رشد بين الفلسفة والفقه الإسلامى	١٠٧
حـول لفظ قرآنى	١٢٤
الصوم عند الإمام الغزالى	١٣٠

الموضـــوع	صفحة
عناء ضائع فى كتب التفسير	١٣٩
عقيدة البعث	١٤٦
الدين والوازع الخلقى...	١٥٣
ابن سينا وخلود الروح	١٦٠
المرأة المسلمة فى المجتمع الغربى...	١٧٨
الرسول يبكى ولده إبراهيم	١٨٥
المناسبة بين الآيات القرآنية	١٩٧
من نماذج الصداقة النبيلة	٢٠٣
المناسبة بين السور القرآنية...	٢١١
القرآن أساس الثقافة	٢١٨
أين أنتم من كتاب الله	٢٢٤
الرجوع إلى السياق	٢٣١

رقم الإيداع : ١٩٨٨/٤٧٥٤
الترقيم الدولى : ٦ — ١٩٢ — ١٦٣ — ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفون ٨٢٦٢٨٠ القاهرة

المؤلف

د. محمد رجب البيومى

هـذا الكتاب

يعرض آراء مختلفة ظهرت فى المحيط الإسلامى ، ليضعها موضعها الصحيح من الصواب والخطأ ، فى مجالات كثيرة ، تشمل تفسير كتاب الله ، وأحكام الشريعة ، وأحداث التاريخ الإسلامى ، وتيارات الفكر الوافد ، ممَّا يتعارض مع حقائق الدين ، مع إلقاء الضوء على نقاط دقيقة ذات لبس ، لينجلى مضمونها الصريح .

وقد التزم المؤلف بآداب البحث المتَّزن ، حين هدف إلى اللباب الخالص ، دون أن يزلَّ فى مهاترات نعهدها لدى فريق ممن عناهم بالرد ، ودون أن يشير إلى أسمائهم ، لتكون الأفكار وحدها مجال الدفع والجذب ، بعيدًا عن كل تشهير مغرض ، إذ كان الهدف الأمثل هو إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، مع الترحيب بكل نقد نزيه .

إسلاميات

١٠

مكتبة المسلم العصرية

باشراف

الجمعية الشرعية للعاملين
بالكتاب والسنة بالقاهرة

فى ميزان الإسلام

الجزء الثانى

تأليف

الدكتور محمد رجب البيومى

عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع